تَاسُوع الخلِيل الأَخِير

الكتاب	تَاسُوع الخليل الأَخِير
الكاتب	محمد الطيب
اصدار الطبعة	الطبعة الثانية
رقم الإيداع	
الترقيم الدولي	ISBN
التصميم	بكري خضر

الناشر



نرتقي للنشر و التوزيع
FOR PRINTING AND PUBLISHING

المنشـــية مربع 25 جنوب صيدلية الصفـوة
esraaamin254@gmail.com
00249916874502

محمد الطيب

تَاسُوع الخِليل الأُخِير

رواية

الإهداء

إليك انت وقودي للكتابة والحياة

اليوم السادس

تداعت أسرابُ طيور التاسوع من خلف جبال المناجم ومن دغلِ أشجار الحياة، ومن خلف الدغل، ومن حيثُ لا يعلم أحَدٌ، حطت على أسقفِ المنازل، وشجيراتِ الحياة، وأعلى الهضابِ المهجورة، وعلى الأديمِ الممزوج بغبار الحنين والمغطى ببيض طيور التاسوع الوردي الناعم، برقت أعينُ الثعالب المختبئة خلفَ أشجار الحياة وشجيراتها، برز صالح والزبير يغطيهما الغبار الأخضرُ الداكن، جاء السّر بدون قاطرتِه، وأتت ماريَّة، تحمل غصنًا من الشوك، وزهرةً من شجيرة الحياة، ووقفت غيرَ بعيدٍ منهم، ثم أخيرًا ظهر الذي لا اسمَ له، قادمًا من خلف جبال المناجم، يحمل عصاه يتوكأ عليها، عبر من أمامهم وسطَ حشدِ طيورِ التاسوع، كأنه يمشي في البحر، مشى بخطوات متئدة، نحو الشيخ جابر الذي يتوسط الخليل والطاهر وربيع، قابله بابتسامةٍ مطمئنة، وبسط له يدَه، فتناولها، وقاده نحو دغل الحياة بعيدًا عن السّبعةِ الآخرين، تبعته أسراب طيور التاسوع مشيًا،

وهـي تنعـقُ بصـوت رخيـم، جاوبهـا ضبـاء الثعالـب المتألمـة وكأنّهـا تـزوم.

يتابـعُ الجمـع المشـهد بصمـت، لا أحـدَ يتحـدث، والاثنـان يبتعـدان عنهـما. وبالقـرب مـن الدغـل، توقفـا هنيهـةً، وضـمّ الـذي لا اسـمَ لـه يديـه كأنـه يصـلي، والشّـيخ جابـر يقـف هادئًـا بجـواره، زاد نعيـقُ طيـور التاسـوع وتـردد صـداه في الفضـاء، وارتفـعَ نبـاح الثعالـب كأنّـما ينـادي بعضُهـا بعضًا، ازدادَ بريـقُ الدائرتـين، حتـى سـطعت قمـم جبـال المناجـم وبرقـت بالضـوءِ، انحـسرت الدائـرة المظلمـة، واتسـعت الدائـرةُ المضيئـة حتـى ابتلعـت السَّـماء. ارتفـع الشـيخ جابـر بجسـده إلى أعـلى، رأسـه محنيًـا نحـو صـدره، وكأنّـه غـارق في النـوم، خفقـت آلافُ الأجنحـة وطيـورُ التاسـوع تتبـع الشـيخ جابـر نحـوَ السَّـماء، يبـدو المشـهد مهيبًـا مـن أسـفل، والـذي لا اسـمَ لـه باسـط ذراعيـه إلى أعـلى، مغمـض العينـين، تضطـرب شـفتاه بكلـماتٍ غـير مفهومـة، والشـيخ جابـر يدنـو مـن الدائـرة المضيئـة، وطيـور التاسـوع تتبعـه مغـادرة عالمهـا للمـرّة الأخـيرة، ثـمّ ومضـت الدائـرةُ المضيئـة حتـى غشـيت أبصارُهـم، وابتلعـت الشـيخ جابـر وسربَـه، وعـادت لتومـض ذات وميضهـا الخافـت، يحفهـا اللهـبُ الأزرق الجميـل.

تتداعـى بدايـة اليـوم السـادس كالسـيل المنهمـر في ذاكـرة

الخليل، ينظر إلى الشيخ جابر كأنّما يراه للمرّة الأولى، بلحيتِه البيضاء المستديرة، وجبينه الوضاء، وعمره الذي يقارب الثمانين عامًا أرضيًّا أو يزيد. يجلس مستندًا على الجدارِ الصخري الهائل حجمُه. هكذا يبدو لمن يراه متأملاَ، وإن لم تخلُ ملامحه من الضجر. تنهد الشّيخ جابر والتفت يمينًا، بحث عن خطِ الأفق بعينيه العمشاوين. زفر في ضيقٍ والتفت نحو الخليل قائلًا:

- رغم أنّ هذا هو يومي الأخير، ولكن ما يزال يختلط عليَّ العالمان، لا يوجد خطُّ الأفق هنا.

ابتسم الخليل متعاطفًا:

- لا بدَّ أنّه الحنين.

الحنينُ هو الشعورُ الطاغي في التاسوع، فكلُّ مَنْ غادر العالمَ القديمَ يقوده الحنين، ويعيشُ به، بل هو قوتُ المقيمين وزادهم الأخير قبلَ رحلتهم المحتومة نحو إحدى الدائرتين في سقف السماء.

أطلق الشيخ جابر ضحكةً قصيرة قائلًا:

- ليس الحنين، بل الاعتياد. أتيتُ إلى هذا العالم، من قريةٍ صغيرة، خطّها الأفقي هو المَعلَم البارز فيها. هناك في القوس الأخير، حيث تنثني أشجارُ النيم المخضرة،

وتلتقـي مـزارع البطيـخ بانحنـاءةِ السّـماء الأخـيرة، صانعـة خـطَّ الأفـق، أو حـين ينثنـي النيـل في رحلتـه الأبديّـة نحـوَ الشّـمال، مصافحًـا السّـماءَ في أقـصى شـماله الشّرقـي مودعًـا. لا أسـتطيع رؤيـةَ سـماء التاسـوع هـذه، وحـين يكمـل خيـالي المشـهدَ، يـأتي مصحوبًـا بخـطّ الأفـق وعـروقِ البطيـخ ورائحـة النيـل، هـذه هـي السّـماء التـي أعرفُهـا واعتدتهـا.

ابتسم الخليل قبلَ أن يقول:

- لا بـدَّ أنّـك كنـتَ شـاعرًا في العـالمِ القديـم، ثُـم إنْ لم يكـن هـذا حنينًـا فـماذا يكـون؟

قطـب الشّـيخ جابـر حاجبيـه الذيـن غلـب بياضُهـما عـلى سـوادِهما قائـلًا:

- وهـل الحنـين سـبة كـي يُنكـر؟ مـا زلـت أحـنُّ إلى صيـاحِ الديـوك في الفجـر، وإلى سُـبحَتي الألفيّـة، والطريـقِ نحـو المسـجد، وصـلاةِ الليـل، وقهـوةِ الصبـاح، وشـهرِ رمضـان، وفـروِ الصـلاة بملمسِـه الناعـم، وسـجعِ الدراويـش، وذكـرِ النوبـة، وحوليّـةِ المولـد، رغـم أنني قـد قضيـت هنـا عمـرًا يبـدو لي أطـولَ مما قضيتـه هنـاك، فـإنّي أتيـت إلى هنـا بعـد أن أُنهكـتِ الأعـين، ورسـخَ في الذاكـرةِ مـا رسـخ مِـن مشـاهد.

لم تكـن السّـماء مثـلَ أيّ سـماء. لا تنثنـي عنـدَ خـط الأفـق

لتصافح الأرض، ولكنها ممتدةً وطويلة، ما جعل عالم التاسوع يبدو مثلَ ممرٍّ هائلٍ، تحدّه سماء تلونها ألوانُ الشّفق غالبًا، وشحوبُ الفجر نادرًا. يمتد هذا الممر حتى سلسلةِ جبال المناجم، حيث يعملُ وزير المالية السابق ووزير الدفاع الأسبق كعمال مناجم، وإن غاب عن الخليل في أوّل قدومه الحكمة من التّعدين في التاسوع، حيث تنتهي الملكيةُ وتموت الأطماع.

قال الشّيخ جابر:

- كثيرًا ما يأخذني التّفكير إلى أنّنا أموات، ولكني أعود وأستعيذ بالله من الشّيطان الرجيم، وعلى الرغم أنّني في يومي الأخير، فإنّي ما زلت لا أفهم كيف ولمَ أتينا إلى هنا.

- صدقني حتى الشيطان لا يستطيع الوصولَ إلى هنا. ما يقودك إلى التّفكير في الموت يعتبر سببًا منطقيًّا، فلا نحنُ في العالم الذي نعرفه، وتشكلت فيه حياتنا وكونّا أصدقاءَنا وعلاقاتنا الشّخصيّة. ولا نحن تحتَ الثرى في رقدتنا الأبديّة، بل نحن أسرى لهذا التاسوع الغريب، كأنّه سجنٌ فرض علينا لذنوب لم ندركها، أو نعيها، بل إننا طوال إقامتنا هنا، لم نشعر بالجوعِ أو العطش. يطغى الحنينُ والضجر على المشاعر في داخلنا، وتزوي

الشّهوات والرغبات فلم نعد نملكُ من المشاعر سوى الضجرِ والحنين قوت المقيمين في التاسوع وزادهم.

نهض الخليل مبتعدًا ببطءٍ بقامته الطويلة، حاملًا أربعين عامًا على كاهله، ومعه مكنسته المصنوعة من ساقِ شجرة الحياة، وجاروفه المغطى بغبارِ الحنين.

كلّ الذين سبقوا الخليل في ذات المنزل الذي يقيم فيه، صنعَوا مكانسهم، وهي واحدة من أكثر المهام مشقةً في عالم التاسوع، لا بدّ من الذَهاب عميقًا داخلَ دغل الحياة، حيث تختفي أشعةُ الدائرة المضيئة والمظلمة، وتتكاثف الأشجار بأشواكِها الحادّة، فتمزق اللحمَ بوحشية، لحين العثور على ساق أقل قسوة وسمكًا، ثم يظل يجاهد الواحد منهم وقتًا طويلًا لانتزاعِه وإسقاطِه أرضًا. ولا تنتهي المهمّة إلا والساق قد ارتوى من دم الكناس وعرقه، فيصنع من السّاق جاروفَه ومكنسته، ومن أوراق الحياة شعرَ المكنسة العريضة. يحدث كلُّ هذا وسطَ نعيقِ طيورِ التاسوع وعواءِ ثعالبه، والخوف من المجهول الذي يخبئه دغلُ الحياة!

وبانتهاءِ المهمة، تتشكلُ العلاقةُ القوية بين المكنسة والجاروف والكناس، فيغدو الجميع شيئًا واحدًا. هكذا يشعر الخليل وهو يلج إلى منزلِه الذي يتوسطُ التاسوع،

والممتلـئ بعـشرات المكانـس والجواريـف لمـن سـبقوه إلى هنـا، نُحـت أثـرُ أصابعهـم عـلى عصـا المكنسـة، امتـلأ سـاق الجـاروف ببصماتِهـم المخـضرّة مـن غبـارِ الحنـين. خلـف دمِهـم وعرقهـم لطخـاتٌ عـلى الاثنـين تحكـي قصصًـا عـمّا فاتَـه في التاسـوع وعـمّا ينتظـره في أيامـه الثلاثـة الطويلـةِ القادمـة.

تحـول الخليـل إلى خبـيرٍ في عالمِـه الجديـد. شـهد نهـارًا واحـدًا وأربـع ليـالٍ منـذ قدومـه إلى هنـا ويقـضي الآن يومه السـادس في التاسـوع. نظـر إلى الأعـلى، تبتلـع الدائـرة المظلمـة بحوافها الملتهبـة الحمـراء سـقفَ السـماء، في حـين تبـدو دائـرة الضـوء باهتـة، عـلى وشـك التّـلاشي، كأنّهـا رسـمٌ لطفـل عابـث، بحوافهـا الملتهبـة بلـون أزرق باهـت.

لا يسـتطيع الخليـل قيـاسَ الزمـن بمعايـير عالمـه القديـم. ربما مـرَّ عامـان، أو شـهران. كلُّ شيء هنـا مختلـف، فمعيـار الزمن يُقـاس بتبـادل الأدوار بـينَ الدائـرة المظلمـة والمضيئـة، وتبادلُ الأدوار بينهـما يحـدده الراحـلُ عـن هـذا العـالم الغريـب، فمن تبتلعـه الدائـرةُ المظلمـة، يخلـف ظلامًـا قـدْ يطـول أو يقـصر، حتـى يـأتي دورُ راحـل جديـد، يُولَـدُ خلفـه ظـلامٌ جديـدٌ، أو فجـرٌ جديـدٌ، والفجـر هنـا نـادرٌ. يـرددونَ أنهـم محظوظـون لأنّهـم شـهدوا فجـرًا في حقبتهـم التـي عاشـوها في هـذا العـالم، فمِـن المعتـادِ أن يقـضي المقيـمُ أيامَـه كاملـة دونَ أن

يولـد الفجـر. يرحـل معظـم المقيمـين هنـا عـبرَ الدائـرة المظلمـة، يأتـون ويغـادرون دون أن يشـهدوا ميـلادَ فجـر جديـد، والأتعس حظًـا، هـم الذيـن يولـد الفجـر بـين يـدي رحيلِهـم، في حـين أنّهـم لم يشـهدوه طـوالَ فـترة إقامتهـم، المفارقـة أن الجميـعَ يأتـون مـن العـالم القديـم عـبرَ الدائـرة المضيئـة، فمـن المرجـح أنَ مـن يَعُـد عـبر ذات الدائـرة، يَعُـد إلى ذاتِ العـالم، ولكـن كان الجـدل حـول مـن يغـادرون عـبرَ الدائـرة المظلمـة. ولـو وُجـدت كتـبٌ في التاسـوع، لسُـودت آلافُ الصفحـات عـن مـآل الدائرتـين المظلمـة والمضيئـة، والمصـير المنتظـر لمـن يغـادرونَ عبرهمـا، وإن لم يوقـف هـذا الجـدل بـين القاطنـين في هـذا العـالم الغريـب، بشروطِـه العجيبـة، وقوانينِـه الأكثـر إثـارةً للدهشـة والعجـب.

سُـمي التاسـوعُ تاسـوعًا، لأنّ كلَّ مـن يـأتي إلى هنـا، يقيـم تسـعًا، مـا بـينَ غـروبٍ وشروق، ثـم يغـادر. ويـوم مغادرتـه يـأتي وافـدٌ جديـد، فيظـل العـدد ثابتًـا لا يزيـد ولا ينقـص: تسـعةٌ يقيمـون في أرضٍ غـيرِ الأرض، وتظلهـم سـماءٌ غـيرُ السّـماء، وتُفـرض فيـه قوانـينُ عـالم جديـد عليهـم، ولكـن ما إن يمـرّ ظـلام أو فجـرٌ، حتّـى يبـدأ الوافـد الاعتيـادَ والتّأقلم، بـل إنّ بعضَهـم ربـما وقـع في عشـق عـالمِ التاسـوع، واعتـبره راحـةً بعـدَ عنـاء، وجنـةً بعـدَ شـقاء. ولكـنَّ ثـمَّ آخريـن مثـلَ الزبـير وزيـر الدفـاع السـابق، ومثلـه صالـح كان وزيـر

المالية الأسبق، فقد كانا أكبرَ متضجرين في التّسعة، ويرون أيامَ التاسوع دهرًا لا نهايةَ له. يغطيهما الغبارُ الأخضر، ويأكلهما الحنينُ أكلًا إلى العودة إلى هناك، حيثُ المجدُ والأبهةُ والسّلطة، والحنين هنا يتخذ دثارًا مختلفًا، ولكنه افتقادٌ في المُطلق، كونهما يفتقدان كرسي الوزارة، وتزلفَ المنافقين، وأضواءَ الشهرة وأبهةَ السلطة، في حين يقيمان هنا في المنجم، أحقرِ بقعةٍ في التاسوع، وأقلها منزلةً، وأكثرها مشقةً.

قال الخليل متعجبًا:

- لا أفهم كيفَ يكون صالح الوزير مقيمًا في المنجم؟ الرجل كان مشهورًا بالصلاحِ وحسنِ السيرة والسلوك، فالمنازلُ هنا بحسبِ السّريرة، ألا يبدو هذا خللًا في التّاسوع؟

ضحكت ماريَّة بمرارةٍ قبلَ أن تردّ عليه:

- صدقني، لا يوجد سياسيٌّ صالح حتى وإن بدا عكس ذلك!

ماريَّة بقامتها الربعة، وخصرِها الضامر، وملامِحِها الوديعة، أتت إلى التاسوع في ريعانِ شبابها، فاتنة بمعاييرِ الأرض، جميلة كزهرة الحياة بمعايير التاسوع، فموت

الرغبـةِ، يجـردُ الجـمال مـن ريـبِ الاشـتهاء. فـإن كانـت الرغبـة امتـلاكًا، والاشـتهاء اسـتحواذًا، فغيابهـما يجعـلُ الجمال مجـردًا، كجـمال القمـم في جبـال المناجـم حـين ينظرون إليهـا وأشـعة الدائـرة المضيئـة تداعبهـا عـلى اسـتحياء، أو في جمـالِ منـزلِ الشـيخ جابـر بطبيعتـه المتوحشـة،المنزل الرابـض أعـلى الهضبـة العاليـة بالقـربِ مـن جبـال المناجـم، يرتفـع الطريـق حثيثًـا نحـوه، فيشـعر الذاهـبُ إليـه بأنّـه صاعـدٌ إلى السـماء، تمـرُّ مـن تحتـه غيـوم التاسـوع التـي لا تهطـل أبـدًا، تبـدو زرقـاءَ قاتمـة في نهـاره النـادر، وتنبـض ذات الغيـوم وميضًـا فسـفوريًّا خافتًـا في ظلامِـه، فيسـتحيل المنـزل كأنـما عُلِـقَ بالسّـماء، تحملـه أجنحـة الغيـوم الفسـفوريّة التـي يراهـا الناظـر مـن أسـفل مثـل بالونـات العيـد، تعلـو وتهبـط كأنّهـا تطفـو عـلى سـطح أمـواج غـيرِ مرئيّـة للعيـان. وهكـذا أتـى جمـال ماريّـة، بـل ربـما كانـت أكثـر جمـالًا وسـحرًا، وإن كسـاها الحـزن رداءً قاتـمَ اللـون، أضـاف إلى سـنوات عمرهـا التـي لا تتعـدّى الثلاثـين عمـرًا آخـر، ورغـم أن ابتسـامتها في نـدرة صبـاح التاسـوع، ولكنهـا حـين تـشرق عـلى اسـتحياء، تعـود طفلـة، لا ينقصهـا سـوى الضفائـرِ المجدولـة، واللهـوِ الـبريء.

تعيـش ماريّـة يومهـا الأوَّل في التاسـوع، لا تتحـدث عـن نفسِـها مطلقًـا، ولا تتحـدث إلى الآخريـن إلا نـادرًا، مشـغولة

على الدوام بالتقاطِ الأشواك من شجيرةِ الحياة القصيرة، تجدها مشتتةً ومفرقة بالقرب من جبال المناجم، ثمّ يبدأ عددُها الازديادَ كلما ابتعدت عنها، فتحف الطرقات والمنازلَ المتباعدة، ويقع منزل الطاهر عندَ أبعد نقطة من جبال المناجم، حيث تبدأ الشجيرات في التّحول إلى دغل كثيفٍ، تتطاول حتى تستحيل أشجارًا عملاقة، تحجب ما خلفها، ولا يستطيع أحدُ التسعة الجزمَ بأنّ غابةَ الحياة هي نهايةُ التاسوع أم أنه يوجد خلفها مكانٌ لم تره عينٌ من قبلُ. تتكاثف شجيرات الحياة بسيقانها الرقيقة، وأوراقها اليانعة التي تأتي بلون أديم الأرض، وزهورها الحمراء القانية التي تنزف سائلًا أحمرَ كأنه الدم. كلما غرست أشواك الشجيرة المحيطة بالزهرة رؤوسها الحادة في بتلاتها اليانعة، سَرعان ما تذوي الزهرة بعدها وتموت، ولا يبقى في الشجيرة غيرُ أشواكها، وتستطيل بعدها الشّجيرةُ الرقيقة لتتحول إلى وحشٍ نباتي عملاقٍ، تمامًا كما يبدو الدغل للناظر من بعيدٍ كأنه جيش من الأشجار المتراصّة المرعبة، مدجج بالأشواك الحادَّة القاتلة، يوشك على غزو التاسوع وتسويتِه بالأرض بمَنْ فيه.

يقولُ الطاهر الذي يعيش يومَه الخامس بينهم:

– لا أرى أن النّاسَ تنزل منازلها بحسبِ سريرتها، ولكن

بـما يعتمـلُ في داخلهـا، والفـرق بينهـما كبـيرٌ.

كان الخليــل عائــدًا بعــد انتهــاء جولــة النظافــة اليوميَّــة، يشـعر بالإرهــاقِ والتعـب، نظـر نحـو الطاهـر الـذي نـادرًا مـا يغـادر منزلَـه الكائـن جـوارَ الدغـل، ولا يعـود ذلـك إلى حبِّـه العزلـةَ، ولكــن لمشـقة العبـورِ بـين شـجيرات الحيـاة التـي يغلـب شـوكُها عـلى زهورِهـا حـول منزلـه المعـزول. ذاتَ مـرة غـابَ الطاهـر يومًـا كامـلًا دونَ أن يُـرى بينهـم، وكان هــذا أمــرًا مثـيرًا للاسـتغراب في عــالم عزلتِــه قاتمــة وقاتلـة، لا يكسرهـا إلا قليـل الأنـس بـين التّسـعة القاطنـين فيـه، تحفّهـم الجبـالُ والدغـلُ، والحَـيرة.

غـاص الخليـل في داخلِـه. رحـلَ بالذاكـرة إلى عالمِـه الأرضيِّ، يبـدو المـاضي كأضغـاثِ حلـمٍ ذات ليلـة صيفيَّـة حـارّة. زوجتـه صفيّـة، قلـة الثقـة، أشـواكُ الشـك التـي انغرسـت عميقـاً في لحـم علاقتهـما، خلافاتهـما الرتيبـة، والتـي تتراكـم مـن حولهـا الخلافـاتُ والمشـاكل الصغـيرة دون أن تُحـل، حتـى تحولـت إلى حاجـز ضخـمٍ يحجـز بينهـما، جعـل حياتهـما جافـة وبـاردةً مثـلَ قطعـة خبـزٍ بائـت، تذكـر عملَـه في مصلحـة الضرائـب، غضّـه الطـرفَ عـن التجـاوزاتِ التـي تزكـم أنفـه، وادعائـهِ الدائـم بـأنَّ الأمـرَ لا يخصَّـه.

تمـر عـشرات المعامـلات تحـتَ عينيـه تزدحـم بالتَّجـاوزات،

ولكنَّـــه يتظاهـــر بالعَمـــى. لم تكـــن مهمتُـــه إصـــلاحَ العـــالم، بـــل التعايـــش معـــه. ليـــس صدفـــة أن تكـــون مهمتـــه هنـــا إزالـــةَ الأوســـاخ قبـــلَ تراكمهـــا، وإيصالَهَـــا إلى عـــمال المناجـــم ليشـــعلوا بهـــا النـــار ويضيئـــوا الكهـــوف ويصنعـــوا اللبـــأ، إزالـــة أوراق شـــجيرات الحيـــاة، وزهورهـــا الذابلـــة، وبيـــض طائـــر التاســـوع الـــذي يتناثـــر في كلّ مـــكان مـــن حولهـــم، بلونـــه الـــوردي وملمســـه الناعـــم، وبـــراز الثعالـــب برائحتـــه المزعجـــة، لم يكـــن هنـــاك وقـــت معـــين للعمـــل. يحمل مكنســـته وجاروفـــه وهـــو يطـــوف التاســـوع مـــن جبـــال المناجـــم حتّـــى تخـــوم دغـــلِ الحيـــاة. يثرثـــر وينظـــف، في دائـــرة لا نهائيـــة مـــن المشـــقة والعمـــلِ، كأنّ مـــا يعتمـــل في سريرتِـــه، يســـتحيلُ حيـــاة في عـــالم التّاســـوع وقوانينـــه العجيبـــة. تبـــدو المعضلـــة أكثـــر عمقًـــا، وإثـــارة للجـــدل. هـــل مـــا يعتمـــل في سريرتـــه مـــن جبـــنٍ وخـــور ومحبـــة للســـلامة بغـــضِّ الطـــرفِ والتظاهـــرِ بالعَمـــى هـــو مـــن تحكـــم في حياتـــه هنـــا؟ أم أن سريرتَـــه نفسَـــها بعكرهـــا وقلـــة نقائهـــا وذاتيتهـــا وأنانيّتهـــا هـــي مـــن حـــددت مصـــيرَه في عـــالم التاســـوع؟

أشـــار الخليـــل نحـــو بيـــضِ طائـــر التاســـوع وبـــرازِ الثعالـــب اللذيـــن يتناثـــران حـــول المـــكان:

– أضحـــت نظافتـــه عمـــلًا شـــاقًا ومســـتحيلًا، كأنـــه بيـــضُ الشـــيطان، هـــذا اليـــوم يـــولي، والشّـــيخ جابـــر ســـيغادرنا في أيّ

لحظـة.

تشـعر في حديثـه صـدى أسـفٍ يصعـب التقاطـه، كبقايـا مـن عالمـه القديـم، هـزّ الطاهـر كتفيـه قائـلًا:

- لـو باسـتطاعتنا تجريـدَ هـذا العـالم والنظـر إليـه مـن أعـلى، فهـو يبـدو مثـلَ محطـة انتظـار ليـس إلّا، ولا بـدَّ مـن المغـادرة في وقـتٍ مـا. سـيغادر الشـيخ جابـر ويـأتي آخـر، ينتظـر دوره، وقتهـا سـأكون أنـا في يومـي السَّـادس، كلنـا سـنغادرُ في النهايـة.

قطـب الخليـل حاجبيـه، في عالمـه الأرضيِّ لا يوجـدُ مـا يجمعه بـه، كان الطاهـر وجهًـا تلفزيونيًّـا معروفًـا، يتحـدث عـن كلِّ شيء وفي كلِّ شيءٍ بدراية ومعرفةٍ عميقة، السّياسـة، والفلسـفة والحـب، والعلاقـات الإنسـانيّة وأزمـة المنـاخ، وهـو موظـف في مصلحـة الضرائـب، يترقـى بالصمـت وغـضّ الطـرف، حتّـى جمعهـما التاسـوع، وأضحيـا صديقـين مقربـين.

تردد قليلًا قبل أن يبتّ أمرَه قائلًا:

- أفكر أحيانًا أنّنا موتى.

نظر الطاهر نحوه دونَ أن يعقّبَ، فأكمل قائلًا:

- لـو أن هـذا هـو المـوت، فهـو عمـل عبثـيٌّ بـلا شـك. أسـأل نفسـي كثـيرا، مـا جـدوى كل هـذا الانتظـار، حتـى

تبتلعنا إحدى الدائرتين، وأيهما ستقودنا إلى الجنة وأيهما ستقودنا إلى النار.

أطلق الطاهر ضحكةً ساخرة قصيرة ثُم قال:

- هو الخوف والأملُ إذن، ربما الجميعُ هنا يخافُ ويأمل، ولكنهم يجيدون إخفاءه جيّدًا، ألم يخطر في بالك أنّك جنتُكَ ونارُكَ، ولا تحتاج إلى انتظار ما تقرره الدائرتان في الأعلى.

- إذًا، فنحن أمواتٌ حسبما ترى يا صديقي.

بدا أن صمتَ الطاهر سيطول كثيرًا، وهو ينظر بعيدًا نحوَ أسراب طيور التاسوع وهي تحلق فوقَ الدغل الكثيف، قبل أن تنثني أسرابها مبتعدة لما بعد الدغلِ نحو المجهول، عاد بنظره إلى الخليل مرّة أخرى قائلًا:

- لو كان هذا هو الموت، فهو لا يبدو سيئًا في المُطلق. نعم، هو جردني من كلّ ما كان يشكل معنًى في حياتي، الشّهرة، الأضواء، العلاقات الجيّدة، النّساء الجميلات، دعوات العشاء الفخمة، الليالي الثقافيّة، الحوارات المثمرة، وقدَّمَ لي بدلًا من ذلك عزلةَ التاسوع، ثم عزلةً مضاعفةً بمنزلي جوار الدغل، لا أخرج منه كي ألقاكم إلا بملابس ممزقة وجلد دامٍ، من خدوش أشواك شجرة

الحياة البغيضة، ألا يبدو هذا مدهشًا؟ انظر إلى شجيرةِ الحياة وهي تبدو غضّةً، رقيقة، بزهورها الحمراء القانية، وجمالها البارع، ثم انظر إليها شجرة ضخمة، بأشواكها التي تبدو كالحرابِ، عدائية ومؤذية، أنتم تتجنبونها بالتّجاهلِ، ولكن بالنسبة إلي، هي كحراس لسجني الإجباري في منزلي القصي البعيد.

ابتسم الخليل مواسيًا، ربت على كتفِ الطاهر قائلًا:

- على الأقلّ أنت والشّيخ جابر تقيمان في التاسوع دون مهمّةٍ شاقة تُفرضُ عليكما الالتزام بها مثل البقية.

- وهل هناك مهمةٌ أكثر مشقّةً من العزلة؟

لا أدري لماذا لم أجن حتى الآن، في تاسوعي الثالث، قررتُ ألّا أغادرَ منزلي، شعرت بالاكتفاء من وخز الأشواك الصغيرة، وخدوشِ الأشواك الكبيرة، اكتفيت من الألمِ والوجع، فانزويت في منزلي، لا يؤنس وَحدتي سوى نعيق طيور التاسوع وضُباح ثعالبه حول المنزل، طول مكوثي في ذلك الليل الطويل، علمني الإنصات، أضحيت أجيدُ معرفةَ أوقات تكاثر الطيور، ولحظاتِ غضبها، وشجارِها الدمويّ العنيف، ولحظاتِ أَنَسها، ونعيقها الذي يشبه الغطيط في أوقات نومِها المتقطعة النادرة، بل حتى الثعالب، رغم حيائها، واختبائها

معظم الوقت بعيدًا عن الأعين، فإنَّي بتُّ مدركًا لألمها حين أسمع ضغاءها، واجتماعها حين نباحها، وأرصدُ أوقات سفادها من عويلها، سأكون كاذبًا لو قلت إنه لم يكن هناك متعة في كلّ هذا، ولكنها متعة ممزوجة بالضجر. فجدران المنزل الجرداء الصامتة، ونوافذه الصغيرة العالية، وأبوابُه الضخمة الصدئة، وحراسُ الدغل بأشواكهم الحادّة المتأهبة، كلّ هذا يذكرني بعزلتي الطويلة، الممتدة منذ قدومي إلى التاسوع.

نظر إلى الخليل ثم عاد للنظر بعيداً قبل أن يكمل قائلًا:

- في عزلتي تلك، لم يكن يصلني من غبارِ الحنين، إلا النذر اليسير، فأشجارُ الحياة العملاقة تستنشق معظَمَه، وتصدّ أغلب البقيّة، ما جعلني أنظر إلى حياتي السّابقة في شيءٍ من الحياد، وأقارنها بِمَا أعيشه في عالمِ التَّاسوع، وأعيدُ ترتيبَ ما اصطلحَ النَّاس هنا على أنَّها قوانين التاسوع وفلسفته، ولأنّني كنتُ أملك زمنًا غيرَ محدود، وعزلة لا قاطعَ لها، جعلت حبلَ أفكاري يقودني حيثُ يشاء، تذكرت علاقاتي النسائيَّة، وصلاتي بالنّاس بدافعِ المصلحة، ابتسامات المجاملة، وعبارات المداهنة، انتبهت إلى أكذوبة حياةِ الأضواء التي كنتُ أعيشها، وبحثت كثيرًا عن علاقةٍ إنسانيّة بلا منفعة، وغصتُ عميقًا في داخلي، فلم أجد سوى حبّ مراهقة لم يتجاوز أحلام

يقظتي، وأمٍّ ذهبت مبكرًا ولم يبقَ في ذاكرتي منها سوى ملامح باهتة، مثل الرّسم على الرّمل، وجدت أنني كنت قاسيًا، ومتسخًا، ومنافقًا على أحسن الفروض. ولو كان التَّاسوع ينزلنا منازلَ بحسب نقاء السَّريرة، لكنت ثالثَ الاثنين في المنجم، ولو أنَّ هناك دركًا أكثرَ عمقًا لكنته، ولكني على العكس، أجد نفسي بلا عملٍ في عالم التّاسوع، أقتات العزلةَ والضجر، وأستمع إلى صوت أفكاري الذي كنتُ أهرب منه طوالَ حياتي.

خرجت تنهيدةً حارة وطويلة من صدره ثمَّ أكمل قائلًا:

- لو أنّ ما فكرت فيه كان صحيحًا، فإن ما يدورُ في التاسوع لا علاقَة له بنقاءِ السّريرة واتساخها، ولكن بِمَا يعتملُ فيها من طموحٍ وآمال ومخاوفَ، ليس التّاسوع من يختار منزلنا، ولكنه خوفنا الذي نخفيه فيعريه هذا العالم القاسي، ظللت طوالَ عمري أبحث عن الأضواءِ وأخشى أن أنسى، فقدم لي التّاسوع العزلة معادلًا لكلّ هذا.

تخيل الخليل نفسه ممسكًا جاروفَه ومكنسته، وينظف ركامَ الخلافات مع صفية، ويرفض توقيعَ المعاملات الفاسدة، ويكنس أوراقَها ويسلمها إلى عمال المناجم ليشعلوها

داخلَ كهوف الحنين، تذكر خوفه العظيم من مواجهة مشاكله، فوافقَ حديث الطاهر صدى في نفسه.

قطعت قاطرة الحنين عليهما الحديث، وهي تعبرُ أعلى منهما، موزعةً غبارَ الحنين في فضاء المكان، لوَّح السّر بيديه محييًا من أعلى، ثم عاد إلى قيادة القاطرة التي تسبح في فضاء المكان ببطء.

ويخرج غبارُ الحنين بلونه الأخضر الكثيف من نوافذها الثمانية، متمددًا ببطء، حتى كادَ أن يغطيَ القاطرةَ بألوانها البهيجة، تابعها الخليل وهي تنحني مبتعدة، وغبارُ الحنين يهبط ببطء مغطيًا شجيراتِ الحياة، وسقفَ منزله، وأديمَ الأرض بلونه البني، وعلى بيض طائر التاسوع وبرازِ الثعالب المنتشر في المكان، وعلى الطاهر المنتصبِ بجواره، فبدا التاسوع من حوله، كأنّما غُطي بسجادةٍ خضراء يانعة، تفوح منها رائحة الحنين النفاذة، وما أن نفذ الغبار إلى صدره، حتى تداعت الذكريات إلى رأسِه مثل السّيل، مرّت بخاطره مداعبة صغيرته آسيا، ضحكات صفية المنطلقة التي تأسره قبلَ أن يجرفها الشك وريحُ الخلافات، سيارته الكوريَّة البيضاء وقعقعتها في الطريق، بل قاده الحنينُ إلى مصلحةِ الضرائب، وإلى زملائه بفسادهم وتزلفهم الفاضح لمدير مصلحةِ الضرائب السّيد بطة، كما اعتاد تسميتَه بينه

وبين نفسه، ولأن الحنينَ لا قانونَ له أو رادع، فقد افتقد مِشيةَ السّيد بطة البطيئة، وساقيه المتفرقتين، وكرشَه الضخم، ورأسَه الأصلع، وأصابعَ كفه القصيرة الغليظة، وهو يشير بها نحوه ملقيًا بأوامره التي لا تنتهي، وحين مرت ثرية بخاطره، لم يشعر بوخزِ الضمير كما اعتاد في حياته الأرضيّة السّابقة، ولكن شعرَ بحنينٍ يكاد يقتله إلى لقاءٍ عابر يجمعهما، يتحدثان قليلًا، ويرتشفان كوبَ القهوة، وتخبره عمّا حدثَ لها بعد أن تركت مصلحةَ الضرائب، وتغض الطرف عن حجمِ الشّرخ العظيم الذي خلفه في حياتها، ثم يتصافحان ويذهب كلّ واحدٍ في حالِ سبيله.

حين انتبه إلى الطاهر، وجده يشرقُ بالبكاء، لا بدَّ أن تأثيرَ الحنينِ عليه كان قويًّا. وهكذا هو الحال في التاسوع، كلما مرّ السّر بقاطرته في سمائِه، موزعًا غبارَ الحنين في المكان، يعود التسعةُ إلى عالمِهم السّابق، يشرقون بالحنين، والبكاءِ، يفتقدون أحباءَهم، وأهلَهم، وأحلامَهم الأرضيَّة السّابقة، بل إن فرط الحنين يدفعهم لتذكر خيباتهم الموجعة، وفشلهم المضني، وخوفهم المريع من المجهول، فيضحون غرباء عن هذا العالمِ، ينظرون إلى شجيراتِ الحياة كأنهم يرونَها للمرة الأولى، ويرمقون طيورَ التاسوع بمناقيرها المعقوفة، فتبدو غريبة، متوحشة

ومخيفـة، ثـم ينتبهـون إلى الدائـرة المظلمـة، فترتعـش قلوبهـم خوفًـا مـن مجهـولٍ ينتظرهـم، قـد يكـون التاسـوع بائسًـا، مريعًـا، ومخيفًـا، ولكـن المجهـول يبـدو أكثـرَ إخافـةً، وربـما آثـر بعضهـم البقـاءَ في التاسـوع بـدلًا مـن رحلـة المجهـول عـبرَ الدائـرة المظلمـة المخيفـة، ولكـن حـين يستنشـقون غبـارَ الحنـين، وتعبـأ صدورهـم بـه، ينـزاح خوفهـم جانبًـا، وتدفعهـم شـدّة الشَّـوق والافتقـادِ إلى البحـث عـنِ النجـاةِ مـن التاسـوع، والتخلـصِ مـن الحنـين الـذي يـأكلُ أرواحَهـم، ولـو بالسّـفرِ إلى الجحيـمِ عـبرَ الدائـرة المظلمـةِ المميتـة.

يـأتي غبـارُ الحنـين متقطعًـا في عـالم التاسـوع، تحملـه قاطـرة الـسّر، وتوزعـه عـلى العـالمِ بالتّسـاوي، فيقـضي عـلى وهـمِ تأقلمهـم مـع وحشـة التاسـوع وعزلتـه، ولكـن سِرعـان مـا تمتصـه شـجيراتُ الحيـاة الرقيقـة، وأشـجارها العملاقـة، ورئـاتُ الثعالـب الخجولـة وطيـورُ التاسـوع بأعدادهـا الضخمـة، ثـم يختلـطُ مـا تبقـى منـه بالأديـم ويقـل أثـره حتـى يـكاد ينعـدم، فتعـود حياتهـم إلى روتينهـا، ويسـتمر سـعيُهم إلى التأقلـم مـع عالمهـم، وينالـون هدنـةً قصـيرة مـن وجـع الحنـين وألمِـه، فكيـف إذن يكـون الحـالُ بصالـح والزبـير، وهمـا يعمـلانِ في مناجـم الحنـين، ويسـتخرجونه مـن الكهـوف، وصدورُهـم تعبـأ بـه ولا تفـرغ منـه أبـدًا؟

قال الزبير الذي يقضي يومه الثامنَ في التاسوع شاكيًا ذات مرة:

- ليتنا نستطيعُ التأقلم معه، ولكنَّه يظل طارئًا على الدوام، يأتي كلّ مرة وكأنّه يأتي للمرّة الأولى، فيأكل قلوبَنا، ويحيل أرواحَنا إلى هباء. التاسوع جحيمٌ لمن هم مثلي، من عليهم التنقيب عن أسباب شقائِهم في المناجم، واستخراجها، يبدو الأمرُ أحيانًا وكأنّنا نحفر قبورَنا بأيدينا، لن تستطيعَ تخيل مدى صعوبة الأمر، فأنتَ لا تعاقر الحنين إلا وقت مرورِ القاطرة، ولكننا في المنجم، نعاقره حتى نشرع في البحثِ عن الموت، لو لم نكن أمواتًا بالفعلِ. ذاتَ مرّة، صَعِدَ صالح إلى هضبةٍ عالية بالقرب من المناجم، وقفز منها بقصدِ الانتحار، ولكن الأمر لم يجرِ كما توقع، بدا مثلَ رِيشةٍ تحملها الرياح، تموج في الهواء يَمنة ويَسرة، وظللنا ننظر إليه وهو يدنو مِنا شيئًا فشيئًا، قبلَ أن يهبطَ بقدميه على الأرض، دونَ أن يصاب بخدشٍ واحد، ثمَّ عاد إلى العمل صاغرًا يلفه الحنينُ واليأسُ.

السّر بجسده الضخم وعضلاته المفتولة وقامته الفارعة، لا يوحي لمن يراه أنه في منتصف العقد الخامس، بقيادته لقاطرة الحنين، وبوجوده بالقرب من جبال المناجم، لم يكن يقلُّ عنهم شقاءً، فهو المسئول عن تعبئةِ عربات

قاطرتـه الأربـع بغبـار الحنـين ولبـأه، وقيادتِها بعـد ذلـك، في سـماءِ عـالم التاسـوع. كثـيرًا مـا يُـرى باكيًـا وهـو يقـودُ قاطرتـه في جنبـات التاسـوع، يحـنُّ إلى قطيـعِ أبقـاره، وحظائرِهـا، وإلى مـزارعِ المـوز الشّاسـعة بأشجارها القصـيرة وأوراقهـا العريضـة، وثروتـه الضخمـة التـي فارقهـا إلى غـيرِ رجعـة. رغـم سـنوات عمـره التـي قاربـت مـن السّـتين، فإنَّـه لم يتـزوج، كان راهبًـا متبتـلًا في محـرابِ العمـلِ، يكـد كالثـورِ طـوالَ النهـار، ويقـضي سـحابةَ الليـل في إحصـاء أرباحِـه. يـصرّ الـسر عـلى أنـه لم يكـن إنسـانًا سـيئًا، وأنـه لم يـضر أحـدًا في حياتـه، وكان مسـتقيمًا في تجارتِـه، يتصـدق ويسـاعد المحتـاجَ، ويغيـث الملهـوفَ، ولا يفهـم حتـى الآن لمـاذا كان التاسـوعُ قاسـيًا معـه إلى هـذا الحـدّ، بـل ربـما أحـسّ الآخـرون بالتعاطـفِ معـه، وشـملتهم الحَـيرة مما يعانيـه، فحسـب مـا يـرى الجميـعُ هنـا، فـإن التاسـوعَ قـد جـار كثـيرًا عـلى الـسّر، وأنـه لا يسـتحق أن يعبـأ صـدرَه بالحنـين طـوالَ اليـوم، ولكـن الطاهـر يـرى أن الـسّر قـد أهلكـه التّسـويف، تجـأر سريـرة الـسر ليـلَ نهـارَ، في طلـب دفءِ الزوجـة والابـن، ولكـن كلّ هـذا كان مؤجـلًا حتـى يجـد زمنًـا لاختيـارِ زوجـة صالحـة، وامتـد التّسـويفُ عامًـا بعـد الآخـر، فأقنـع نفسـه بـأن قطـارَ الـزواج قـد فاتـه، وأنـه لم يعـد يصلـحُ لشـأن الـزواج الأبنـاء، ونـام ذاتَ ليلـة

ليستيقظ ويجد نفسه يقود قاطرة الحنين في عالمِ التاسوع، يعمه الحنين ويقتله النّدم.

بدأ انتشارُ بيضِ طيور التاسوع بلونه الوردي وملمسه الناعم، وكذلك برازُ الثعالب بلونه البني وملمسه الخشن بطريقة مزعجة، وبلغ الإجهادُ بالخليل أيّما مبلغٍ لِنظافةِ المكان من دون طائلٍ، وبدأ صالح والزبير التّشكّي من غياب مساحة لتخزين البيض. والجميعُ كان يعلم أن الشّيخ جابر سيرحل إلى غيرِ رجعة. في اللحظةَ التي ستمتلئ فيها كهوف الحنينِ بالبيض.

مَنْ يسكنُ غادة أعلى الهضبة يعدُّ ملكًا غيرَ متوَّج، فهو الأقّل إجهادًا، بلا وظيفةٍ محددة في التاسوع، ويسكن فوقَ الغيوم الفسفوريَّة، في أفخم منازل هذا العالم العجيب، ولا يصلُ إليه غبارُ الحنين إلا لمامًا لارتفاعِ الهضبة. فلا يعاني مرارةَ الفقد ووجعَ الفراق مثل البقِية، ربما كان الحسدُ كامنًا في النفوس، ولا يخرج إلى العلن، خاصّة من عمال المناجم، وربما سائق القاطرة أيضًا، ولكن بما أنَّ هناك تسليمًا أن هناك ناموسًا تاسوعيًّا لا يمكن كسرُه أو تحطيمُه، وأن القادمَ عبرَ الدائرة المضيئة ينتظره منزله دون تدخلٍ من أحد، هناك تسليم محض بأن كلّ هذا مقدر، وأنهم لا يملكون إلا الإذعان لترتيب التاسوع الذي يجتهدون في فهمِه، فيصيبون مرّة ويخطئون مرّات.

يترافـق الطاهـر والشَّـيخ جابـر في أوقـاتِ ظهـورِ الطاهـر النـادرة، ومغادرتـه إلى منزلِـه القـصي الـذي يدعوه بالسّـجن، وينضـم إليهـا الخليـل في أوقـات متباعـدة، وغالبًـا مـا ينضـم ربيـع إلى مجلسِـهم، مرتديًـا زيَّ المهـرج، يتابعُ حديـث الثلاثة، وهـو يتقافـز حولهـم بـين الحـين والآخـر، ويلقـي ببيـض طائـر التاسـوع الـوردي الناعـم في الهـواء ويلتقطـه في براعـة، ثـم يجلـس هنيهـةً قصـيرة، ويعـود لتنفيـذ بعـضِ الألعـاب البهلوانيّـة في دائـرة لا تنتهـي إلا لتبـدأ مـن جديـد، وكانـت هـذه هـي وظيفتُـه في عـالم التاسـوع، يخطـو حثيثًـا نحـو يومِـه الخامـس، بخطـوات راقصـة، وضحـكات ماجنـة، ومزاحـه الـذي لا ينتهـي إلا ليبـدأ مـن جديـد. كان ربيـع في منتصـفِ العقـد الرابـع مـن عمـره، نحيفًـا، طويـلَ القامـة، سـينجح غالبـاً في تقمـص دورِ المهـرج دون الحاجـة إلى ارتـداءِ القنـاع الملـون، والقبعـة ذات الذيـل الطويـل المضحـك. يملـك ربيع سـاقين نحيفتـين كالعصـا، وحـين ينـزع قبعتَـه يبـدو شـعره المتراجـع مـن الجانـب الأيمـن كرسـم هـزلي. قـال الطاهـر مـرّة، إن هنـاك شـيئًا يجمعـه بطائـر التّاسـوع، فلـو تجاوزنـا سـاقيه الطويلتـين الرقيقتـين، فـلا بـدَّ أن أنفَـه المعقـوف الطويـل يشـبه منقـار طائـر التاسـوع، ولا بـدَّ مـن ذكـر عينيـه بحجمهـا الصغـير ومنظرهمـا المضحـك. كان ربيـع صحفيًّـا مشـهورًا في عالمِـه الأرضي، يلعـب عـلى كلِّ الحبـال، يعتـبر

عمـوده الصحفـي عطـاءً مفتوحًـا لمـن يدفـع أكثـر، ومقالاتـه تتلــونُ عــلى حســب رغبــة المشــتري، كان يُدعــى عاهــرةَ الصحافـة، ولم يكـن مباليًـا، مـا يهمـه هـو عـددُ الأصفـار في حسـابه البنكـي الـذي قـد تجـاوز سـبعة أصفـار بالفعـل، لم يكـن لديـه أصدقـاء، ولكـن مجموعـة مـن العلاقـات النفعيّـة المتشـابكة، تجعـل أصدقـاء اليـوم هـم أعـداء الغـد، وأعـداء الأمـس أصدقـاء اليـوم، لا عـداوة دائمـة ولا صداقـة دائمـة، لم يكـن مسـتغربًا أن يكـون مهـرجَ التاسـوع، فـدوره لم يكـن يختلـف كثـيرًا عــن حياتــه السّــابقة، يلعــب عــلى الحبــال ويتقافــز في حــركات بهلوانيّــة، وينــشر الفــرح في عــالمٍ لا ينشــد الفــرح ولا يبحــث عنــه، ولكــن حــين ينــزع قناعَــه، يظهـر بؤسـه في نظرتـه الذابلـة، وعبوسـه الدائـم.

قـال صالـح وهـو ينظـر إليـه ذات مـرّة يتقافـز بالقـرب مـن المناجـم:

– تـرى مـا الحكمـة مـن وجـود مهـرج في عـالمٍ بـلا فـرحٍ ولا إحســاس بالبهجــة؟، هــذا الربيــع يظــل يتقافــز مــن حولنـا، وهـو يعلـم ألّا أحـد يحفـل بـه، يبـدو الأمـر وكأنـه كوميديــا ســوداء لا تجلــب الضحــك، بــل حــين أنظــر إلى هـذا التاسـوع أتعجـب، لمـاذا ننقـب عـن الحنـين وهـو يقتلنـا بالفقـدِ، ومـا الحكمـةُ مـن توزيـع غبـارِه في المـكان، ولمـاذا تنـزع ماريَّـة الأشـواك مـن شـجيرة الحيـاة، ويظـل الخليـل

يـدور في المـكان يجمـع الأوراقَ الجافّـة والزهـورَ الذابلـة، وبـرازَ الثعالـب وبيـضَ طائـر التاسـوع الـوردي في حلقـة لا نهائيـة لا تنتهـي إلا لتبـدأ مـن جديـد. مـا الجـدوى مـن كلِّ هـذا، ولِمَ نحـن منقـادون إلى نامـوس لم نضعـه؟، لـو أن الأمـر بيـدي، لأحرقـت التاسـوعَ بمناجمِـه ودغلِـه وطيـورِه وأشـجارِه وليحـدث مـا يحـدث بعدَهـا!

يجتمـع الخليـل والطاهـر والشـيخ جابـر في أوقـات متباعـدة، يقطعـون الوقـت في أحاديـثَ طويلـةٍ، يتحدثون عن التاسـوع وقوانينِـه، وعـن عالمِهـم الأرضي السّـابق، لم يكـن هنـاك غـرضٌ حقيقـي مـن اجتماعهـم سـوى كـسر حاجـز العزلـة، بحـثَ الإنسـان عـنِ الإنسـان، تعزيـة النفـس بأنـك لسـت وحيـدًا في مصابـك. وهكـذا يمـضي الزمـنُ في عالم التّاسـوع، لحـين انقضـاء ظـلام وقـدوم فجـرٍ جديـد أو ظـلام آخـر.

ينظـر الخليـل سـاهمًا إلى بيـض التّاسـوع وهـو يتسـاقطُ مـن أعـلى مثـل نـدفِ الثلـج، ويتـماوج في الهـواء كقطـعٍ مـن الفلـين قـرب نهايـة اليـوم السـادس، قبـل أن يقـول بنـبرةٍ حـاولَ أن يجعلهـا هادئـة:

- لم يَعُدْ هناك متسع في الكهوف لمزيدٍ من البيض.

ابتسـامة الشّـيخ جابـر الهادئـة أثـارت دهشـتهم وهـو ينظـر نحـو الخليـل قائـلًا:

- حسنًا، هذا يعني أن أستعدَّ للرحيل، رغم أنه ليس هناك حقائب كي تحزم

أتبع عبارته بضحكة صغيرة، فاقترب الطاهر بوجهه منه وقال مقطبًا جبينه:

- ألستَ خائفًا؟ قد تبتلعك الدائرةُ المظلمة.

رد الشّيخ جابر دونَ أن تخفت ابتسامته:

- ما الدائرةُ المظلمة؟ وما الذي يجعلها أكثر رعبًا وخيارًا سيئًا، مقارنة بالدائرةِ المضيئة؟ كلتاهما مجهولتان بالنسبة إلينا.

تراجع الطاهر إلى الخلف قليلًا، وقال في تردد:

- يقال إنها تحملك إلى الموت مباشَرةً.

- هل ذهب أحدٌ إلى هناك وعاد ليخبرك بهذا، هذا مجردُ فرض لا يستطيع أحد الجزم بصحته، بل ربما تكون هذه الدائرة نفسُها هي الطريق إلى النّجاة.

صمت قليلًا ثم أكمل:

- وهل الموت مخيف كي أخشاه؟ لو سألتني فإني أرجو الموتَ حقًّا، وما ظني بربي إلا خيرًا، مالي ولعالمي السّابق؟ لقد قضيت فيه ثمانين عامًا أو يزيد، ما الذي

ينتظـرني هنـاك سـوى الذكريـات والحنـين. صادقًـا أتمنـى أن تأخـذني دائـرةُ المـوت، فلـم يعـد لـدي رغبـة في مكابـدةِ الحيـاة.

صمتـوا كأنـما حـلَّ عـلى رأسـهم طائـرُ التاسـوع، غـاص كلُّ منهـم داخـلَ نفسـه، بحثًـا عـن إيـمان يقـارن بإيـمان الشـيخ جابـر ولكنهـم لم يجـدوا سـوى الشّـك والريبـة والخـوف، ففـروا إلى عـالم التاسـوع، والدائـرةُ المضيئـة تتسـع حلقتهـا وتدنـو مـن الدائـرة المظلمـة إيذانًـا بـأوّل المراسـم لرحيـل الشـيخ جابـر.

أنكـرت السـماء دائرتهـا المظلمـة بعـد رحيـل الشـيخ جابـر، واتسـعت الدائـرة المضيئـة نـاشرة أشـعتها فـوق رؤوس جبـال التاسـوع وأعـلى دغـل الحيـاة، صرخَ ربيـع فبفـرح:

- إنّه فجرٌ جديد، سنعيش تاسوعًا آخرَ في دفء النهار.

قفـز عِـدَّة قفـزات بهلوانيَّـة في الهـواء، صفـق بيديـه جـذلًا، كان الجميع ينظـر إليـه في صمـت، والـذي لا اسـمَ لـه يعـبر مـن بينهـم كأنـه الطيـف، ثـم تفـرق الجميـع كلّ إلى منزلِـه. كان التاسـوع خاليًـا الآن مـن طيـورِه ومـن الشـيخ جابـر، وضـوء الفجـر يحيلـه إلى مـكانٍ غريـب، غـير معتـاد، والنـور يغـزوه كالعافيـةِ في الجسـد، وربيـع مـا زالَ يتقافـزُ حـول المـكان بحكـمِ العـادة، ثـم بـدأ بيـضُ التاسـوع الخفقـانَ،

وسَرعان ما انشقت قشور البيض من مقدمتها، وبرزت مناقيرُ صغار طيور التاسوع، خرجت الآلافُ من فراخ طائر التاسوع الصغيرة، بلونها السّكري ومناقيرها البرتقاليّة، تتلفت حولها بحَيرة، قبل أن تقودها غريزتها نحوَ الدغل، فتندفع نحوه مثل جيشٍ صغير، وتركض خلفها عشرات الثعالب مزمجرة حتّى يبتلعها دغلُ الحياة وكأنّها لم تكن.

أمسك الخليل جاروفَه ومكنسته، خرج إلى التّاسوع من منزله، وبدأ كنسَ قشورِ بيض التاسوع، نظر نحو المناجم، لا بدَّ أنهم الآن قد أشعلوا النار في المخزون كاملًا، لتجهيز لبأ الحنين استعدادًا للقادم الجديد، تنهد وهو يتذكرُ المشهد المهيب لمغادرة الشيخ جابر،هذا العالم المؤقت بزمن محدد، وأنت تنظرُ إلى تعاقب ليله ونهاره، موقوت بميعاد معلوم للمغادرة، كأنك محكوم بالإعدام، ينتظر ميعاد التنفيذ في قلق وترقب، حل الآن يومه السّابع، تبقى له يومان وسيقف ذاتَ الموقف، وتبتلعه إحدى الدائرتين.

هل سيكون هذا هو موته الأوّل أم الثاني؟ لم تكن لديه الشجاعة لمواجهةِ كلّ هذا، يا للشيخِ جابر وشجاعتِه وثباتِ جنانه!، وهو يغادر في ثباتٍ، شعر بجسده يتداعى، اتكأ على جاروفه، يتقافز ربيع حوله، وتنتشر قشور بيض

طائر التاسوع مدَّ البصر، شعر بالإنهاك واليأس، ولكن لا مفرَ من المواصلة، تنهد ملءَ صدرِه، لا بدَّ أن القليلَ من غبار الحنين قد تسلل إلى صدره وذكرى عالمِهِ الأوّل تجتاحه فجأة، نفض رأسه بقوة، انتصب واقفًا، أمسك الجاروفَ والمكنسة، ثم شرعَ يكنسُ قشورَ بيض التاسوع في عزم، استعدادًا لمقدم الضيف الجديد.

لجأ الطاهر إلى واحدة من شجرات الحياة، هربًا من منفاه الإجباري، اتكأ على ساقها في حذر، متجنبًا أشواكَها الحادّة. في يومِه السادس، وعزلته التي تمتد لقرن أرضيّ من الزمان حسبما يشعر، ذهبت بأفكاره أيّما مذهبٍ، ولكنّها جميعًا مجردُ احتمالات، تتساوى عندها نسبة الخطأ أو الصواب، بل ربما كانت نسبة الخطأ أعلى، فالصوابُ احتمال واحد والخطأ عددٌ لا نهائيّ من الاحتمالات العشوائيّة، هل هم موتى كما يعتقد الخليل؟ هل هم في رحلةِ الموت؟ هل هذا مجرد حلم طويل ومعقد وسيستيقظ منه ليعود إلى ممارسةِ حياته الطبيعيّة مرّة أخرى؟ هل التاسوع جحيم كما يدعي قاطنو جبال المناجم؟ أم هو مجرد محطة انتظار في رحلة ذات خط مستقيم كما يتفلسف هو، محاولًا تبسيط ما لا يُبسط؟

عاد إلى تأمل حياته السّابقة، افتقاده المتعاظم لها كلما أمضى زمنًا هنا، رغم أنها تبدو الآن بعيدة وكأنها

حدثت في عصورٍ ساحقة من التَّأريخ المنسي للبشر. تبدو الذكريات باهتة كمشاهدَ من فيلم قديم، تعتريها خدوشُ الذاكرة وضبابُ الزمن الممتدّ الطويل، رغم أنّها لم تكن حقيقية بقدر ما كان يظن في عالمه القديم، فإنّه يحنُّ إليها، يسعى لكسرِ عزلته الممتدّة الطويلة، ويكره أشجارَ الحياة وأشواكَها، ويخشى أن تبتلعه الدائرة المظلمة فتبعده عن حياتِه السّابقة إلى الأبد.

قطع عليه حبلَ أفكاره المتداعيَ وميضُ الدائرة المضيئة بلهبها الأزرق، نهض من جلسته، وحث الخطى نحو الخليل وربيع، انضمت إليهما ماريَّة، ثمَّ ظهرت قاطرة الحنين وهي تدلق لِبَأَها الأخضر السّميك، غطى المكان بقوامه اللزج، يُرى لهب المناجم من هنا، ويبدو شجر الحياة بقسوته المعتادة كمَن يقف منصتًا.

ما زالت الدائرةُ المضيئة تومضُ في رتابة، وأعينهم شاخصةٌ إلى السّماء، تعثر ربيع عدّةَ مرّات، وهو يحاول ممارسة وظيفته المعتادة في الشّقلبة، يقتله الفضول لرؤية القادم الجديد، ظهر في بادئ الأمرِ مثل نقطةٍ بيضاءَ، تغلفها الأشعة الزرقاء، ثم هوى فجأة من علٍ، ليسقط في الهضبة العالية فوقَ الغيوم الفسفوريّة التي أضحى لونُها أزرقَ تحت وميضِ الدائرة المضيئة، حثوا الخطى جميعًا نحو الهضبة، في حين اكتفى الزبير وصالح بالمتابعةِ

مـن بعيـد، وقفـوا بالقـرب مـن الجسـدِ المسـجى أمامَهـم.

صرخَ ربيع برعونتِهِ المعتادة:

- إنّها امرأة.

لم يـرد عليـه أحـدٌ وهـو يقـفُ غـير بعيـد عنهـا، ارتجـف جسـدها رجفـةً ضئيلـة وسـعلت، لم تلبـث إلا قليـلًا، ثـم انتصبـت جالسـة تتلفـت حولهـا في حَـيرة، كانـت امـرأة ملتفـة بثـوب أحمرَ فاقـع، تداعـت خصـلات شـعرها مسـدلة عـلى جانبـي كتفيهـا، نظـرت نحوهـم متسـائلة، أتـى صوتهـا غارقـًا في الدهشـة والحَـيرة:

- أينَ أنا؟ مَنْ أنتم؟

شـهق الخليـل في عنـف، ووضـع يديـه عـلى رأسـه، دنـا منهـا كـي يتأكـدَّ، ثـمّ تراجـع خطـوة إلى الـوراء وهتـف بدهشـة عظيمـة:

- ثريَّة؟

تراجـع خطـوة إلى الـوراء، وهـي تقـف منتصبـةً في وجهـه يلمـع وجههـا بالمقـت والغضـب، ابتعـد الخليـل عـن جمعِهـم منحـدرًا بعيـدًا عـن الهضبـة، تـاركًا الجميـعَ تلفهـم الحَـيرة وعـدمُ الفهـم، ركضـت ثريَّـة نحـوَ منزلِهـا بخطـوات متعثـرة واعـدة إيـاه بتاسـوع جديـد غـير الـذي عرفـه واعتـاده.

اليوم السابع

لِبَـأُ الحنـين هـو العـذابُ الأكـبر في هـذا العـالم، يشـعل عـمال المناجـم النـارَ العظيمـة في نهايـة يـوم التاسـوع الطويـل، مسـتغلين مخـزونَ بيـض التاسـوع، وبـرازَ الثعالـب، وأوراقَ شـجرة الحيـاة الذابلـة، التـي يجتهـد الخليـل في جمعهـا طـوال يـوم كامـل، يعانـق اللهـبُ المسـتعر قمـمَ جبـالِ المناجـم، وتنصهـر صخـور الحنـين رغـم قسـوتها وتسـيل بقـوام ثقيـل كأنـه اللبأ، ويـشرع الـسّر في نـشره بقاطرتـه دون كلـلٍ أو ملـل، حتـى يغطـي التاسـوع مـن أدنـاه إلى أقصـاه، مـن جبـال المناجـم حتّـى دغـل الحيـاة، فيـزداد قيدهـم، ويشـتد أوارُ حنينهـم، ولِبَـأ الحنـين يلتصـق بأقدامهـم، ويلطـخ ثيابَهـم، ويتـسرب إلى داخلِهـم، فيحيلهـم إلى خـرقٍ باليـة.

تـرنّ مقولـة الزبـير في عقـل الخليـل يبـدو الأمـر أحيانًـا وكأننـا نحفـر قبورنَـا بأيدينـا وتكـبر دائـرة المقولـة لتتجـاوز عـمال المناجـم وتشـمل كلّ مـن في التاسـوع. هكـذا فكـرَ الخليـل، وفي بالـه المجهـودُ الخـارق الـذي يبذلـه في جمـع مـا

تراكـمَ مـن بيـض طائـر التاسـوع، وبـرازِ الثعالـب، ومـن أوراقِ شـجر الحيـاة وأزهـارِ شـجيراتها، ليسـتغلوا قـدرًا قليـلًا منـه في إنـارة الكهـوف، ويحفـظ القـدر الأكـبر منـه لإشـعال النـارِ العظيمـة في نهايـة اليـوم وإنتـاج لِبَـأ الحنـين بقوامـه الثقيـل وأثـره القاتـل، كأنّي أحفـرُ قـبري بيـديّ هكـذا فكـر الخليـل، وهـو يـدركُ مـا ينتظـره مـا أن يتسرب اللِّبـأ إلى جسـدِه، وينقلـه إلى أرض لم يبـقَ منهـا سـوى طيـف الذكـرى، وحنـين اللقيـا، ووخـز النـدم.

نظـر إلى اللبـأ الـذي لطـخ حـذاءَه وتسـلل إلى ثيابـه في عجـز، تزكـم رائحتـه النفـاذة أنفـه، سـيبدأ مفعولُـه الظهـورَ قريبًـا. يـدرك مـا ينبغـي فعلـه، نظـف الغرفـة جيّـدًا، وأزاح كلَّ مـا يمكـن أن يرتطـم بـه في أثنـاءِ رحلتـه القصـيرة، وضـع الجـاروفَ والمكنسـةَ خـارج الغرفـة، وأغلقهـا جيّـدًا. مـا زال يتذكـر الطاهـر حـين لم ينتبـه لإغـلاقِ البـاب جيّـدًا، التهمتـه أشـواكُ شـجرة الحيـاة بأطرافِهـا الحـادّة، مزقـت ثيابَـه ولحـمَ وجهِـه دونَ رحمـة، لم يكـن لديـه رغبـة في خـوض تلـك التجربـة، لـذا عـاد للتأكـد مـن إغـلاقِ البـاب، زاد وجيـب قلبـه وثريَّـة تعـبر خاطـره، كأنّ التاسـوع لم يكتـفِ بلِبـأ الحنـين وغبـاره، وعـن معانـاة الذكـرى والعجـز أمامهـا، ليـأتي بثريَّـة إلى هنـا، كاسرًا أحـدَ نواميسـه العظمـى، فلـم يذكـر في تأريـخ التاسـوع الـذي لا يعلـم أحـدٌ متـى ابتـدأ

وكيف سينتهي، أن اجتمع اثنان يعرفان بعضهما في العالم الأرضي. عادةً هم يأتون من ذات الحقبة الزمنية، وربما يجد أحدهم قدْ سمعَ عنِ الآخر كما يعرف هو الطاهر لشهرته، ويعرف صالح لأنّه كان وزيرًا للمالية، ويعرف الزبير لأنّه كان وزيرًا سابقًا للدفاع، ولكن لم يلتقِ بأحد منهم قبلَ حضورهم إلى هنا، ثريَّة هي الاستثناء الأوّل، أتت تحمل معها الماضي الذي يرغب في نسيانه، أو ربما يتمنى حدوث معجزة تؤدي إلى محوهِ كأن لم يكن، أو ربما المقدرة على منحِهِ الفرصةَ لتغيير ما حدث، تغيير بعض التفاصيل، مثل ألّا يلتقيا، أن يعتذرَ للمرّة الأولى في حياته ويقول لا، أن يركض مبتعدًا عنها بأقصى سرعة، تنهد في عمق، نظر إلى أرضية غرفته الملطخة بلبأ الحنين، هز رأسه في يأس، وتمدد عليها واضعًا يديه على صدرِه، أغمض عينيه، واللِّبأ يتسربُ إلى داخله، يختلط بدمِه، بأنفاسِه، بروحِهِ، ارتجف جسده، ثم غاب عن التاسوع وعالمِهِ العجيب.

أوقف سيارته عندَ الموقفِ المخصوص، دار حولها ليتأكد أن كلَّ شيء على ما يرام، وضع مفاتيحَ السيارة في جيبه. صباح صيفي كسول، ما زالت نسماتُ الصباح لطيفة، وإن اخترقتها لفحات من السّموم، تنبئ بنهارٍ طويل، وشمسٍ حارقة.

لم يكــن في عجلــة مــن أمــره، صبــاح مثــل كلّ صبــاح، ينتظـره تـلٌّ مـن المعامـلات، سـيكتفي بالتوقيـع عليهـا دونَ تدقيـق، ولـج إلى مكتبـه، طلـب كوبًـا ثقيـلًا مـن الشـاي، ثـم انشـغل بتقليـب محتويـات هاتفـه المحمـول، وفاجـأه مديـره البطـة بزيـارةٍ صباحيّـة غـير معتـادة، كان عـلى عجلـةِ مـن أمـره، ألقـى إليـه تعليماتـه بلهجـةٍ آمـرة، ملوحًـا بكفـه ذات الأصابـع الغليظـة أمـامَ وجهـه:

- لدينـا متدربـةُ جديـدة، وأمرُهـا يهمنـي، فهـي قريبـة أحـد معــارفي الأعــزاء، ســيوكل إليــك أمــر تدريبهــا، وبعدهــا ســألحقها بالمصلحــةِ هنــا، ســتعلمها نظــام عملنــا الصــارم، أريدهــا موظفــةً جيّــدة.

ختـم عبارتـه واسـتدارَ بخطـوات ثقيلـة وخـرجَ مـن البـاب يتبعـه لهاثـه. زفـر الخليـل في ضجـر ثـمَّ عـاد جالسًـا عـلى مقعـده، وابتسـامته المجاملـة تـذوي بسرعة، ضحـك ضحكةً سـاخرة قصـيرة:

- عن أيِّ نظامٍ صارم يتحدث هذا البطة؟

قالهـا همسًـا رغـم أنّـه لا يوجـد أحـدٌ غـيره في المكتـب، قـرر بينـه وبـين نفسـه أن يغرقهـا في المعامـلات وروتينهـا المرهـق، ويجعلهـا تفـرّ ناجيـة بجلدهـا. كأن مكـب القمامـة هـذا يحتاج إلى متدربـة سـاذَجة تغرقـه بالأسـئلة، والثرثـرةِ غـير المجديـة.

تضجر من تأخرِ الشاي، نهض من مقعده خارجًا، وعندما فتح بابَ المكتب وجدها أمامَه تهم بطرق الباب. تراجعت متفاجئة، فبدت كقطة صغيرة مذعورة، نظر نحوَها في بلاهة، كانت ضئيلةَ الجسم، كأنها غادرت عالم الطفولة للتوّ، ولم تنحسر عنها آثاره بعد، بعينين هاربتين نحو أرجاءِ المكان، ترهقانه بالركض خلفهما، تشبثت يداها بحقيبتها اليدوية، وهي غارقة في الارتباكِ والخَجل:

- هل أنت أستاذُ الخليل؟ أنا ثريَّة المتدربة الجديدة، لقد أرسلني...

انتبه لنفسه، فتراجعَ مفسحًا لها الباب. قاطعها قائلًا في ترحاب:

- تفضلي بالدخول.

ولجت إلى الداخل بخطواتٍ متعثرة، تبعها متأملًا ظهرها الجميل، شعرَ بنسمة باردة تتخلل عظامه، أشار إليها بالجلوسِ، واستدار ليجلس مقابلًا لها.

يأخذه لِبأ الحنين على حين غرة. يجلسان متقاربين، غارقين في الضَّحِكِ، من يرَهما لا يبصر موظفًا ومتدربة، ولكن اثنين قريبين من بعضهما، يمزحان معًا. أكتافهما

متقاربـة، وسـاقاهما متلاصقـةً، وتنظـر إليـه في حـبٍّ مشـوب بالاحـترام، وهــو ينظـرُ إليهــا في وَلــهٍ، لا يمكــن مداراتــه، تكثــر بينهــما العبــارات، التــي لا يســتطيع أحــدٌ ســماعها غيرهمـا، ورغـم أن بـابَ المكتـب كان مغلقًـا، ولكـن حديثهما كان همسًـا، وضحكُهـما مكتومًـا، ورغـم تـردده في إخبارهـا بحبـه لهـا ، فإنَّهـا كانـت تعلـم، وهـو يعلـم أنّهـا تعلـم. تـردد للحظـة، وتسـللت يـده إلى يدهـا فـوق المنضـدة، وغفـت يدهـا عـلى يـدِه مثـل قطـةٍ وديعـة.

نهـض مـن رقدتـه، نظـر حولـه، بـدت غرفتـه غريبـةً، وكأنـه يراهـا للمـرّة الأولى، شـهقَ بقـوة، لكـمَ الجـدارَ عـدّةَ لكمات حتـى آلمتـه كفـه، ثـم انكفـأ عـلى نفسِـه في قنـوط، كان لِبـأ الحنـين عشـوائيًا في خياراتـه، ولكنهـا تتفـقُ جميعًـا في قسـوتها ووجعهـا، يأخـذه في رحلتـهِ الإجباريَّـة إلى هنـاك، ويفـرض عليـه أن يعيـشَ أوقاتًـا عاشـها مـن قبـلُ، بـذات تفاصيلهـا، وروائحهـا، وهمسـاتها، ولمسـاتها، هـي بذاتهـا، كأنـه يعيشـها للمــرّة الأولى، ولكــن الفــرق أنــه كان يعلــمُ مــا يحــدث و يعلـم عواقبـه، ولكنـه لا يملـك القـدرةَ عـلى التغيـير، فقـط يشـعر بالوجـع والعجـزِ والنـدم، ويظـل ينـكأ لِبـأ الحنـين في جروحِـهِ الأَكثـر إيلامًـا، ويقتلـه آلافَ المـرات، قبـل أن يعيـدَه جثـة بـلا روح.

فتـح بـابَ غرفتـه، وخـرج إلى عـالمِ التاسـوع، وصرخ صرخةً

سُـمِعَ صداهـا أعـلى هضـاب التاسـوع وفي جبـالِ المناجـم، وبعيـدًا خلـف دغـل الحيـاة.

كان الطاهـر يقـف بعيـدًا عنـه، ينظـر نحـوه في رثـاء، اقـترب منـه بخطـوات بطيئـة، ولِبَـأ الحنـين يبـدو أكثـرَ لزوجـة، اقـترب مـن الطاهـر محـاذرًا الانـزلاق والسّـقوط، وعندمـا دنـتِ المسـافةُ بينهـما حـدثَ مـا كان يخشـاه، وزلـت قدمـه، شـهق في فـزع وهـو يتدحـرج متقلبًـا في لِبـأ الحنـين، ونهـض ملطـخَ الثيـاب، نفـض يديـه في انزعـاج، اكتفـى الطاهـر بالمتابعـة صامتًـا، حتـى وقـفَ الخليـل بجـواره متبرمًـا:

- ستعاودني نوبةُ الحنين مرَّة أخرى.

- هل تعرف القادمة الجديدة؟

نظـر نحـوه في اندهـاش، أومـأ الخليـل برأسـه موافقًـا في صمـت.

علا صوت الطاهر:

- ولكـن هـذا غـيرُ ممكـن، بـل مـن المسـتحيلِ اجتـماع اثنـين يعرفـان بعضهـما معرفـةً شـخصيّة في التاسـوع.

- لا أفهـمُ مـا الـذي حـدث، ولا كيـف حـدثَ، ولكنـي أعـرف ثريَّـة جيّـدًا، وأعلـم أنّهـا أتـت إلى هنـا عـبرَ الدائـرة المضيئـة.

- ألم يخطـر ببالِـكَ أنَّهـا مجـرد امـرأة أخـرى تشـابهها في الملامـحِ، ربـما اختلـط عليـك الأمـرُ بسـبب طـول إقامتـك هنـا.

رد الخليل في حسرة:

- ثريَّـة لا تشـبه واحـدةً مـن النسـاء، خلقـت مـن طينـة تخصّهـا وحدَهـا، هـذا لـو أنهـا طينيـة مـن الأسـاسِ.

أومأ الطاهر برأسه متفهمًا:

- إذن، فقـدْ كنـت تحبهـا. هكـذا يفعـلُ الحـب، يحـول النسـاءَ العاديـات إلى كائنـاتٍ نورانيَّـة.

أشار نحو المكان حوله مكملًا:

- الآن فهمـت، هـذا تأثـيرُ اللِّبـأ عليـك، لا بـدَّ أنـه تـسرب إلى دمـكَ قبـل أن تلتقـي القادمـة الجديـدة وجعلـك تظـن أنّهـا ثريَّـة، لا بـدّ أنـه قـد أخـذكَ إلى هنـاك.

أومـأ الخليـل برأسـه موافقًـا دون أن ينبـسَ ببنـت شـفة، أكمـلَ الطاهـر قائـلًا:

- هـذا الحثالـة بـارعٌ جـدًّا في لعبتـه التـي وضـع قوانينَهـا وفرضهـا علينـا، يطـرق أشـدَّ الأماكـن ضعفـاً فينـا، ويعـود بنـا جثثًـا بـلا روح مـن رحلتـه القصـيرة.

- ليتنـي كنـتُ كاذبًـا لسـلمت بكـذبي، أو كنـت صادقًـا فـلا أعـاني مـن ويـلاتِ ضمـيري.

قالهــا بصــوت أقــربَ إلى العويــل وهــو يبتعــدُ عائــدًا إلى منزلــه، ولِبَــأ الحنــين يتســلل عــبرَ مســام جلــدِه إلى دمــه.

أغلـق البـاب خلفـه بقـوة، وسِرعـان مـا تمـدد عـلى أرضيـة الغرفـة، ودمعـة تتسـلل مـن إحـدى عينيـه المغمضتـين بقـوة.

تقفُ صفية منتصبةً في وجهه، ترتجفُ من الغضب:

- ما علاقتُكَ بثريَّة هذه، ما الذي تريده منكَ؟

كان مضطربًا، وتفوح منه رائحةُ الكذب:

- ثريَّة مجرد متدربة، هل جننت، فيمَ تفكرين؟

- متدربة وتناديني باسمِها.

نهض من جلسته، وقفَ بالقربِ من النافذة:

- لأنهــا معــي في المكتــب طــوالَ اليــوم، لا شيءَ أكثــرُ مــن هــذا.

- الخليــل ســأقتلك، وأقتــل نفــسي بعــدَك، ألا يكفــي تحمــلي لقرفـك اليومـيّ لتـأتي لي بـر...

زعق مقاطعًا إياها وهو يغادر المكانَ:

- هذه الحياةُ لم تعد تُطاق!

لفحه هواء أوّل الليل، ظل يمشي في الشوارع بغير هدى، يمور عقله بمشاكلهما، أقلقت نومه، وقضت مضجعه مكالماتها الليلية الهامسة، انفرادها بهاتفها النقال بعيداً عنه، غيابها الطويل عن المنزل، بحث خلفها، قلب هاتفها، حاول التصنت عليها، بل وصل الأمر لمراقبتها، تخرج لمقابلة صديقاتها الثلاثة، مكالماتها معهن، حتى دردشة الوسائط، لا شيء يمكن أن يؤكد شكه، ولكنه لا يهدأ، لو كان ما تفعله طبيعياً، لماذا تصر على إخفائه عنه؟ لماذا تبتعد كلما رنَ هاتفها؟ واجهها، صرخ بأن ما تفعله لا يرضيه، تحدثت عن خصوصية علاقتها بصديقاتها، وأن ما يقال يخصهن بشكل مطلق ولكنه لم يقتنع، صمت على مضض، وكله يقين بأن المخبوء سيكشف يوماً، ثم تأتي اليوم لتشكو من ثرية التي تنبض براءة ورقة، ثرية التي تحيل نقاشهما العادي إلى لحن وأنسهما اليوميُّ إلى أشعار، زفر في ضيق، أخرج هاتفَه النقال واتَّصل بها:

- مساء الخير

أتاه صوتُها ناعسًا وهي تردّ تحيته:

- لن أستطيع النومَ قبلَ أن أسمع صوتك.

أتتـه ضحكتهـا الخجولـة، فشـعرَ بالتـواءٍ في أمعائـه، خـرج صوتـه أجـشّ وهـو يتخيلهـا مسـتلقية وهـي تحادثـه:

- افتقدك كأنّي لم أرَك منذ دهر من الزمان.

- لو سألتني فأنا أرغب في أن أكون برُفقتك إلى الأبد.

- حتى أغدو كهلاً ثرثاراً كثير الشكوى؟

- وبعد أن يحدثَ هذا، أرغب في أن أكونَ برُفقتك.

تـأوَّهَ، انطلقـت ضحكتهـا الخافتـة عـبر الهاتـف، فـكادت تزهـقُ روحـه.

حلّ الصمت بينهما هنيهةً، قالت بصوتٍ منكسر:

- ولكنها جميعًا مجردُ أحلام مع وقفِ التنفيذ.

قال جزعًا:

- لمَ تقولين هذا؟

- أنت تعلم جيدًّا ما أقصدُ.

- سنتزوج.

كان صادقًـا في رغبتـه كاذبًـا في وعـده، ليـس لأن الحـبَّ أعمـى، ولكـن لأن الانتـماءَ أقـوى مـن المنطـقِ، يعلـم أن أقـصى رغباتـه أن يتزوجَهـا، وهـي أبعدهـا أيضًـا، كان

الطريــقُ واضحًــا، وإن لم يبصرانــه، أخبرتــه بأنهــا كانــت تبحــثُ عنــه منــذُ وعــتْ عــلى الدنيــا، وحــين يئســت مــن العثــور عليــه وجدتــه أمامَهــا، تحدثــا عــن فــارقِ العمــر، أخبرتــه بأنّهــا ابنتــه وحبيبتــه وتــوأم روحِــه فصمــت.

سَمع الطاهر يناديه من الخارج:

- تســاقطت أوراق شــجيرات الحيــاة، وشرعــت ماريَّــة في انتــزاع الأشــواك منهــا.

نظـر نحـو السـقف، حتـى تمـلّ الشَّـمس الـشروق، ويغـادر القمـرُ رقعـة السَّــماء.

ليــس للتاســوع شــمسٍ أو قمــرٍ، مثــل ســقفِ غرفتــه هــذا، هــل يكفــي عــدم رؤيــة الشّــمس والقمــر دلالــةً عــلى إيفائهــا بعهدهــا، أم أنّهــا مــا زالــت عــلى قيــده؟ تنهــد وهــو يحمــل جاروفَــه ومكنســته، دفــع البــاب خارجًــا. جــفّ لِبــأُ الحنين في عــدّة أماكــن، ويبــدو ربيــع وهــو يتقافــز بالقــرب مــن مناجــم الحنــين كخيــالٍ وليــس حقيقــة. ماريَّــة تقــف بالقــرب مــن منزلــه، تلتقــط أشــواكًا مــن شــجيرة صغــيرةٍ منتصبــة، نظــر إلى يديهــا، آلاف الأشــواك تركــت أثــارَ معاركهــا الخــاسرة عليهــا.

نــدوب قديمــة، وأخــرى حديثــة، جــروح جفــت دماؤهــا

واثنان جديدان ما زالا يقطران دمًا، لمح دموعها الصامتةَ تنساب على خديها دون أن تمسحها، سبّ لِبأَ الحنين، عدو التسعة في التاسوع بلا منازع.

كنس بعضَ الأوراق التي تساقطت من شجيرة الحياة بجوارها في حذقٍ، قال بصوت خافت:

- هل أخذك لبأ الحنين إليها؟

مسحت خدها بظهرِ يدها، وأومأت برأسها موافقة في صمت.

يعلم التسعة في التاسوع ما عدا الذي لا اسم له حياةَ بعضِهم، وإن لم تكن بكلِّ تفاصيلها، يعلمون إلى أين يأخذهم لِبأُ الحنين حين يتسرب إلى دمائهم، فهم يميلون إلى البوحِ بعدَ ذَهاب أثره، لعلهم يخففون من وطأة أثره الثّقيل على النفس، وتظل هناك أسرارٌ لا تدرك لو لم يبح بها صاحبُها. ماريَّة التي تجمع الأشواكَ قبلَ أن تلتهم زهرات شجيرة الحياة، فقدت ابنتَها في عالمها الأول، قالت في أوّل قدومها، ليتها أدركت موتها يقينًا قبلَ أن تفقدها، ولكن ألّا تعلم أينَ هي؟ وما الذي حلَّ بها؟ وهل هي ميتة أم ما زالت حية ترزق. فهذا هو تاسوعها الخاصّ، الأشواك بالنسبة إليها سلوى عن القلقِ الذي يأكل لحمَها على ابنتها. حزنها المقيم عليها يجعلُ صمتَها

ممتـدًا، لم تتحـدث عـن ابنتهـا إلا في لحظـة قدومهـا الأوّل مـن الدائـرة المضيئـة، قبـل أن تفهـمَ مـا هـو التاسـوع، ولأيِّ عـالم قـد ألقـي بهـا، كانـت أمًّـا جزعـة، في عـالم غريـب، سـألتهم السّـبعة عـن ابنتهـا زينـة، ذات الأعـوام الخمسـة، بضفائرهـا المجدولــة، وعينيهــا الواسـعتين، وحـين علمـت أن بينهـا وبـين ابنتهـا عـوالمَ ودوائـرَ، وأنهـا قـد لا تراهـا مـرّة أخـرى، لاذ الحـزنُ بعينيهـا، واتخذهـا منـزلًا، ولاذت هـي بشـجيراتِ الحيـاة، تلتقـط الأشـواك منهـا، لا تشـاركُ في أحاديثهـم إلا لمامًـا، متدثـرةً بصمتِهـا المكـين.

كلُّ واحـد منهـم، يـدرك علـةَ منزلـه المختـار في التاسـوع، ويتفلسـف الآخـرون حسـبما يعلمـون عنـه، فيجـدون مـبررًا منطقيًّـا لمنزلتـه، تتـلاءم مـع قوانـين هـذا العـالم، وتجعلـه أكثـر إقناعًـا وأقـل غرابـةً عـلى الأقـل، فيـما عـدا اثنـين، الـذي لا اسـمَ لـه، المقيـم خلـف جبـال المناجـم، ولا يظهـر إلا في لحظـات الفنـاء، ثـم يعـود إلى منزِلـه الـذي يقـع خلـف حـدودِ إدراكهـم، وماريَّـة، التـي لا تتحـدث عـن عالمهـا السّـابق مطلقًـا، ولكـن هاهـو لِبـأ الحنـين يفـرض سـطوته عليهـا بنهايـة يومِهـا الأوّل، وربـما حـان وقـت انحسـار دثـار صمتهـا أخـيرًا، فثرثـرة مـا بعـدَ فنـاء الليـل أو النهـار، تعـد فعـلًا معتـادًا، يذهـب ثقـل مـا يخلفـه اللبـأ عـلى النفـس. هكـذا فكَّـرَ الخليـل وهـو يلتقـط الأوراقَ الذابلـة مـن حولها،

ملقيًا إياها في جاروفه حينًا، وينظر نحو المنزل الذي يبدو من بين الغيوم الزرقاء وكأنه الخيال حينًا آخر.

- هو مَنْ أتى بي إلى هنا؟

نفضت يدها بعد أن وخزتها إحدى الأشواك، ثم نهضت وركلت الشجيرة، ورددت بصوت عالٍ:

- هو مَن أتى بي إلى هنا؟

ثم انكفأت على نفسها منتحبة، اقترب منها الخليل في حذر، ربت على كتفها، رفعت عينين غارقتين في الدموع.

- لا أدري كيف فعلَ هذا، ولكنه هو، أنا متأكّدة من ذلك.

- من هو يا ماريَّة؟

نظرت نحوه وكأنها تراه للمرّة الأولى، عادت إلى النظر بعيدًا، نحو سماء التاسوع بأشعتها الزرقاء المضيئة وقالت:

- ما الذي كنت تنتظره من امرأةٍ مطلقة لديها طفلة بلا مالٍ ولا سند في عالمٍ متوحش مثل الذي أتينا منه؟

أتى صوتُها غارقًا في المرارةِ وهي تكمل:

- التنازل، استغلال رأس المال الوحيد الذي تملكه،

جمالهـا، ولا شيءَ آخـر، وهـذا مـا فعلتـه.

نظـرت نحـوه، وكأنهـا تسـتنجدُ بـه، فأومـأ برأسـه متفهـمًا، تنهـدت وأكملـت:

- بـدأ الأمـر بالتّقديـم لوظيفـة سـكرتيرة في مكتـب وكيـل وزارة الطاقـة، تزينـتُ كـما تطلـب معاينـة مـن هذا النـوع، ولم يفـت علـيَّ تجاوزهـم لأوراقـي وشـهاداتي واهتمامهـم بجـمالي والتفـاف جسـدي، ولكنـي تعاميـتُ، كنـتُ خائفـةً، وفقـيرة، وتنتظـرني رضيعـة في منـزل بـلا عائـلٍ، ومنـذ اليـوم الأوّل في عمـلي أدركـت متطلبـات وظيفتـي، التـي لا تقـف عنـدَ ضبـطِ مواعيـده، وترتيـبِ أوراقـه، وتنسـيقِ اجتماعاتـه فقـط، ولكنـي أتيـت لأكـونَ لعبتـه المفضلـة. وقاومـت، أقسـم أنني قاومـت، ورفضـت هداياـه القيّمـة، ووعـودهَ المغريـة، ولكـن عندمـا هـددني بالطـرد مـن الوظيفـة، والعـودة إلى الشـارع بقسـوته، والـبرّاد الخـالي، وبـكاء رضيعتـي الجَائِعـة، أذعنـت.

ذهبـت في نوبـة طويلـة مـن البـكاء والخليـل يقـف منتصبًـا بجوارهـا دون أن يتحـدث، مسـحت دموعَهـا بظهـرِ كفهـا وعـادت إلى الحديـث بصـوتٍ مبحـوح:

- هـذا الـشّيءُ الـذي تدعونـه لِبَـأ الحنـين، أخـذني إلى هنـاك، إلى ذات اللحظـة التـي أذعنـت فيهـا، عـاد بي إلى اللحظـةِ التـي اسـتبيح فيهـا جسـدي، جعلنـي أعيـشُ التفاصيـلَ

الدقيقة كلَّها مرّة أخرى، كلّ لمسة مقززة، وآهة كاذبة، وأنا أتحول من أمٍّ قلقة عاجزة، إلى مجرد عاهرة، كيف بالله عليك أحنُّ إلى لحظة مثل هذه؟ لو أن الأمر بيدي لانتزعت تلك الأيام من ذاكرتي وألقيت بها في قُمامةِ النسيان، بالله عليكم كيف تنعتون هذا الشيءَ بلِبأ الحنين، إنّه سَم، قاتل محترفٌ، ويتلذذ بتعذيبِ ضحاياه ببطء قبلَ قتلهم.

ظهر الطاهر مقتربًا منهم، فلاذت بالصمت، وعادت إلى الانهماك في عملها العبثيّ، تنزع الأشواكَ من شجيرات الحياة متدثرة بصمتِها، حيَّاهم الطاهر، ردّ عليه الخليل في حين نظرت ماريَّة إليه وعادت إلى الانهماك في عملها مرّة أخرى، ابتعدا عنها بخطوات بطيئة، أشار الطاهر نحو المنزلِ المعلّقِ بين السّحب الزرقاء:

- لم تنزل من هناكَ بعدُ.

كان الخليل منهمكًا في التقاط الأوراق المتساقطة من حوله، وهو يتسكعُ رُفقة الطاهر، نظر نحو المنزل وقال بصوت خافت:

- ليتَها لا تنزل.

قال الطاهر مطمئنًا إياه:

- لا تقلق ليست هي من تظن، للتاسوع قوانينُه التي لا تُخرق.

- ما دامت هي في الأعلى، فسيظلُّ وجود ثريَّة مجردَ احتمالٍ، ولكن نزولها إلى هنا، سيحوله إلى يقين لا مفرَ منه ولا قدرة لي على مواجهته.

- هل كنت تحبها إلى هذه الدرجة؟

تنهد الخليل، صمت وهو يتأمل صغير طائر التاسوع يحاول الطيران جاهدًا من دون فائدة:

- كنت مؤمنًا بأن التاسوع قاتلٌ متمرس للمشاعر، يجعل كل ما فينا يذوي، ما عدا الحنينَ والخوفَ، ولكني منذ رأيت ثريَّة، أدركت أن الحبَّ يبقى، يظل مطمورًا تحتَ رماد الخوف، ولكن ما إن ينفخُ فيه حتى ترتد إليه الحياة!

قاطعه الطاهر مكملًا:

- وترتدُّ إليك أيضًا، ربما لهذا لا يجمع التاسوع بين اثنين التقيا قبلُ، حذرًا من عودتهما إلى الحياةِ والأمل والتّطلعِ إلى المستقبل، والحلمِ بسعادة في قادمِ الأيام، ليس مِن أهدافِ التّاسوع، ولَا شيء يدعوه للتنازل عن قواعدِهِ المنتقاة بدقّة، ليأتي بثريَّة إلى هنا، فيخرق ناموسه

لعلـةٍ غـير مفـسرة ومـبررة عنـدي.

- تتحـدثُ عـن النامـوس وكأنّ هنـاك مجلسًـا مـن العقـلاء يقـوم بإدارتـه بإحـكام، أنـا أظـنُّ أن كلَّ مـا يحـدث محـض عبـث، لا قانـونَ لـه ولا علّـة. وجودنـا هنـا محـض صدفـة لعينـة، ونحـنُ نفكـر ونعلـل بحثًـا عـن مواءمـة مـا يحـدث مـع المنطـق، في حـين أن كلَّ مـا نصـل إليـه مجـردُ فرضيـات ليـس إلّا، فنحـن نفـترض أن مـن يرحـل عـبرَ الدائـرة المظلمـة ميّتًـا، وأن مَـن يذهـب عـبرَ الدائـرة المضيئـة قـد عـادَ إلى الحيـاة مـرّة أخـرى، لم يعـد أحـدٌ مـن هنـاك، ليخبرنـا بـما يحـدث حقًّـا، ولا أحـدَ لديـه إجابـة لِمَـاذا نحـن بالـذات مـن وقـع علينـا الاختيـار لتعمـيرِ التاسـوع، وإن كان كلُّ هـذا صحيحًـا، فـما هـي المنطقـةُ الموجـودة بـين المـوتِ والحيـاة التـي نقبـع فيهـا هـذه؟ ولمـاذا لم يتحـدث عنهـا أحـدٌ قبـل ذلـكَ.

صمـت الخليـل مجمعًـا أفـكارَه قبـل أن يكمـلَ بصـوتٍ مغمـوس في الوجـع:

- هـل تـدرك لمـاذا لم يتحـدث عنهـا أحـدٌ مـن قبـلُ حقًّـا؟ لأنـه لم يعـد أحـدٌ مـن هنـا إلى هنـاك ثانيـة، هـذا هـو شـعاعُ الأمـل الوحيـد الموجـودُ في التاسـوع، وهـو بـرقٌ خلـبٌ كاذب. الآتـون إلى هنـا، آتـون مـن طريـق لا عـودة منـه، هـي

رحلــةٌ في اتجــاهٍ واحــد يــا صديقــي.

قال الطاهر مترددًا:

- هنــاك دراســاتٌ طبيّــة تتحــدث عــن شيء قريــبٍ مــن هــذا، رحــلات تســمى بالمــوتِ الأصغــر، لا تتجــاوز ثــلاث دقائــق عــلى الأكثــر، لمــن يعانــون نقصًــا حــادًّا في إمــداد الأكســجين إلى الدّمــاغ.

ردَّ الخليل في سخريّة لم يستطع كبحها:

- ثــلاث دقائــق؟ نحــن هنــا منــذُ دهــر مــن الزمــان، وتحدثني عــن ثــلاثِ دقائق.

قال الطاهر في عنادٍ:

- الزمــن يعــدُّ نســبيًّا، مــا أدراك كــم تســاوي ثــلاثُ دقائــق مــن العــالم الأرضيِّ هنــا؟

- لا يهمنــي كــمْ تســاوي بالطبــع، لأن الفرضيّــة نفسَــها ضعيفــةٌ، وغــير واقعيــة، مــا زلــت مؤمنًــا بعبثيــة كلِّ مــا يحــدث هنــا، نحــن في ظــلِّ عــالمٍ بــلا قانــون أو منطــق، وكلّ محاولــة لتبريــر مــا يحــدث، وجعلــه يقــاس بمعيــار متــزن يفــضي بنــا إلى مزيــدٍ مــن التيــه، والفــوضى، ونضطــر إلى تجــرعِ كل هــذا الهُــرَاء بحثًــا عــن راحــة لــن ننالهــا حتّــى عبــور إحــدى الدائرتــين، وربــما لــن ننالهــا حتّــى بعــدَ ذلــك.

قال الطاهر معترضًا:

- نحن لن نستطيعَ أن نحيا دونَ تفكير، ودون السَّعي الإنسانيّ المعتاد،إلى الفهم. صدقني، الفضولُ هو الجرثومةُ التي أصابت الإنسانيّة منذ فجرِ التاريخ، ومن دونها ما كنا سنحاولُ البحث عن علّة وجودنا هنا.

- وهل تظن أن الفضولَ هو من سيجعلنا نفهم هذا العالم الغريب؟

هز الطاهر كتفيه مجيبًا:

- مَن يدري؟ هناك احتمالاتٌ لا نهائية إلى ما سيقودنا إليه الفضول، هل تظنُّ مثلًا أن الإنسانَ في فجر التاريخ، لدغته الأفعى أولًا أم هو من اقترب منها فلدغته دفاعًا عن نفسها؟

مطَّ الخليل شفتيه ورفع حاجبًا واحدًا دلالةً على عدم معرفته ثم قال:

- قدْ تكون الأفعى من يدري؟

هزَّ الطاهر رأسه نافيًا:

- كلّ الكائنات الحية تقتل بدافعِ الجوع أو الإحساسِ بالخطر، المعتاد أن تتجنبَ الأفعى الإنسانَ، ولا تهاجمه

إلا إذا أحسّت بالخطر. والإنسان فضوليٌّ بغريزته، وهذه الغريزة هي ما تجعل العيش هنا محتملاً، ما دام أن المغادرة ليستْ بيدنا.

ابتسمَ الخليل والتفت نحو الطاهر قائلًا:

- يكادُ الفضول يقتلني بالفعل من منازل النّاس في التاسوع، كيف لزيرِ نساء مثلِك، أن يعيش في التاسوع متفرغًا؟ في حين أنّ الآخرين يعملون كالسُّخْرَة وهم ليسوا بأسوأَ منك بحالٍ من الأحوال.

- تناقشنا قبلَ ذلك عن أن ما يدورُ في السّريرة هو ما يحدد منزلتك في التاسوع.

لوَّح الخليل بيده نافيًا:

- هذا تبريرُك، وهو يبدو منطقيًّا لو أدركنا جيّدًا ما يدور في سريرةِ الآخرين، ولكنّه غير مقنعٍ بالنسبة إلي، إنه السعي المعتاد نحو المواءمة، ولكني بتُّ موقنًا أَّن ربطَ المنازل بما يعتمل بالسّريرة محضُ هراء. هذا التاسوع غيرُ عادل في ترتيبه، أو أن وجودَنا في تلك المنازل رهن بالمصادفةِ وحدها، فمَن يأت يحل محلَ الذاهب من دون ترتيبٍ سابق، أو علّة منطقيَّة.

اقترب منهما ربيع، ولِبَأ الحنين الجافّ الملتصق بذيلِ

قبعته قد تحول لونه إلى الأخضر الدّاكن، ولكنّه لم يبد مباليًا به وانتصب أمامهما لاهثًا، ثم أشار إلى جبال المناجم قائلًا:

- الزبير لا يريد الرحيل، قال إنَّ رحيله سيكون عبر الدّائرة المظلمة وهو لا يرغب في الموتِ الآن.

اتَّخذ الثلاثة طريقَهم نحو جبال المناجم، أضفت الدائرة المضيئة ألوانًا جديدة على التاسوع لم تكن معتادة، تُرى قمم الجبال من هنا مغطاة باللون الأرجوانيّ الممزوج بأشعة الدائرة الزرقاء والسّحب تخترقها من منتصفها، فتبدو للناظر من بعيد كالسحرِ.

فكر الطاهر في العلة في وجود الجمال في التاسوع، لماذا تبدو جبال المناجم جميلةً، ومن الذي يهتم لرؤية هذا الجمال؟ الحياة هنا قائمةٌ على الانتظارِ القلقِ والخوف، ولو أن جمالَ الجبال من هنا يبدو مخادعًا، فحين تقترب منها، لن تبصر سوى الصخور القاسية، بملمسها الناعم، وأطرافها الحادّة. والثلاثة المقيمون هناك، هم أتعسُ أهلِ التاسوع بإجماع الكلّ.

حين دنوا من الجبال، أبصرَ فُوَّهات الكهوف المشرعة، فبدت كوحوشٍ أسطوريّة تقف عندَ حدودِ عالم التاسوع الذي يعرفونه، في حين يعبر الذي لا اسمَ له خلفها،

دونَ أن يـدرك أحــدٌ الوسـيلة التـي يسـتخدمها للعبـور، ومـا الـذي يوجـد خلـف جبـال المناجـم، ربـما يختبـئ هنـاك العـالم الـذي ينشـدونَه، أو ربـما توجـد جميـع الإجابـات عـلى الأسـئلة التـي لا تغـادرُ تفكـيره، أو ربـما يوجـد مـا لا يخطر في بالِـه، أو لا يوجـد شيءٌ عـلى الإطـلاق مـا عـدا الـذي لا اسـم لـه مقيـمًا بـين حفنـةٍ مـن الصخـور. ذات لعبـة الاحتـمالات الـلا نهائيـة، كلّ احتـمال يفـضي إلى طريـق مختلـفٍ ونهايـة مختلفـة، ولكنـه لا يملـك سـوى الانتظـار، وعندهـا سـتأتي الإجابـاتُ تباعًـا، أو هكـذا يتمنـى، فالأسـئلةُ المتراكمـة بـلا إجابـات عليهـا ليسـت بأقـلَّ عذابًـا مـن لِبَـأ الحنـين. يظـن الخليـل أنـه بـلا عمـل واضـح، ولكنـه مؤمـن أن الأسـئلة التـي تتولـد في رأسـه بـآلاف الإجابـات المحتملـة التـي تـكادُ أن تفجـر رأسـه، هـي العمـل الأكثـر مشـقةً في هـذا العـالم، وأشـدها تعذيبًـا للنفـس والجسـدِ، مضافًـا إليهـا عزلتـه الإجباريَّـة كـي يخلـق جحيمـه الخـاصّ في التاسـوع، ولكـن لا أحـدَ يشـعر بـه عـلى الإطـلاق.

يجلـسُ الزبـير عـلى واحـدة مـن الصخـور بجانـب مدخـلِ الكهـف، الـذي يشـع ضـوءًا أخـضرَ خافتًـا، وبجـواره يقـف صالـح حائـرًا، في حـين يقـف الـسّر بعيـدًا عنهـما يحمـل معـولًا وينهمـك بتنظيـف قاطرتـه التـي تربـض غـير بعيـد مـن مدخـلِ الكهـف، داهمتهـم رائحـة لِبَـأ الحنـين وغبـاره

النفـاذة، تباطـأت خطواتهـم، وانحـازوا جانبًـا مـن مدخـل الكهـف تجنبًـا للدخـان الأخـضر الـذي يخرج منـه، ووقفـوا غـير بعيـد مـن الاثنـين، لـوّح الخليـل بيـده محيّيًـا، اكتفـى صالـح بإيـماءة مـن رأسـه ردًّا عـلى تحيتـه، في حـين انكفـأ الزبـير واضعًـا رأسـه بـين سـاعديه، انتبـه الخليـل لشـعر رأسـه الـذي غلـب بياضـه عـلى سـواده، ولعـروق يديـه النابضـة، وجسـده المتداعـي. كان التاسـوع قاسـيًا عـلى هـذا الشّـيخ الهـرم، العمـل هنـا، ومشـقته، والمعانـاة مـن غبـارِ الحنـين ودخـان المناجـم، وفي هـذا العمـر المتقـدّم، كأن التاسـوع يقـوم بفعـلٍ انتقامـي، وليـس البحـث عـن عدالـة مرجـوة، أيًّـا كان الجُـرم الـذي ارتكبـه في حياتـه الماضيـة، وأيًّـا مـا كانـت تمـور بـه سريرتـه، لا يسـتحق وهـو في هـذا العمـر هـذا الجـزاءَ، ألا يوجـد بنـد للرحمـةِ في قوانـين التاسـوع هـذا؟ أيـن مبـدأ التّجـاوز والتّسـامح والغفـران؟ أم أن عشـوائيّة الاختيـار وسـوء الحـظِ هـي مـا ألقـت بـه عنـد طـرف التاسـوع في قلـب مناجـم الحنـين؟

دنـا الخليـل منـه غـير عابـئ بدخـان الحنـين المتصاعـد مـن فُتحـة الكهـف، لفحـه الهـواء السّـاخن، فشـعر أنـه في بطـن حـوتٍ ضخـم، قلّـبَ صالـح يديـه، وهـزَّ كتفيـه دلالـةً عـلى حيرتـه، أومـأ الخليـل برأسـه متفهـمًا، ووضـع يـده عـلى كتـف الزبـير، فارتجـف الأخـير، ورفـع وجهًـا غارقًـا في الدمـوع،

امتـزج في عينيـه الخـوف والرجـاء، نظـر نحـو الخليـل فربـت الأخـير عـلى كتفـه:

- أفهـم الـذي تعانيـه، هـذا طريـق سنسـلكه جميعًـا، كلّنـا نشـعر بالخـوف مثلـك، لا يُوجـد في الكـون شيءٌ أكثـر رعبًـا مثـل المجهـول.

- أنحـن موتـى أم في الطريـق إلى المـوت؟ هـل هـذا هـو الجحيـم؟

تنهد الخليل قائلًا:

- لا أحـد يسـتطيع الإجابـة عـن سـؤالك هـذا، ولكـن لا يبـدو لي أنّنـا الأمـوات، لـو كنـا موتـى هـل كنـا سـنحن ونخـاف ونأمـل، الموتـى في غفـوةٍ طويلـة عـلى مـا أظـنّ.

- هـذا يومـي التّاسـع، قضيـت ثمانيـة قبلـه، ولم أفهـم لِمَـا نحـن هنـا، ومـا هـي العلـة مـن وجودنـا، تمنيـت صادقًـا أن أكـون مثـل الشـيخ جابـر، الـذي ذهـب إلى المجهـول مبتسـمًا، ولكـن كل مـا أشـعرُ بـه الآن هـو الخـوف، يجتاحنـي كالسّـيل، ويفتتنـي إلى قطـع صغـيرة لا أقـوى عـلى جمعهـا.

- الشـيخ جابـر لم يكـن يخشـى المـوت، خوفنـا الأعظـم، بـل تآلـف معـه، وذهـب إلى الدائـرة المضيئـة وكأنـه ذاهـب إلى المسـجد، كلّنـا نغبطـه عـلى هـذا، ولكـن يـا للأسـف لا

نملك خيار المقاومة!، فعدونا هو المجهول الذي رسمَ لنا طريقًا لا حياد عنه.

قال صالح الذي ظلّ مستمعًا لفترة طويلة:

- المخيف حقًّا هو انتظارُ نهاية أيامنا هنا، يبدو الأمر تمامًا مثل المحكوم بالإعدام، والذي يعد الأيامَ في انتظار يومِه المعلوم، نحن مثلُه، نموت كل ما انقضى يومٌ وبعث يوم آخر.

صمت الجميعُ للحظة ثم قال الخليل:

- بل إنما نعانيه أشدّ قسوةً، المحكوم بالإعدام يدرك أن مصيرَه الموت، ورغم الرعب الذي يتربص به هذا اليوم، فإنّه في النهاية سيجد راحةَ اليائس، المستسلمِ لقدره، ولكننا هنا، نتجرع جهلنا بالمصير الذي ينتظرنا، وإن أدركنا ميعاده، نتشبث بالأمل الكاذب بالنجاة، ولا نجني حتّى راحة اليأس التي ينالها المحكوم بالإعدامِ.

أتى صوتُ الزبير كالعويل:

- لا قدرة لي على الانتظار، أرغب في الموت الآن، لا أريدُ عبور إحدى الدائرتين، أيُّ عالم هذا الذي يصادر حتى حقّنا في الانتحار.

زفر الخليل ثم قال بصوت خافت:

- تشبث بالأملِ الكاذب، لا مفرَ من الحلم حتى وإن كنا على شفا الموتِ، قد تعبر الدائرةَ المضيئةَ وتجد فرصةً أخرى لرؤية حفيدتك التي تشتاق إليها، ألا يستحق الأمر المحاولة على الأقل؟

أطلق الزبير ضحكةً مريرة وردَّ بصوتٍ مبحوح:

- لا يهب التاسوع فجرين متتاليين، وقد ولد الفجر بين يدي الشيخ جابر، وأنا سأهبكم الظلام، وأغادر عبرَ دائرته المخيفة.

علا صوته قليلًا مكملًا:

- لن أرى حفيدتي مرّة أخرى.

نهض من جلسته كمَنْ أصابه مسٌّ، وركض نحو حافة الجبل بالقرب منهم، صرخ صالح من هول المفاجأة، وجحظت عينا ربيع، ومدّ الخليل يديه محاولًا إمساكه بيأس، واكتفى الطاهر بالمتابعة مندهشاً.

قفز الزبير من أعلى الجبل أمام أعينهم، أطلق الخليل سبابًا بذيئًا، وصرخ صالح صرخة أخرى كأنّما يُحتضَر، اقترب الطاهر من الحافة بحذر ونظر إلى الأسفل، تصلّب في مكانه، فاندفع الآخرون لرؤية ما حدث، وجدوا الزبير معلقًا في الهواء بقوة خفيّة لا يدركونها،

ولا يخضـع لقانــون الجاذبيّــة الــذي يعرفونــه، ركل الطاهــر حجــرًا بجــواره، فاندفــع نحــو الهاويــة بسرعــة جنونيّــة، مرتطـمًا بحافـاتِ الصخـور، دونَ أن يفـارق خطـه المسـتقيمَ نحـو الأسـفل وعـلى العكـس مـن ذلـك، ارتفـع الزبـير إلى أعـلى مقتربًـا منهـم ببـطء، تراجعـوا إلى الخلـف وهـو يمـرّ مرتفعًــا بمحاذاتهـم، ثـم علاهــم وكأنــه يحلــقُ في السّــماء، وعــبر مــن فــوق رؤوسِــهم جاحــظَ العينـين، يســمعون صــوت لهاثــه وكأنــه يركــض، ثــم دفعتــه يــد خفيــة نحــو المنجــم فهــوى مرتطــمًا بالصخــور، وتكــوم في مكانــه مــن دون حركــة، ركضــوا نحــوه، وحــين اقتربــوا منــه أتاهــم صــوتُ أنينــه الخافــت، رفعــه الخليــل وربيــع، وحــين أداروا وجهــه نحوهــم، رأوا الدمــاء تغطــي وجهَــه مختلطــة بدموعــه، تعــاون الاثنــان عــلى حملــه، و أســنداه إلى صخــرة تنتصــب بجــوار مدخــل الكهــف، وتراجعــوا إلى الخلــف وصالــح يمســح الدمــاءَ بكفــه عــن وجــه رفيقــه في مناجــم الحنــين بجــزعٍ، في حــين أدرك الآخــرون عقوبــةَ التاســوع القاســيّة ويــده الباطشــة لمــن يحــاول خــرق قوانينــه، والتّحــرر مــن قيــوده.

ظهــر سربٌ صغــير مــن الطيــور في ســماء التاســوع، قويــت أجنحتهــا، واســتطالت ســيقانها، وعــلا صــوت نعيقهــا، تحــوّل الريــش في أطــراف أجنحتهــا الرماديّــة إلى اللــون

الذهبـي تحـتَ أشـعة الدائـرة المضيئـة، فغـدت أكثـر بهـاءً وجمـالًا، زهـور شـجيرات الحيـاة كانـت يانعـة تضـج بالحياة، يعكـس لونهـا الأحمـر أشـعة النهـار.

نهـار التّاسـوع يذكـر الطاهـر بربيـع عالمِـه السّـابق، ويعـود به إلى دائـرة الأسـئلةِ التـي يضـج بهـا رأسـه، عـن الحكمـة مـن الجمال في هـذا العـالم، نظـر بعيـدًا، نحـو دغـل الحيـاة، جيش التاسـوع النائـم، ثـم أدارَ رأسـه في الاتجـاه الآخـر نحـو قمـم الجبـال بلونهـا الأرجـواني الأخـاذ، ثـم نظـرَ إلى ربيـع وهـو يتقافـز بالقـربِ منـه، وإلى الخليـل وهـو منغمـسٌ في تنظيـف التاسـوع، ثـم عـاد لمتابعـة سربِ الطيـور وهـو يبتعـد نحـو دغـلِ الحيـاة، قبـل أن تحجبـه الأشـجار المتطاولـة عـن عينيـه، تـرى لـو كان يجهـل مصـيرَه المنتظـر في هـذا العـالم التاسـوع، هـل كان سيسـتمتع بجمالـه؟

مرّ الخليل بالقرب منه فهتف به:

- يبدو التاسوع أكثر جمالًا في النهار.

نظر الخليل حوله بلا مبالاة ورد قائلًا:

- ومَن يهتم؟

اعتدل في جلسته بحثًا عن وضعٍ أكثرَ راحة:

- سـيبدو أكثـر جمـالًا لـولا علمنـا الأكيـد بـما ينتظرنـا في

نهايتـه، أحيانًـا أتمنـى لـو كنـت طائـرًا في هـذا العـالم، أقـضي ليـلًا أو نهـارًا واحـدًا، ألهـو وأطـير، ثـم أغـادر. كثـيرًا مـا كنـت أرى أن المعرفـةَ أوّلُ طريـقِ الشّـقاء، وكلـما اتسـعت دائـرة معرفتنـا؛ ضاقـتْ مسـاحةُ السّـعادة عندنـا، وأضحـى الإحسـاسُ بالجـمال لدينـا أكثـرَ نـدرة، لأن المعرفـة تبـينُ القبح في الجـمال، والبـؤس في النعيـم، أو هكـذا ظننـت دائـمًا.

– ولكـن التاسـوع ليـس نعيـمًا، إنـما هـو سـجنٌ محكـم، لا نـدرك مـن وضعنـا فيـه، ومـا الحكمـة مـن وجودِنـا هنـا.

أشار الطاهر مرّة أخرى إلى التاسوع قائلًا:

– هـل انتبهـت مـن قبـل إلى جمـال الدائـرة المضيئـة وهـي ترسـل أشـعتها إلى قمـمِ جبـال المناجـم الأرجوانيّـة؟ هـل لاحظـت أن ضـوءَ النهـار قـد جعـل مـن أجنحـة طيـور التاسـوع ذهبيّـة اللـون بـدلًا مـن لونهـا الرمـادي المحايـد؟ زهـور شـجيرات الحيـاة غـدت أكثـر جمـالًا، التاسـوع ليـس مكانًـا قبيحًـا، بـل ينبـض بالجـمال.

اتـكأ الخليـل عـلى جاروفِـه، وتطلـع حولـه، يحلـق سربُ طيـور التاسـوع قادمًـا مـن خلـف غابـة الحيـاة، ثـم التفـت إلى الطاهـر قائـلًا:

– حتّـى وإن كان جميـلًا، لا يحـق للسـجينِ الفـرح بجـمالِ

سـجنه، وجدرانـه المصقولـة وزنازينـه الواسِـعة.

أومأ الطاهر برأسه موافقًا، قبل أن يقول:

- نحـن أشـبهُ بالخـراف، محبوسـون في حظـيرة التّاسـوع، ولكـن الفـرق بيننـا وبينهـا، أن لنـا عقـولًا، ونـدرك مـا ينتظرنا بعـدَ مغـادرة الحظـيرة، بعكسـها تمامًـا، فهـي تلهـو، وتتقافـز في المـكان، وتقـضي حياتهـا سـعيدة، ولا تتكشـف لهـا الحقيقـة إلا حـين تـرى بريـقَ سـكين القصـاب، الفـرق بيننـا وبينهـا أننـا نعلـم أن السّـكين تشـحذ لنـا الآن في انتظـار موعـدِ ذبحنـا المعلـوم.

تنهد قبلَ أن يكمل:

- ترى، أيّهما أفضل، جهلُ الخراف أم إدراكُها يا صديقي؟

ابتعـد الخليـل متبعًـا أثـر الأوراق الجافـة، عثـر على بيضـة طائر التاسـوع وسـطَ كومـة مـن الأوراق الجافـة، شـعر بالدهشـة، لم يحـن وقـت تكاثرهـا غمغـم بصـوت خافـت وهـو يلتقطهـا وينظـر إلى لونهـا الـوردي الأخـاذ كأنـه يراهـا للمـرة الأولى، يؤمـن الجميـع بنامـوس التّاسـوع الـذي لا يتغـير، ولكـن التّغيـير يحـدثُ دائـمًا، حـين قـرر صالـح أن ينتحـر، تلقفتـه يـدٌ حانيـة وجعلتـه يحلـق في الهـواء كالريشـةِ، وهبطـت بـه إلى الأديـم في حنـوٍ، ولكـن ذات اليـد كانـت قاسـية مـع الزبـير،

أكان هـذا صدفـة؟ أم أن صـبر التاسـوع قـد نفـد؟

يقـول الطاهـر إنَّ التاسـوعَ لا يغـير ناموسـه، ولا يمكـن أن تـأتي ثريَّـة إلى هـذا العـالم، ولكنّـه مخطـئ، هكـذا فكّـر الخليـل، وهـو يقلّـبُ البيضـة بـين أصابعـه، رفـع رأسَـه ناظـرًا إلى المنـزل الـذي يربـض أعـلى الهضبـة، القادمـة الجديـدة لم تهبـط مـن هنـاك منـذُ قدومهـا، خفـقَ قلبـه، رغـم أنـه يخشـى أن تكـون هـي ثريَّـة، ورغـم خشـيته مـن مقابلتهـا، فـإنَّ قلبَـه يخفـق لمجـرد احتـمال أن تكـونَ هـي القاطنـة بـين السّـحب الآن، يهفـو إلى لقائهـا لهفـةَ الأعمـى لضـوءِ النهـار، ابتلـع ريقـه بصعوبـة، وهـو يحـاول جاهـدًا التركيـزَ في عملـه، الـذي أضحـى أكثـرَ مشـقة مـع الأفـكار التـي تتناوشـه، واحتـمال وجـود ثريَّـة معـه في ذات العـالم، وخشـيته مـن لقائهـا رغـم شـوقه إليهـا، حائـرًا مبلبـل الفكـر.

انتزعتـه مـن أفـكاره آهـة صغـيرة صـدرت مـن ماريَّـة، وحـين نظـر إليهـا، وجدهـا تـركلُ شـجيرة الحيـاة بغضـبٍ كالعـادة، اكتفـى بمتابعتهـا. كلّ واحـد في هـذا التاسـوع يعيـش مأسـاته منفـردًا، سـجينًا لماضيـه، ورهنًـا لحـاضر لا يرضيـه، والنجـاة لا تـأتي إلا عـبر دائـرةٍ مظلمـة أو مضيئـة، قـد تكـون هـي ذاتهـا طريقًـا إلى الهـلاك، مـن يـدري.

حـين رفـع رأسـه إلى المنـزل الرابـض أعـلى الهضبـة، بـدا

لـه طيـف كالخيـال يهبـط مـن أعـلى، خفـق قلبـه والطيـف يدنـو منـه رويـدًا رويـدًا، فلتـت المكنسـة مـن يـدِه، وهـو ينتظـر مترقبـاً، ودوي قلبـه يـكاد يصـمّ أذنيـه، انتبهـت ماريَّـة أيضًـا، فغلـب فضولهـا عـلى غضبهـا، ووقفـت تنتظـر القادمـة الغامضـة أيضًـا، انتصـب الطاهـر واقفًـا، بـل حتّى ربيـع الذي كان يتقافـز بعيـدًا عنهـم، أتـى يركـض كـي يكـونَ في اسـتقبال القادمـة الغامضـة، واقتربـت، حتـى رأوا جميعًـا هفهفـةَ ثوبهـا الأحمـر، والتفافـه حـول جسـدها الجميـل، وربـما لأنّ الدائـرة المضيئـة كانـت تسـقط أشـعتها مـن خلفهـا، لم يسـتبينوا ملامحَ وجههـا، فبـدت وكأنهـا ترتـدي قناعًـا مـن الغمـوض، حتـى دنـت مـن الخليـل، فكانـت قـاب قوسـين منـه أو أدنـى، وانكشـف القنـاع عـن وجههـا، كانـت هـي ثريَّـة، لا شـكّ في ذلـك، ازداد خفقـان قلبِـه وهـي تقـف منتصبـة أمامَـه، وتلمـع عـلى شـفتيها ابتسـامة، هـي مزيـج مـن البغـض، والاحتقـار، تراجـع خطـوة إلى الخلـف مفسـحًا لهـا الطريـق، وهـي تنظـر إلى مكنسـته السّـاقطة بجـواره والجـاروف في يـده الأخـرى في تعـالٍ، ثُـم عـبرت مـن أمامـه وكأنـه غـير موجـود، وقفـت بجـوار ماريَّـة، وحيتهـا بصـوت خافـت، ثـم لوحـت إلى البقيـة بيدهـا، فـردوا عـلى تحيتهـا بالتلويـح، في حـين وقـف الخليـل في وسـطهم، تلفـه الحَـيرة والإحـراَج والشـوق.

قسوة التاسوع

قال الخليل بصوتٍ بائس، حتى إن الطاهر لم يسمع آخر عبارته جيّدًا، فقطب حاجبيه مستفسرًا:

- لم يكن التاسوع بارعًا في ترجمة ما يعتمل في السّريرة مع أحدٍ كما تفترض، مثلما فعلَ بي.

أكمل الخليل بيأس:

- ضاق العالمُ الأرضيّ فلم يجد التاسوع سوى ثريَّة ليأتي بها إلى هنا، لكأن التاسوع يخرج لسانَه ساخرًا مني، يأتي بها ملكة في عالم أنا كناسه الوحيد، يا للمفارقة العجيبة!، من كان يظنّ في يومٍ من الأيام أن هذا سيكون مصيري ومصيرها.

مطّ الطاهر شفتيه مظهرًا عدم الرضا وقال بملل:

- ما بالُك تكثر من الشكوى، ليست سوى حبيبة من الماضي، قصة وانتهت، عشقت في حياتي عشرات النّساء حتى أنني لا أذكر أسماءَهن الآن، وأقسم أني سأكون

أكثرَ أهـل التاسـوع سـعادةً لـو أتـت واحـدة منهـن إلى هنـا وآنسـت وحشـتي.

ابتسم الخليل رغم حزنه وردّ قائلًا:

- عندمـا يتحـول التاسـوع إلى جنـيّ الخاتـم سـيحقّق جميـعَ رغباتنـا، ولكنـه يـدرك جيـدًا مـا ترغـب أنـت فيـه، ومـا أفـرّ أنـا منـه، فيحـرم كلّ واحـد منا مـن رغباتـه، التاسـوع يجيـدُ لعبتـه جيّـدًا، ويكيـل لنـا الخيبـات واحـدة تلـو الأخـرى ببراعـة.

ثم تنهد مكملًا:

- ثريَّـة لم تكـن حلـمًا مسـتحيلًا، بـل كانـت ممكنـة ومتاحـة وقريبـة، ولكنـي كنـتُ أحمـق، لم أسـتطع أن أزود عـن حبّنـا، بـل أفسـدته وحطمتـه بغبـاء، وليـس هـذا هـو مربـطُ الفـرس. فثريَّـة قطعـت مسـافةً طويلـة كـي تقـف بجانبـي، وبعـد كلّ هـذا، آثـرت الابتعـاد، وليتنـي ابتعـدت وتجاوزتها، فبعـد مـرور كلّ هـذا الزمـن، وبعـد انتقالنـا إلى هـذا العـالم، لم أسـتطع تجاوزهـا، وأقـرُّ بأننـي مـا زلـت باقيًـا عـلى حبّهـا، وأشـتهي رحيـقَ شـفتيها، مثـل أوّل مـرّة، وربـما أكثـر.

قاطعه الطاهر بصوتٍ مضطرب:

- ولكـن كلانـا يعلـم أن الاشـتهاءَ يمـوت في التاسـوع،

والحــبّ أيضًــا.

ابتسم الخليل متهكمًا:

- ألا تــرى أننــا بذلــك قــد وقعنــا في معضلــة، لا يمكننــا الكــذب في التاســوع، ولا نســتطيع أن نحــبّ، فلــو لم أكــن أحــبّ ثريَّــة فأنــا كاذبٌ، وإن كنــت أحبهــا فقــد خرقــت نامــوسَ التاســوع.

ردَّ الطاهر بإصرار:

- بــل إن الحنــين هــو مــا جعلــك تتوهــم حبهــا ولا يعــدو الأمــر ذلــك بحــالٍ مــن الأحــوال.

- تمامًا كما أوهمني بأنّها أتت في المرّة الأولى أليس كذلك؟

أتت نبرة صوته متهكمة، قبل أن يستطرد قائلًا:

- ومــا الحنــين ســوى مزيــج مــن الحــبّ والشّــوق والافتقــاد، فنحــن نحــنُّ إلى ماضينــا مهــما كان ســيئًا، لأن الذاكــرةَ تبهــت المشــاكل الصغــيرة، والعوائــق المرهقــة، ولا يبقــى مــن المــاضي ســوى جمالِــه الخــاصّ، ولذلــك يظــل المــاضي بهيًّــا وخادعًــا وغــيرَ حقيقــي، لأنــه يشــدنا إليــه بحبــال الحنــين، بــدلًا مــن الحــاضرِ بصورتــه المحتشــدة بــكلِّ مــا أزالــه المــاضي بحــذق ومهــارة، وثريَّــة هــي المــاضي الــذي يشــدني، ورغــم أن علاقتنــا لم تكــن منطقيّــة منــذ بدايتهــا، فــإنَّ المــاضي قــد

لعبَ لعبته، ولم يبقَ في الذاكرة سوى اللحظات الجميلة، والهمسات الناعمة، والشوق والحب والافتقاد، ثم أتى التاسوع ودفع بها إلى هنا، فتحولت من ذكرى جميلة، إلى حاضر لا يولد سوى الندم والحسرة والخوف من المواجهة والبحثِ عن النجاةِ ولا نجاة.

لم يجد الطاهر ما يقوله، وهو مَن اعتاد بيعَ الكلام، ربما لأنّ حرارةَ الصدق في حديث الخليل قد مسَّت شغافَ قلبه، أوربما لأنه لم يجرب هذا الإحساس من قبلُ وان توهم ذلك لمرة واحدة.

ما زال يذكرها، وهو في الثالثة والعشرين من العمر، كان نحيفًا وقتها، ولم يستدر خصره ويمتلئ بعد، لا تشغله سوى القراءة ولعب كرة السّلة، لا يتحدث إلى النساء، يرتبك لو جمعه مكانٌ واحد بفتاة، يتلعثم ويغرق في الحرج، وكانت هي جارتهم في الحي، أربعينيّة خبرتِ الحياةَ وخبرتها، لا يدري ما الذي جذبها إليه، ألقت حبالها حوله، ووقع في مصيدتها بلا مقاومة، لم تكن مبالية باللغط الذي يدور حولها، كانت قويةً وجميلة وجريئة، وكانت ترغب فيه، أشعلت نارًا ظلت كامنة في خلاياه، لا يعلم عنها شيئًا، تعلم قضاء الليالي الطويلة معها، والتّسلل قبل الفجر إلى منزله، هربًا من أعين الناس المتلصصة، وكأنها بحر، لا يرتوي من

مالحـه، بـل يـزداد عطشًـا إليهـا كلـما التقيـا، وهـي تجيـد العـزف عـلى أوتـاره جيـدًا؛ فظـل مشـدودًا إليهـا بحبـلٍ خفـيّ، يطـوف حولهـا، ويشـتاق إليهـا وقـت مفارقتهـا، وظـن أنّـه يحبهـا، وقـاده نـداءُ جسـده الجائـع للتفكـير في الـزواج منهـا، ثـم لفظتـه، هكـذا بـدون مقدمـات، قالـت إنّهـا ملّـت منـه، ولم يعـد يعجبهـا، وأن جـذوة النـار التـي أشـعلها سـابقًا قـد انطفـأت، كاد يجـنُّ، ثـار، وأرغـى وأزبـد وهـدد، ولكنهـا واجهـت صراخـه بـصراخ، وثورتـه بثـورة أكـبرَ منهـا، وتهديـده باسـتهانةٍ، واتهمتـه بأنـه ممـل، ومجـرد طفـل لم يبلـغ مبلـغَ الرجـال بعـد، فتوسّـل إليهـا، ورجاهـا، ولكنهـا كانـت أكثـرَ قسـوة مـن صخـور جبـال المناجـم، وفي النهايـة أذعـن لرغبتهـا التـي لا تلِـين، وابتعـد عنهـا وفي قلبـه لوعـة، وفي جسـده جـوعٌ وفي روحـه جـرحٌ لـن يندمـل، ولكنـه تعلّـم الـدرس جيـدًّا، وحـين التقـى بأخـرى، أدركَ أن لعبـة الوصـل، لعبـةُ معقـدة، وأن مـا بينـه وبينهـا أشـبه بعقـد الشّراكـة، يعطـي بمقـدار، ويمنـع بمقـدار أيضًـا، عَلِـمَ أن التلقائيّـة لا تهـمّ المـرأة، بـل يجذبهـا الغمـوض، ويؤرقهـا الصمـت، ويقربهـا البعـد، تعلـم أن دورَ القلـب هـو المتابعـة فقـط، وأنّ تدخلَـه يفسـد اللعبـة، وهكـذا تحـول إلى زيـرِ نسـاءٍ محـترف، يفتـل حبـالَ علاقاتـه بصـبر وأنـاة، ثـم يتخلـص منهـا ببراعـة وقـتَ انتهـاء دورهـا، وأضحـى

كالفَراشَـــة، يرغـــب في تـــذوق رحيـــقِ النســـاء بنكهاتـــه المختلفـة، السّـاذجاتِ، ربـاتِ المنـازل، طالبـاتِ الجامعـات، صغـارِ الموظفـات، معيـداتِ الجامعـة. وجـد أمامـه الميـدان واسـعًا، وهـو يركـض مثـل خيـلِ السّـباق، سـاعيًا لاقتنـاء الجائـزة خلـف الأخـرى، فلـم يعـد مسـتغربًا، أن يدخـل في علاقتـين أو ثـلاث في الوقـتِ ذاتِـه. سـاعده في ذلـك حضـورُ الفعاليـات التـي تجمـع النسـاء، الليـالي الثقافيّـة، الأمسـيّات الشـعريّة، حفـلات التوقيـع، فتعلـم أن يكـون شـاعرًا حـين يقتـضي الأمـر، ومتحدثًـا لبقًـا، في حـين آخـر، وحكيـمًا تـارة أخـرى، ومضحـكًا أيضًـا. فالمـرأة تفتـح قلبَهـا بأبوابـه السّـبعة لمـن يملـك القـدرة عـلى إضحاكِهـا.

وجـوده في هـذا الوسـط، سـلط عليـه الضـوء، خاصّـة بعـد إصـداره كتابًـا يتحـدث عـن قـوةِ المـرأةِ الخفيّـة، فأضحـى معبـودًا للنسـاء الصغـيرات الجميـلات الثريات السّـاذَجات، الـلاتي لا يغسـلن كـوبَ الشـاي بعـدَ احتسـائه، ولا يشـغلن فكرَهـن بـما يحـدث لطبـق الطعـام بعـدَ الفـراغ مـن الأكل، الـلاتي يؤمـنّ أن فقـرةً صغـيرة في كتـاب قـد تغـير العـالم، وأن كاتبًـا مفوّهًـا قـد يكـون ملهـمًا، فولـج إلى عـالمِ الأضـواء، واسـتضافته القنـوات التلفزيونيّـة، وغازلتـه الشُّـهر، فسـقطَ في شـباكها، واتّسـع ميـدانُ سـباقه ليشـمل الطبقـة المخمليّـة الثريَّـة، فعـرف غـرفَ النـوم ذات الإضـاءات الخافتـة،

والعطـورَ الدافئـة، ومضـت الحيـاة بـه راكضًـا بـين أضـواء الشـهرة التـي ظـل يقاتـل في بقائهـا مسـلطةً عليـه، فتحـدث عـن القضايـا الحسّاسـة، التـي تثـير الجـدلَ والغبـار، وتُوجـه الأنظـارُ نحـوه، فناقـشَ وجـادلَ وخاصـمَ كلَّ مـن خالفـه الـرأي، مسـتغلًا ثقافتـه الواسـعة، وبلاغتـه الفصيحـة، ليخـرج منتـصرًا في معاركـه، متوجًـا بالفخـر.

دافـع عن قضيـةِ المـرأة، وأضحـى نصيرهـا الأوّل في المجتمع، وقـاوم قضايـا الختـان والتعـدد، وفـرص المسـاواة بـين الرجل والمـرأة في العمـلِ والأجـر، وخلـق حولـه درعًـا مـن النسـاء الـلاتي يؤمـنّ بأنـه نبـيُّ الخـلاص الـذي بُعـث إليهـن. ثـم ينهـي يومـه بـين أفخـاذ جديـدة، وصـدور أكثـر انتصابًـا، وآهـات يتمنـى لـو يحتفـظ بهـا كنغـماتٍ لهاتفـه النقـال، ومـن دون مقدمـات وجـدَ نفسـه هنـا، يقطـن بجـوار دغـلِ الحيـاة، يقتـات العزلـة، فـلا نسـاء ولا أضـواء ولا شـهرة، الصمـت فقـط، ونعيـق طائـرِ التاسـوع وضُبـاح ثعالبـه الخجولـة.

نظـر نحـو الخليـل وهـو يبتعـد منكبًـا عـلى أرض التاسـوع، لم يشـعر يومًـا بـما شـعرَ بـه، هـذا الصـدق الحـارّ الـذي يلسـع عميقًـا في القلـب، قصـص الحـب الخالـدة، التـي لا يبليهـا الزمـن، مهـما تغـيرتِ الظـروف والأحـوال، من سـيصدق أن مثـلَ الخليـل سـيظل باقيًـا عـلى حبـه لثريَّـة، رغـم انتقالـه بين العـوالم، وانقطـاع الصلـة بينهـما، شـعر بـأنَّ مـا عاشـه كان

زائفًا، محض لعبة للتسلية، كان مستعدًا لتنظيف التاسوع إلى الأبد، لو أنّه وجدَ امرأة تضيء قلبه وروحه، بدلًا من نساء يطللن من ذاكرته مثل أشباح بلا ملامحَ، تختلط عليه لياليهن، وآهاتهن المتشابهة، لمْ يلمس وجه الشّبه بهذه القوة بين تاسوعه الخاص، وعالمه السّابق إلا الآن، ربما تغيرتِ الملامح، واختلطَ عليه المكان، ولكنه ذات الخواء والعزلة، وحيدًا مثل الذي لا اسم له، تائهًا بين عالمين، دون سندٍ أو حبيبة، سجينًا بين أشواكِ أشجار الحياة هنا، وبين سواعد النساء الباردة التي لم تكن تمنحه دفئًا في عالمِه السّابق، وهو من كان يظن نفسه الفائز الأكبر، وجد نفسه الخاسر الوحيد في سباقِه الفردي.

دنت ماريَّة قدرَ استطاعتها من الدغل، حتى لم يعد المسير قدمًا ممكنًا، عالمة أن هذه أصعب مهامّها في هذا العالم، الخطّ الأخير الفاصل بين الدغلِ وبقيةِ التاسوع، تغدو شجيرات الحياة هنا أكثر طولًا، في رحلة تحوُّلها إلى أشجار عملاقة، وتغدو أشواكها أكثرَ عداء، ووخزها أكثر إيلامًا، ولكن إغفالها سيجعل الدغل يزحف حثيثًا محتلًا مساحةً جديدة، رصدت عشرات الأعين اللامعة ترصدها عندَ حدود الدغل، الثعالب الخجولة بفرائها البني الناعم، لطالما تمنت أن تلمسه يومًا ما، وتداعبه

بأناملهــا، ولكــن الثعالــب لا تقــترب منهــم أبــدًا، تكتفــي بالمُتابعــة مــن بعيــد بأعينهــا الواســعة وضباحهــا الخجــول. عــادت إلى الانغــماس في عملهــا، هــا قــد بــدأ يومهــا الثــاني في التاســوع، يمــرُّ الزمــن ببــطءٍ قاتــل، تشــعر أنهــا غــادرت عالمهــا الأوّل منــذ عقــد مــن الزمــان، تــرى أيّ أرضٍ تقــل ابنتهــا زينــة؟ وأيّ ســماء تظلهــا؟ لوعــة في قلبهــا لا تنطفــئ نارُهــا، مزيــج مــن الإحســاس بالغبــن والغضــبِ والعجــز، ضربــت الشــجيرة بكفهــا، في واحــدة مــن نوبــات الغضــب التــي تنتابهــا، انغرســت الأشــواك في كفهــا، تأوهــت ممســكة بهــا، جلســت عــلى الأرض، مغرقــة في دموعهــا، وممســكة يدهــا بعجــز.

- سأساعدُكِ.

رفعــت رأســها، تجثــو ثريَّــة بقربهــا، أمســكت يدَهــا، نظفتهــا بطــرف ثوبهــا، نظــرت ماريَّــة إلى ثريَّــة بإمعــان للمــرّة الأولى، رأت حزنًــا دفينًــا في عينــين وديعتــين، وملامــح هادئة،تــكاد تشــع نــورًا، بعثــت في داخلهــا طمأنينــة. تركــت يدهــا بــين يــدي ثريَّــة مستســلمة لهــا، تفعــل بهــا مــا تشــاء. أنهــت تنظيفَهــا وتلفتــت حولهــا بحثًــا عــن ضــماد مــا، أشــارت ماريَّــة إلى أوراق شــجيرة الحيــاة، فقطفــت ثريَّــة ورقتــين، ولفتهــما حــول يدهــا. ظهــرت عــلى وجههــا علامــات عــدم الرضــا مــن الضــمادة، ولكــن ماريَّــة شــكرتها، فهــي لا تضمــد

وخـزَ الأشـواك لأنّهـا لا تتوقـف. أمسـكت ثريَّـة يديَهـا، قلبتهـما، عـشرات النـدوب الصغـيرة، والخـدوش. رأت في يـدي ماريَّـة لوحـةً تحكـي الألم بلسـان بليـغ.

- هل أتيت بهذه الندوب من العالم السّابق؟

سألتها ثرية بحَيرة، ابتسمت ماريَّة بحزن وردت قائلة:

- بـل أتيـت بنـدوب أكثـر تشـوهًا وعمقًـا، التاسـوع يداعبني بنـدوب كفـيّ هاتين.

قلبـت يديهـا وهـي تنظـر إليهـما خلـفَ غمامـة رقيقـة مـن الدمـوع.

- التاسـوع جحيمـي الأصغـر، العـالمُ الـذي تركتـه خلفـي نـارُه أشـدُّ اسـتعارًا، وأشـواكُه أكثـرُ قسـوةً.

اقتربـتِ الثعالـب الخجولـة، وصـارت أكثـر جـرأةً وهـي تشـكل حلقـة كبـيرة حولهـما، مختفيـة خلـفَ أشـجار الحيـاة وشـجيراتها، في حـين يـأتي نعيـقُ طيـور التاسـوع متقطعًـا، كأن التاسـوع منتصـبَ الأذنـين منصتًـا لحديـث فتاتـين تاهـت خطواتُهـما بـين العـوالم.

تأوَّهت ماريَّة مكملة:

- فقـدت ابنتـي ذات الأعـوام الخمسـة، أيّ أم تلـك التـي

تضيع ابنتها؟ انشغلت عنها بتوفير حياة كريمة لها، شغلتني دوامةُ الحياة، سلمتها لدور الحضانة، ومن بعدها لرياضِ الأطفال، ثم وفي غفلة مني، لم تعد موجودة، بحثت عنها في كلّ مكان، المستشفياتِ، أقسامِ الشّرطة، سألت الناسَ عنْها في الطرقات، في الأسواق، حتّى هو عدت إليه راجية أن يساعدني، رغم علمي بقسوةِ قلبه وشدة غضبه، ولكني كنت ضعيفة، أمًّا موجوعة. ما زلت أذكر وقوفي أمامه، توسّلي إليه كي يساعدني، ورغم علمي بأن له يدًا في الأمر. تصوري أن تجبرك الدنيا على الاستعانةِ بالجلاد كي ينقذ الضحية. ذهبت إليه، جثوت عند قدميه، كنت على استعداد لتقبيلهما حتّى يرحم ضعفي ولوعتي، دفعني من أمامه بقسوة.

صمتت للحظة ثم أتى صوتها مزيجًا من الحَيرة والقنوط:

- ثم وجدت نفسي هنا، هكذا، بلا مقدماتٍ، مقيمة في التاسوع، أقتلع الأشواكَ من شجيرات الحياة، ولا أعلم ما الذي حدث لابنتي، هل هي بخير؟ هل هي مريضة؟ هل هي جائعة أم شبعى؟

خفتت نبرةُ صوتها حتى كاد لا يسمع:

- بين الأحياءِ أم الأموات؟

انسابت دمعة على خدها، احتضنتها ثريَّة وربتت على ظهرها مواسيةً:

- لكن، مَنْ هو هذا الذي تتحدثين عنه؟

ابتعدت عنها ماريَّة، تنهدت ثم شعرتْ بغيوم التاسوع تدنو من قمم الأشجار، يصلها ضباح الثعالب كالهمهمة، والنباح الخافت كأنها تدعو بعضُها بعضًا إلى الحضور. طيور التاسوع تبدو كثمار شجرة الحياة، بحجمها الصغير وهي لم تكمل نضجها بعدُ، تتناثر بين الفروع بأعدادها الكثيفة، يتدلى بعضها كالخفافيش معلقًا بالفروع الصغيرة، ونعيقه المكتوم شبيهٌ بهديل الحمام. غمرها إحساس أنّها لا تحكي لثريَّة فقط، هذا العالم الآن يقفُ مستمعاً لها، وهي التي اعتادت الكتمانَ، اعتادت الصمت الممض الطويل. ارتبكت وشعرت برغبة قوية في الفرار من كلِّ هذا، تقلصت أمعاؤها، واجتاحها برد مفاجئ ذكرها بليل التاسوع الطويل. التفتت إلى ثريَّة وهمّت بالاعتذار، والتحجج بالعمل الذي ينتظرها، بدلًا من ذلك غمرتها الطمأنينة والسّكينة، وعينا ثريَّة الوديعتان تحتويانها. عاد إلى التاسوع اتزانُه، وغمرها دفء نهارِ التاسوع المعتاد، اتكأت على ساقِ شجيرة

فتيـة، ونظـرت بعيـدًا نحـو غيـوم التاسـوع وسـمائه الزرقـاء وقالــت:

- مديــري في العمــل هــو وكيــل وزارة الطاقــة، بســلطات الوزيــر الغائــب طــوال العــام

تلعثمت قليلًا، ولكنّها أكملت:

- كنتُ سِكْرِتيرته وأشياءَ أخرى.

أومــأت ثريَّــة برأســها متفهمــة، التفتــت ماريَّــة نحوهــا، وقالــت بنــبرةٍ يشــوبها الحنــق:

- لــو ولجــت إلى هَــذا العــالم لعلمــتِ أنــه أنتــن مــن بــرازِ ثعالــب التاســوع، وأكثــرُ لزوجــة مــن لِبــأ حنينــه، ســوقٌ للنخاســة وبيــع الأجســاد، وكنــا نحــن بضاعتــه، الطبقــة الدنيئــة لهــذا المجتمــع المخمــلي المنافــق، مجموعــة النســاء الجميــلات المهيضــات الجنــاح، الــلاتي لا يمتلكــن خيــارَ أنْ يلقــين بــكلّ هــذا ويبــدأن مــن جديــد. يتــم اختيارنــا بعنايــةٍ وحــرص، يدركــونَ جيّــدًا أن الحاجــة تجبرنــا عــلى الطاعــةِ والإذعــان، ولم أكــن استثناء. كان الأمــر في بدئِـه ثقيًــلا عــلى نفـسي وموجعًــا. وكنــت أرجــع إلى منــزلي واحتضــن ابنتــي وأبكــي، ولكــن مــع شروق الشّــمس، كنــت أزيــل آثــار ليلــة البارحــة، وأذهــب إلى عمــلي بخطــى ثقيلــة. ولأن الإنســان

يتأقلـم، اعتـدتُ الحفـلاتَ، والضحـكَ، والاسـتجابةَ للغـزل غــير الــبريء، ولكنــي كنــت خاصّتــه، ملكــه، مربوطــة بحبـلٍ وثيـق إليـه، أدور حولـه في دائـرةٍ ضيقـة، لا أسـتطيع الإفـلات منـه، وبعـد زمـن قصـير، أدركـت فاعليّـة كلمـة لا التــي تعنــي نعــم ولكــن بــشروطٍ محــددة، أدركــت أنّ الــدلالَ ســلاحٌ فتــاك في يــدي؛ فاســتخدمته، وازداد تعلقًــا بي، وامتـلأت حقيبـة يـدي بالمـال، وخزانـة ملابـسي بالهدايـا، وكَثُـرَ غيـابي عـن المنـزل، وصغـيرتي زينـة خـبرت حضانـات المدينـة كلّهـا، ورياضَهـا، وحـين أتأخـر ليـلًا أتركهـا برفقـة جـارتي العجـوز التـي تعهـدت لهـا بالـدواء والكسـاء، وكنت أنفحهـا نقـودًا فـوق حاجتهـا مقابـلَ بقـاء ابنتـي برُفقتهـا، كنـت أبتعـد عنهـا بحجـة بحثـي عـن مسـتقبلٍ أفضـلَ لهـا، وغصـت في ذلـك المجتمـعِ الآسـن حتـى النخـاع، واعتـدت روائحَــه النتنــة، ولزوجتَــه المقــززة، حتــى لم أعــد أشــعر بهـما. ولأنهـم ثعالـب بإجماعهـم، ويدركـون شروطَ اللعبـة، ويديرونهـا في خبـث بالـغ، ولأني حذقـت لعبتهـم جيّـدًا، أضحيـت لاعبـةً ماهـرة، فاتّسـعت دائـرةُ معـارفي، وتذوقـت أثــر الســلطة، وتحقيـق مــا أريــده عــبر مكالمــة قصــيرة، أو مجـرد إشـارة إلى الأمـرِ تلميحًـا، فيُنفَـذُ عـلى الفـور. وبمـرور الوقـتِ أدركـت أن هـذا المركـبَ صغـيرٌ عـليّ، لم يكـن وكيـل الــوزارة ســوى جــرو صغـير في غابـة الثعالـب، ولأن الاعتيادَ

يقتل الإحساسَ بالعار، لم أرَ فيما أنوي فعله عارًا. ألقيت شباكي حولَ وزير الاستثمار، رجل هرم، لن يكون متطلبًا بحالٍ من الأحوال، يرغب في تقديم رشوة صغيرة لسنوات عمره الأخيرة، سَرعان ما استجابَ، فتعللت لدى وكيل الوزارة بحصولي على وظيفة براتب أكبرَ، وقدمت استقالتي، وهنا بدأت الحربُ بيني وبينه، رفض الاستقالة أوَّلًا، وعرض علي راتبًا أكبرَ ومَزايا أفضلَ، ولكنني ازددت إصرارًا على تقديم استقالتي، فأظهر لي وجهه الآخر، واجهني بالعلاقة الخفيّة بيني وبين وزير الاستثمار، وهدد بتدميري، ولكني استهنت به، وظننت أن حجمَ العلاقات المتشابكة الذي صنعته في هذا القاع سيكون درعاً واقياً لي، وفات عنيّ القاعدة الأولى في اللعبة، الكل يعلم ولكن يتظاهر بالعَمى. لا أحد يخوض حربًا هنا من أجلِ امرأة، ولكن التبادل يتم عن رضا، أو أفول نجم أحدهم ومغادرته لمنصبه، أما ما كنت أطلبه من حماية لأبتعد عنه قسرًا، فهو يعتبر فعلًا مرفوضًا، بل إن وزير الاستثمار قالها لي صريحًا، أخبرني أن الوظيفة تنتظرني ولكن لا بدَّ من قَبول وكيل وزارة الطاقة بالأمر. وحينها فهمت، وعلمت أنّني وحيدة في حرب خاسرة، حاولت الاعتذار والرجوع إلى العمل، ولكنه لفظني، وطردِني من الوزارة، وأغلق

كلَّ المنافـذ في وجهـي، فتنكّـرَ لي أصدقـاء الأمـس، وتعللـوا بالانشـغال وضيـقِ الفـرص، ونصحـوني بالصـبرِ إلى حـين انقشـاع الغمـة، ثـم أغلقـوا هواتفَهـم وأبوابَهـم دوني، وعدت إلى النقطـة الأولى سريعًـا، مـا عـدا حفنـةً مـن المـال مهـددة بالفنـاء قريبًـا. ولكـن الدنيـا لم تكتـفِ بـكلّ هـذا، ففـي يـوم أخـذت زينـة إلى الروضـة صباحًـا كالمعتـاد، وانطلقـت في جولـة بحثـي اليائسـة عـن وظيفـة، وحـين عـدت آخـر اليـوم لأتسـلمها لم أجدهـا، فجزعـت وثـرت وغضِبـت وبكيـت. أصرت مديـرة الروضـة عـلى أنّنـي أتيت وتسـلمتها في منتصـف اليـوم. فتحـت بلاغًـا في مواجهـة الروضـة، ولكـن المديـرة أتـت بشـهودٍ عـلى أنّنـي قـد تسـلّمتها، مرفقـة دفاعهـا بتوقيعـي عـلى دفـترِ الحضـور والانـصراف الخـاصّ بالروضـة، نصـحَ لي أحـدُ القلـة مـن الذيـن بَقوا عـلى تواصل معـي بالذهـاب إليـه، فذهبـت. كان قاسـيًا ومتعاليًـا وجلفًـا، لم يعبـأ بضعفـي ووجعـي وألمـي، وحـين أمعنـت في توسّـلي وإظهـارِ قلـة حيلتـي ثـارَ، وذكّـرني بفعلتـي، وأخـبرني أنّـه لا يرحـم الخونـة، وأني مجـرد خائنـة، ووضيعـة، وأنـه قـادرٌ عـلى أن يـأتي بألـفٍ مـن نوعـي.

صمتـت بعينـين مغرقتـين بالدمـوع وجسـد مرتجـف وحَـيرة بائنـة. يحكـي ضغـاء الثعالـب وعواؤهـا ألمهـا وغضبهـا، عـلا نعيـقُ طيـور التاسـوع، فسـمع كقرقـرة الحـدأة في قوتـه، ضج

التاسـوع متضامنًـا مـع ألمهـا، وأكملـت بصـوتٍ مبحـوح لا يـكاد يسـمع:

- ثـم وجـدت نفـسي هنـا، أنـا موقنة بـأنّ لـه يـدًا في وجودي في التاسـوع، لـو لم يكـن هـو مـن دفـعَ بي إليـه، لم يكـن سـوى طاغيـة يسـتغل ضعـفَ النسـاء، ويختطـف الأطفال، ويرسـل مَـنْ هـم مثـلي إلى الجحيم.

ربـما رغبـت ثريَّـة في الحديـث أيضًـا، ولكـن ماريَّـة لم تكـن في حالـة تسـمح لهـا، مغرقـة في وجعهـا وألمهـا ووحدتهـا، رجعـت ثريَّـة بذاكرتهـا إلى أزمـانٍ ليسـت بعيـدة، تنهـدت، تذكـرت الخليـل، وتذكـرت دهشـتَها مـن وجـوده في ذات العـالم الـذي أتـت إليـه، وتفتـق جرحُهـا ووجعهـا، و تذكـرت بقاءَهـا في منزلهـا خشـيةَ رؤيتـه مـرّة ثانيـة، الهـوة السـوداء الضخمـة التـي ابتلعتهـا بعـد فراقـه، وجعهـا وألمهـا، وفقـدان ثقتهـا في العـالم الـذي يحيـط بهـا، قالـت في نفسـها: إن الرجـالَ هـم السـببُ في أن العـالم أكثـر سـوءًا، حتـى التقـت حاتـم، وأعادهـا إلى العـالم وجهـه المألـوف، وهـو يغمرهـا بحنانـه واهتمامـه، يقابـل شـكّها، وقلّـة ثقتهـا بالصـبر، ويمـدّ في حبـال الثقـة بينهـما، حتـى استسـلمت، وأسـلمته قيادهـا، وتقـدم لخطبتهـا، واتفقـا عـلى تأريـخِ زفافهـما، وعـاد العـالم مشرقًـا، وامتـلأت نفسـها بالأمـلَ، والثقـة في غـدٍ رُفقـة حاتـم، ثـم وجـدت نفسـها هنـا، في عـالم

يضيـق بهـا فـلا تـرى سـوى المـاضي الـذي تبغضـه، يعيـش فيـه الخليـل، ويلزمهـا برؤيتـه، ويذكرهـا بوضاعتـه وخذلانـه لهـا، في هــذا العــالم، نظـرت إلى ماريَّــة وهــي تنهــض مــن مكانهـا في تثاقـلٍ، وتعـود لاقتـلاع الأشـواك ببطءٍ، قالـت:

- ما الذي يجبرك على مكابدةِ وخز الأشواك وألمها؟

التفتت ماريَّة نحوها، هزّت كتفيها وردت باقتضاب:

- لا أحد.

ثــمّ عــادت تلتفــتُ إلى الشــجيرة التــي بــين يديهــا، وقالــت كأنّهــا تخاطبهــا:

- تــرى مــا الــذي دلّــك عــلى أنّ منزلَــك هــو الرابــض أعــلى الهضبـة فـوقَ غيـوم التاسـوع وليـس واحـدًا آخـرَ؟

انتبهــت ثريَّــة للمــرة الأولى، غمرتهــا الدهشــة والحَــيرة حــين تفاجــأت برؤيــة الخليــل هنــا في لحظــة مجيئهــا، ففكــرت بالفــرار. لم تبتعـد عـن المـكان عشـوائيًا، بـل فـرت إلى منزلهـا، رغـم أنـه كان قدومهـا الأوّل، فإنّهـا تذكـر الآن جيّـدًا أنّهـا كانـت مدركـة لتفاصيـل المنـزل قبـلَ ولوجهـا إليـه، ولغرفـه وشرفاتـه الأربـع، وغيـوم التاسـوع وهـي تمـرّ مـن تحتهـا، وتسـتطيع أن تغمـس أناملهـا فيهـا لـو رغبـت. لم يكـن ذلـك خيـالًا، بـل واقعًـا، وكأنهـا عاشـت في المنـزلِ ذاتِـه، منـذ

طفولتهـا، وأقامـت فيـه منـذ نعومـة أظفارهـا. لم يخبرهـا أحـد، ولم تـأتِ إلى هنـا قبـلَ ذلـك، لـكان الأمـر مغروسًـا في ذاكرتهـا غرسًـا، ربـما ذات حلـم مـا دون أن تنتبهَ. نهضـت مـن مكانهـا، مبتعـدة عـن الدغـل. وكائناتـه العجيبـة.

أشـعةُ الدائـرة المضيئـة كانـت تهطـل كخيـوطٍ مـن الضـوء. شـعرت ثريَّـة للحظـة أنّهـا لـو التقطـت إحداهـا؛ لتسـلقته بيـسر لتصـل إلى الدائـرة المضيئـة، ومـا بعدهـا رأت شـبحَ الخليـل مـن بعيـد ممسـكًا مكنسـتَه وجاروفـه. شـعرت بالاضطـراب، ولكنهـا واصلـت خطواتِهـا البطيئـة متأملـةً عالَمهـا الجديـد ومحاولـة تجاهـلَ وجـود الخليـل الـذي ابتعـد حثيثًـا، اتجـاهَ جبـال المناجـم. رأت قاطـرةَ الحنـين للمـرّة الأولى، رغـم علمهـا بوظيفتهـا، اسـتندت إلى واحـدة مـن شـجيرات الحيـاة، شـاهدت غبـارَ الحنـين يغمـر التاسـوع بغبـارِه الأخـضر الناعـم. حياهـا الـسّر وهـو يعـبر مـن فوقهـا، وغطتهـا سـجادة الغبـار، ونفـذت رائحتـه النفـاذة عـبرَ أنفهـا، تداعـت عـلى الأرض، وعـادت بذاكرتِهـا عميقًا، كان الخليـل جالسًـا في مواجهتهـا، بوجـهٍ عابـس، وملامـح قُـدت مـن حجـر:

- وما تعاهدنَا عليه.

- مجرد أحلامٍ، الواقع أنّني زوجٌ وأب.

- والسّـــاعات التـــي قضيناهـــا معًـــا، ومحاولاتـــك المضنيـــة لإقناعـــي بالـــزواجِ منـــك، وتلويـــن مســـتقبلي بالأمـــاني. كل هـــذا كان كذبًـــا.

نكس برأسه نحو الأرض، فعلا صوتها قليلًا:

- كنـــت موقنـــة بكذبـــك، ولكنـــي كنـــت أخـــادعُ نفـــسي بحديثـك المعسـول، وبالعـالم الـذي لونتـه لأجـلي، وبوعودك الكاذبـة. كان ينبغـي أن أدرك أن شـكك مـرض، وأن زوجتك الأولى ضحيـة مـن ضحايـاك وليـس العكـس. أنـت وضيـع ليـس إلا، وتشـبه هـذا العـالمَ النتـن الـذي فـررتُ منـه إليـك، لم تكـن سـوى نسـخة أُخـرى منـه، ولكنّـك أكثـر براعـةً وخبثًـا، هـذا هـو الفـرقُ بينكـما فقـط.

تناولـــت حقيبتهـــا وغـــادرتِ المـــكان. لم تلتفـــت إلى هتافـــهِ باسـمها، ولم تقلـل مـن سرعتهـا وهـو يعـدو خلفهـا راجيًـا. أوقفـت سـيارة الأجـرة، وغـادرت غارقـة في دموعهـا.

حـينَ انتبهـت، كان الـسّر قـد وصـل تـواً إلى دغـلِ الحيـاة، وهـو يـدور دورة أخـيرة في طريقـه نحـو جبـال المناجـم، التفتـت ناظـرةً إليـه. اختفـى شـبح الخليـل خلـفَ إحـدى الهضـاب، مسـحت دموعهـا بظهـر كفهـا، وعـادت لمواصلـةِ المـشي بخطـوات بطيئـة، متجهـة نحـو منزلهـا أعـلى الهضبـة.

تذكـرت أول مـرة انتبهـت لغيرتـه الشـديدة، وأرجعتهـا في البدايـة لشـدة حبـه، قبـل أن تثقـل حياتهـا وتحولهـا بعـد ذلـك إلى جحيـم.

دخـل إلى المكتـب ذات مـرة وهـي تنهـي مكالمـة مـع أمهـا، كانـت تحدثهـا عنـه، وتمـدح طريقتـه في التعامـل معهـا، وتشـكر وجـوده في حياتهـا.

وحـين ولـج إلى المكتـب فجـأة غمرهـا الحيـاء، خشـية أن يكـون استمع إلى حديثهـا فارتبكـت. لم يمهلهـا بـل أخـذ يسـألها بوجـه عابـس عمَّـن تحدثـه، تتذكـر الآن كيـف كان صوتـه كان مشـحوناً بالاتهـام، ونبرتـه تنبـض بالشـك. أخبرتـه أنهـا كانـت تحـدث أمهـا، ولكنـه لم يصدقهـا وهـو يبـدي تبرمـه قائـلاً: «وهـل يسـتدعي وجـودي قطـع مكالمـة مـع أمـك، إن كنـت تحدثينهـا حقـاً». شـعرت بالغضـب وقتهـا، وبـأن كبرياءهـا قـد جُـرح لاتهامـه لهـا بالكـذب. كـم كانـت سـاذجة وهـي تـصر عـلى أن تريـه هاتفهـا، وتعلـل غضبـه بالغـيرة. لم يكـن يحـق لـه تكذيبهـا، كان يعيـد تفاصيل أخطائـه مـع زوجتـه، كأنـه لم يسـتفد منهـا. وقد أخطـأت هي حـين غضـت الطـرف بـدلاً مـن إبـداء موقـف رافـض، ثـم انتظـرت أن يعـود ويعتـذر لهـا ولكنـه لم يفعـل، بـل اتصـل بها في المسـاء وكان لطيفـاً، فغضـت الطـرف، وبلعـت إحساسـها بالمهانـة، وأفسـحت لـه الطريـق كـي يلـج إلى قلبهـا أكثـر

وأكثـر.

نظـرت حولهـا، بـدا عالمهـا السّـابق الآن كأحـلامِ الكـرى، وذكريـات كأنهـا الخيـال، مـا حـدث كان موجعًـا وقاتـلًا، ولكـن حـين انتبهـت الآن، أدركـت أنـه ربـما كان رحيـمًا بهـا أيضًـا. أخذهـا التّاسـوع وهـي في قمـة قوتهـا. حـين اسـتعادت ثقتهـا وتجـاوزت الخليـل كأنـه لم يكـن، وشـفيت جراحهـا وفتحـت صدرهـا للعـالم مـرة أخـرى، تـرى مـا الـذي يعقـبُ وصولنـا إلى القمـة غـير الانحـدار؟ لـو بقيـت هنـاك لـكان مـن الممكـن أن يعيـد العـالم روتينـه المعتـاد، وأن ينتـزع منهـا سـعادتها وثقتها.لكـن رغـم وحشـة التّاسـوع، ورغـم وجـود الخليـل فيـه، فإنَّهـا تشـعر بالاكتفـاء داخـلَ قلبهـا. مـا يـزال احتقارهـا للخليـل قائـماً، ومقتهـا لـه حيـاً، لا فـرق إنْ كانـت حيّـةً أم في عـالم الأمـوات، فسـتظل هـي ثريـة، التـي غـرر بهـا الخليـل. ولقـد علمتهـا الحيـاة ألا تنثنـي مـرة أخـرى حتـى لا يمتطـي أحـد ضعفهـا.

في عـالم التّاسـوع، حيـثُ لـكل واحـد جحيمُـه الخـاصّ الـذي يعيشـه بمنـأى عـن الآخريـن، كانـوا تسـعة يعيشـون في عـالم واحـد، ولكـن في حقيقـة الأمـر كان كلّ واحـد منهـم فـردًا، تاسـوعًا مختلفًـا، كأنّهـا تسـعة عـوالم اجتمعـت في عـالم، بـل لـو أنّنـا نظرنـا إلى تاريـخ التّاسـوع البعيـد الـذي لا يعلـم أحـدٌ متـى ابتـدأ، فنحـن نتحـدث عـن عـددٍ غـير متنـاهٍ مـن

العــوالم، والقصــص التــي قــد تتشــابه في عمومهــا، ولكــن تفاصيلهــا مختلفــة جــدًّا. إذ أن مــا يعتمــل داخــلَ نفــوسِ القاطنــين مثــلُ بصمــة الأصبــع، وهــذا يجعــل مــن التاســوع عالمــاً متنوعًــا وزاخــرًا. وبالرغــمِ مــن فقــرِ التاســوع البائــن، ووحشــته الطاغيــة، فــإن قبــح صخــورُه الجــرداء وأشــجاره الكئيبــة، وطيــوره المتوحشــة، لا يمحــو جمــال قممــه أو ســحر غيومــه، أو جمــال ثعالبــه الخجولــة بأذيالهــا الطويلــة الناعمــة وأعينهــا الواســعة الكحيلــة، بــل ولا حتّــى جمــال أزهــار شــجيرات الحيــاة اليانعــة. ولكــن كل واحــد منهــم يــرى التاســوعَ مــن عين نفســه. ويظــل قانــون التاســوع الأول الــذي يســمح لــك بالمقــدرة عــلى التفكــير ويصــادر منــك حق الفعــل والتغيــير هــو الجحيــم الــذي يصطلــون بــه جميعــاً، فــما معنــى أن تــدرك مكمــن الظلــم وليــس لــك الحــق في تغيــيره؟ ومــا قيمــة أن تبــصر الخطــأ ولا تملــك إلا غــض الطــرف عنــه فــإن كان التاســوع ســاديًاً في تعذيبهــم، فهــو عبقــري باختيــاره نــزع الإرادة والقــدرة عــلى التغيــير، لذلــك فقــد تحولــت حياتهــم فيــه إلى كابــوس مســتمر، رغــم أنــه لا نــوم في التاســوع ولا غفــوة.

كانــت ثريــة جديــدةٌ في هــذا العــالم، وهــذا يومُهــا الأول، ولكــن رغــم ذلــك لم تســتطع وحشــة التاســوع أن تزيــل قلقَهــا مــن وجــود الخليــل، فهــي مــا تــزال تذكــر مقــدار مــا

عانته من بعده، وعظم المشقة التي لاقتها كي تتجاوزه. أما ماريَّة فترى في أشواك التاسوع ووخزها محضَ دعابة مقارنة بما لاقته في عالمها السّابق. ويرى الخليل أنّ ما يعيشه موجعٌ، ولكنه يستحق كل ما يحدث له. بينما يراه الطاهر كاستراحةِ المحارب، ويتمنى صادقًا أن يعود إلى عالمه القديم كي يعيشَ مرّة واحدة، يلتقي بامرأة يجمعهما الحبّ والصدق، بعيدًا عن الصوّر الملوّنة الكاذبة التي تركها خلفه. في حين أن السّر يرغب في الفرارِ من غبار الحنين ولبأهِ، تشغل باله مزارعُ الموز وعلف الأبقار، ويفكر في زوجته المستقبليّة، ولديه إيمان قاطع بأنّه سيعود إلى هناك في يوم ما، وسيجد كلّ هذا في انتظاره. أمَّا ربيع فيائسٌ لا يشعر باختلاف بين العالمين. هو مجردُ مهرج بينهما، يتمنى أن تبتلعه الدائرة المظلمة وينتهي كلّ هذا. صالح ما يزالُ في محطة قدومِهِ الأوَّل، رغم مرور يومه الثاني بينهم، وهو مع ذلك لا يفتأ يتوجع مما فقده، ويعضّ على أصابع النّدم على ما فاته، ويعيش في مواجهة نفسه، ويستعيد تفاصيل حياته السّابقة، يتصبب عرقًا، ويغرقه الإحساس بالخزي والعار، ويشم رائحة نفاقه تفوحُ من تفاصيل معاملاته اليوميَّة فيشمئز من نفسه، ويقلُّ احترامه لها.

بينما يشعر الزبير بالغبن، وبأنه لم يكن يستحق وجوده

في مناجـم الحنـين، وهـو يخشـى المـوت، ويرغـب في رؤيـةِ حفيدتـه لَلمـرّة الأخـيرة. ورغـم أن هـذا هـو يومـه الأخـير في التاسـوع، فإنَّـه لم يـرَ دغـلَ الحيـاة إلا في قدومـه الأوَّل، حتّـى ذَهـاب أحدهـم وقـدوم آخـر، لا يبعـده عـن المناجـم إلا بقـدر المشـاهدة مـن بعيـد. يوجعـه الحنـين والخـوف. ويظـل الـذي لا اسـم لـه مجهـولًا بالنسـبة إليهـم، بجلبابـه القاتـم اللـون، وعصـاه الخشـبيَّة العتيقـة ومشـيته البطيئـة وصمتِـه الدائـم.

بـدأ يـزدادُ بيـض طائـر التاسـوع ازديـادًا ملحوظًـا، كانـت هـذه هـي الإشـارة الأولى. انقبـض قلـب الخليـل وهـو يقـترب مـن جبـال المناجـم، يعلـم أن الخـوفَ الـذي يلتهـم الزبـير هـو علتـه أيضًـا. الفـرق بينهـما أن الزبـير سـيغادر الآن، عليـه مواجهـة خوفـه الأعظـم والرحيـل عـبرَ إحـدى الدائرتـين، حـين ينظـر إليـه يـرى مـا ينتظـره، مـا زالـت لديـه رغبـة يجاهـد في إنكارهـا، يمنـي نفسـه بالعـودة إلى هنـاك مـرّة أخـرى، ومعالجـة أخطائِـه التـي ظـل يتجاهلهـا عمـرًا كامـلًا.

وجـوده هنـا علَّمـه أن الصمـتَ ليـس نجـاةً، وأن هروبـه مـن خلافاتـه المتكـررة مـع زوجتـه صفيـة لـن يحلَّهـا، وأن مثـل ثريـة لـن تتكـرر في حياتـه، وأن وجودهـا هنـا، مثـل أن يمثـل ضمـيرك أمامـك فتتذكـر جميـعَ خطايـاك حـين تراهـا،

وتعض أصابع الندم بناجذيك كلما مرت من أمامك، عالمه السّابق كان أكثر رحمةً وهو يهيئ له طرقَ الفرار من مواجهة نفسه، وإقناعها بأنه لم يكن في الإمكان أفضلِ مما كان. ولكن مع أيام التّاسوع التّسعة، التي تنقص بعداد ثابت، مسلمة إياه إلى إحدى الدائرتين في رقعة السّماء، لا مفرَ من المواجهة والتّسليم بأخطاء لا يمكنُ تلافيها، والاعتراف بمدى خسّته ونذالتِه، والفرار من عيني ثرية وهما تقتلانه بلوم صامتٍ واحتقارٍ صارخ.

ساعده صالح في دفع الأوساخ إلى داخل الكهوف، ثم التفت إليه قائلًا:

- منذ دخولنا في اليوم الأخير له وهو يكاد لا يعمل، لا أنكر بأنّي حزين لأجله. لقد استطعت إخراج غبار الحنين في موعده بشقّ الأنفس، ولكن لو استمر الوضعُ على حاله، فإنّي لن أستطيعَ تجهيز كمية كافية من لبأ الحنين في نهاية اليوم.

أومأ الخليل برأسه متفهمًا، وسأله أين هو الآن. أشار إلى صخرة بجوار مدخل المنجم، وأخبره بأنه يجلس خلفها. عَبَرَ الخليل من أمام مدخل المنجم، توقف ناظرًا إلى ألسنةِ اللهب وهي تتراقص في قعره، وإلى الدخان الأخضر المتصاعد على جنباته المعتمة. شعر

للحظـة بأنّـه ينظـر إلى قعـر الجحيـم، خفـق قلبُـه فابتعـد ملوحًـا بيـده، محـاولًا إبعـاد دخـان الحَنـين عـن وجهـه. دار حـول الصخـرة، فوجـد الزبـير مسـتلقيًا هنـاك واضعًـا يـده عـلى وجهـه، قـال لـه الخليـل:

- لـولا علمـي بأنّـه ليـس هنـاك نـوم في التّاسـوع لظننتـك نائـمًا.

أبعـد الزبـير يديـه، فأطـل وجهُـه العابـس. نهـض مـن رقدتِـه، وهـو يعتـدل ببـطء، مسـندًا ظهـرَه إلى ذات الصخرة، فبـدا للخليـل هرمًـا كأن عمـره ازداد عـشرة أعـوام دفعـةً واحـدة. نظـر نحـو الخليـل قائـلًا:

- أبشعُ ما في التاسوع اثنان، يومُه الأخير، وعدمُ النوم.

تذكـر الخليـل يومـه الأوَّل هنـا، وهـو يجاهـد مـن أجـل النـوم دون أن يغمـض لـه جفـنٌ، ظـنَّ أنـه الأرق وعللـه بالتّغـير الكبـير الـذي حـدث لـه، وبقفـزه إلى عـالم جديـد. وقـد علِـمَ لاحقًـا ألا نـوم في هـذا العـالم. كان ذاك واحـدًا مـن ألاعيـب التّاسـوع التـي لا تنقـضي، فالنـوم هدنـةٌ بـينَ النفـس وهواجسـها، لكـن التاسـوع حـين يقتلـع منـك النَّـوم، يقحمـك في معركـة لا هـوادة فيهـا، في مواجهـة نفسِـك وماضيـك فتعيـش دهـرًا في دوامـةٍ ضيقـة بـلا أمـل، بانتظـار ميقـات سـفرك المعلـوم والمؤقـت عـبر إحـدى

الدائرتــين إلى المجهــول.

قطع عليه حبلَ أفكاره صوتُ الزبير وهو يقول بيأس:

- لم يكــن ســوى خطــأ واحــد، هــو مــن ألقــى بي في جبــالِ المناجــم.

تنــاول حصــاة وألقاهــا، فَهَــوتْ سريعًــا باتجــاه الهاويــة التــي تقــع خلــف الخليــل، ثــم أكمــل:

- لــولاه، لكنــتُ أقطــن الآن في منــزل السُّــحب، مطمئنًــا لمصــيري. كنــت أكثــرَ وزراء الدفــاع إخلاصًــا وتفانيًــا في خدمــة الوطــن، بــل أؤكــد لــك أنّنــي كنــت كذلــك منــذ كنت ضابطًــا صغــيرًا، أؤمــنُ أنَّ وســامَ الضابــط الحقيقــي هــو شرفُــه ونزاهتــه. وهكــذا سرتُ بــين النــاس، وترقيــت وأنــا متمســكٌ بمبادئــي، وعنــد مغــرب العمــر، كنــت قــد خلفــت ســيرةً مشرفــة لأبنائــي، ولكنــي لم أخلــف شــيئًا آخــر، حتــى المنــزل الــذي كنــا نقيــم فيــه، كان ملــكًا للحكومــة، فشــعرت بالخــوف. أدركُ أن أمثــالي غــيرُ مســموح لهــم بالخــوف، لكــن الأمــر لم يكــن بيــدي. خفــت مــن رحيــلي دونَ أن أتــركَ لهــم شــيئًا، وتلفــتُ حــولي فلــم أجــد أرضًــا ولا مــالًا مُدخــرًا. كنــت أملــك ســيرتي المشرّفــة فقــط.

يصــل صوتــه إلى الخليــل كأنّــه آتٍ مــن جــوف المنجــم حــين

رفع عينين مغرقتين بالعذاب وتابع:

– كانت صفقةَ أسلحةٍ مستوردة، غضضت النظرَ عن بعض الشّروط.

قطع حديثَه ونهض من مكانِه. ابتعد مقتربًا من الهاوية، وتبعه الخليل بخطوات متثاقلة دونَ أن يتفوه بكلمة. التفت نحوه مكملًا:

– لم أستطع الاستمرار بعدَها في عملي، ما حدث أقوى من قدرتي على الاحتمال. استقلت وأحلت إلي المعاش. نسيني النّاس ولكنني لم أنسَ. ظل ما حدث يؤرقني، بل إنّني كدتُ في وقت من الأوقات، أسلّمُ نفسي وأقرّ بما فعلت رغم علمي بالمصير الذي ينتظرني، ولكني جبنت. نظرت لزوجتي وأبنائي وعلمت ألا قدرة لهم على احتمال قرار كهذا وهم يرونني مثالًا وقدوة. عشت منافقًا يحاكمني ضميري أثناءَ الليل وأطرافَ النهار، حتّى وجدت نفسي هنا في هذا التاسوع اللّعين، أدفع ثمنَ خطأ واحد آلاف المرات، ويا ليتني ارتحت بعد كلّ هذا، حتّى عذاب التاسوع لم يخلصني من زعيق ضميري. يعيدني لبأ الحنين إلى وقت توقيعي عقد الصفقة، يريني كم كنت مترددًا وخائفًا وأرغب ألّا أفعل، ولكنني فعلت. كلما أعادني لبأ الحنين إلى

هنـاك، أتمنـى ألَّا أوقـع. يتفنـن لبـأ الحنـين هـذا في تعذيبـي، يعيـدني عـشرات المـرّات إلى هنـاك فأعـود مجرّد خرقـة باليـة، ليلقـي بي في منجـم التاسـوع هنيهـةً قصـيرة ثـم يعيـدني تـارة أخـرى، وفـوق كلّ هـذا أحـنُّ إلى حفيـدتي الوحيـدة، أتمنـى أن أضمَّهـا ضمَّـةً أخـيرة قبـلَ أن أمـوت، هـذا إذا كنـت حيًّـا الآن ولم أمـت بعـد.

كلٌّ يعيـش تاسـوعَه الخـاصّ، إذ يشـيد التاسـوع جحيـمًا لـكل مقيـم فيـه ممـا يعتمـل في سريرتـه، كـما قـال الطاهـر، يصهـر خوفَـه وقلقـه وأخطـاءَه ثـمّ يصبهـا حولـه قضبـان لا فـكاك منهـا ولا نجـاة. قـد يكـون التاسـوع فنانًـا عبقريًّـا، ولكنـه فنـان مختـل، يجيـد لعبتـه جيّـدًا، ونحـن مجـرد دمـىً في صنـدوق ألعابـه، لا نملـك مـن أمرنـا شـيئًا، نسـير معصـوبي الأعـين، مسـلوبي الإرادةِ، مستسـلمين لقضبـان صنعناهـا بذكرياتنـا بانتظـار اليـوم التاسـع.

ابتعـد الخليـل حامـلًا جاروفَـه ومكنسـته، قافـلًا إلى وسـط التاسـوع، وهـو هابـط مـن أعـلى. يـرى مـن تحتـه العـالم مثـلَ منـزل صغـير بحـدود معروفـة، كل يـؤدي فيـه دورَه المعلـوم، حتـى طيـوره وأشـجاره وثعالبـه الخجولـة لهـا أدوار تؤديهـا، وبعدهـا سـيغادر الجميـعُ إلى غـير رجعـة، يطويهـم التاسـوع في قائمـة النسـيان، كـما نسـيهم عالمهـم الأوّل. ومَـنْ يـدرِ ماذا سـيحدث بعـد ذلـك، فقـد تسـلمهم إحـدى الدائرتـين إلى

المـوت، وإلى عـالم جديـد، بـشروط وقوانـين مختلفـة، ولكنـه طريـق في اتجـاهٍ واحـد، لا يملكـون تغيـيره أو الحيـاد عنـه.

يختـم التاسـوع يومـه بدقـة، حيـث بـدأ بـراز الثعالـب، وبيـض طائـر التاسـوع، وأوراق شـجرة الحيـاة بالازديـادِ بشـكل ملحـوظ، وأضحـى الخليـل مجرّد آلـة تجمعهـا لتدفـع بهـا إلى كهـوف الجبـال، بينـما يتضجّـر صالـح مـن ثقـل العمـلِ عليـه. لكـن سـاعة التاسـوع تتقـدم بخطـى حثيثـة نحـوَ نهايـة اليـوم غـير مباليـة. لم يلبثـوا إلا قليـلًا، حتـى أخـذت طيـور التاسـوع تحـط رحالهـا حـول المناجـم وبـين الصخـور وفي مداخـل الكهـوف، وتحلـق حـول الهاويـة، وتخفـق أجنحتهـا عنـدَ سـفوح جبـال المناجم.ظهـرت الثعالـب أيضـاً مختبئـة خلـفَ الصخـور، يظهـر جانـب مـن وجههـا وعـين واحـدة، وطـرف ذيلهـا الـذي يسـتعص عـلى الاختباء،تجمـع الثمانيـة مثـل حبـاتِ المطـر. وقفـت ماريَّـة وثريـة متجاورتـين، وأتـى الطاهـر برفقـة الخليـل. وقـف صالـح عنـد مدخـلِ المنجـم بعـينٍ دامعـة، وبجـواره الـسّر والقاطـرة تربـض قربهـا. يجاهـد ربيـع في القفـز مـن حولهـم، رغـم أنّ الصخـور المتناثـرة تعيـقُ حركتـه، لكنـه اسـتمر في القفـز عـلى أيّـة حـال. ثـم ظهـر الـذي لا اسـم لـه مـن خلـف جبـال المناجـم، وعـبر أمـام كهـوف الحنـين، تبعتـه طيـورُ التاسـوع، متجمعـة مـن خلفـه. أتـى الزبـير وكأنّـه

محكـوم بالإعـدام، تنـاول الـذي لا اسـم لـه يـده، قـاوم الزبـير صارخًـا بأنـه لا يرغـب في المـوت، ولكنـه لم يبـالِ بـه وهـو يقبـض عـلى كفـه بقـوة غريبـة، ربـما زرعهـا التّاسـوع في جسـده. كانـت قدمـا الزبـير ثقيلتـين، ولكـن الـذي لا اسم لـه، كان يقـوده بسـهولة ويـسر. تحـرك الموكـب البطـيء قاطعًـا التاسـوعَ.

يخـترق عويـل الزبـير قلوبهـم، ونعيـق طيـور التاسـوع مضطربًـا، في حـين تعـالى نبـاح الثعالـب الخجولـة، وهـي تتراكـض بـين الصخـور والآكام محاذيـة للموكـب الحزيـن، وحـين انتهـوا إلى دغـل الحيـاة، التفـت الزبـير مسـتغيثًا بهـم، شـهقت ثريـة بفـزع واضعـة يديهـا عـلى فمهـا، بينـما غـرق الـذي لا اسـم لـه في صلواتـه التـي يجهلونَهـا، متوسـلًا، وعصـاه ملقـاة بجانبـه، ترتجـف يـداه المضمومتـان أعـلى رأسـه بقـوة. تقلصـت الدائـرة المضيئـة، وبـرزت الدائـرة المظلمـة بلهبهـا الأحمـر، فاسـتحال التاسـوع، عالمًـا مخيفًـا، غارقًـا في الغمـوض. ارتفـع عويـلُ الثعالـب، وزاد نعيـق طيـور التاسـوع، وثرية تشـهق في وسـطهم غارقـة في دموعها. انطلقـت صرخـة عظيمـة مـن حلـق الزبـير، ثـم ارتفـع ببطءٍ، وتبعتـه طيـور التاسـوع خافقـة بأجنحتهـا. وسَرعـان مـا ابتلعـت الدائـرة المظلمـة الموكـب الحزيـن، وازداد وميـضُ لهبهـا الأحمـر للحظـة ثـم عـادت إلى نبضِهـا المعتـاد. كانـوا

ينظـرون خائفـين وقـد لفّهـم الصمـت، إلا مـن نحيـب ثريـة الخافـت، وصمـت التاسـوع وضغـاء ثعالبـه الخجولـة.

اليوم الثامن

انتـشر قـشرُ بيـض طائـر التاسـوع بعـد أن خرجـتْ منـه المئـاتُ مـن الفـروخ الصغيرة.تابـع الجميـع المشـهدَ بقلـوب منقبضة،فصغـار طائـر التاسـوع تذكرهـم بدنـو مصيرهـم، وبـأنَّ الوقـتَ ينقـضي بسرعـة، وسـيحلُّ دورهـم واحـدًا تلـو الآخـر، إلى مجهـول لا يدركـونَ مـا ينتظرهـم خلفَـه. نفضـت صغـار الطيـور أجنحتهـا الصغـيرة، وفتحـت عيونهـا المغلقة، وتلفتـت حولهـا بحـيرة باديـة، وسِرعـان مـا ركضـت نحـو دغـل الحيـاة، تتبعهـا الثعالـب بزمجرتهـا الخافتـة، ثـم عـاد المـكان خاليًـا إلا مـن قشـورِ بيـض التاسـوع، وقفـزاتِ ربيـع الخاملـة. تفرقـوا ببـطء وشرعـا لخليـل في كنسَ قشـور البيـضِ، يكنـس وكأنـه اسـتنفد طاقتـه جميعًـا. واجـهَ الزبـير الآن مصـيره المحتـوم، تمنـى صادقًـا أن يجـد بعـض الراحـة في ذَهابـه الأخـير. لم يكـن الخليـل يهتـم لعدالـة التاسـوع، ولكنـه ينظـر بعـين الشّـفقة، أيًّـا كان مـا فعلـه الزبـير، فقـد دفـع ثمنـه كامـلًا.

يقولـون في التاسـوع إنّ اليـوم بعـشرة أعـوام مـن عالِمهـم السّـابق.إن كان هـذا الافـتراض صحيحًـا، فقـد عـاش

الزبير تسعين عامًا من الخوف والقلق، ووخز الضمير، ومعاشرة غبار الحنين ولبأه، والصبر على نار المناجم وحرارتها. لو لم يكن هذا ثمنًا كافيًا لخطئه الوحيد، مهما كان كبيرًا، فما الثمنُ الذي ينبغي دفعه حتى تتعادل الكفتان؟ دفع القشر أمامه نحو الجبال، رفع نظره باحثًا عن نار المناجم، كانت خافتة، تظهر متقطعة في سماء التاسوع. عاد إلى الانهماك في عمله، قبل أن يقاطعه صالح، قائلًا بقلق:

- لا أستطيع أن أعدّ كمية كافية من لبأ الحنين كي تغطي التاسوع كالمعتاد.

أكمل متأسفّاً:

- أعمل وحدي بلا مساعدة.

ردَّ عليه الخليل دونَ أن يتوقف عن دفع القشور بمكنسته وجمعها بجاروفه قائلًا:

- ليس مهمتك أن تعدّ ما يكفي، بل ما تقدر عليه. التاسوع لا يعطينا أجرًا على عملِنا.

- أخشى العواقب.

ضحك الخليل ساخراً:

- عن أيّة عواقب تتحدث، نحن في قاع الجحيم بالفعل، يا رجل.

هزَّ صالح كتفيه حائراً، وساعد الخليل في إدخال قشور البيض إلى كهوف الحنين، ثم انصرف نحو المنجم متعللًا بكثرة ما ينتظره من عمل.

انتبه الخليل إلى المفارقة الزمنيَّة. لو أن يومًا في التاسوع يعادل عشرة أعوام من العالم الأرضي، فإنه قد ظل يفرّ من أمام ثرية ويتجنب لقاءها لعقد من الزمان. طوال يومها الأوَّل في التاسوع لم يتقاطع طريقهما سوى مرتين أو ثلاث. كانت تلازم ماريَّة، أو تظل قابعة في منزلها بين سحب التاسوع، ولا تذهب جهة جبال المناجم حيث يجمع هو قمامةَ التاسوع هناك، بينما ظلَّ هو يجوب التاسوع من أقصاه إلى أقصاه، ولكنه أدرك تجنبها لقاءه. ركن لذلك السّلام الهش بينهما، وأضحى يتجنب أماكن وجودها قدر الإمكان، ويمضي معظم وقته في التنظيف والحديث مع الطاهر وربيع، وعند جبال المناجم رفقة السّر وصالح والزبير الذي غادر الآن إلى غير رجعة.

لم يمض وقتٌ طويل قبلَ أن يرتفع هدير قاطرة الحنين في سماء التاسوع. وزع السر لبأ الحنين بمشقة عظيمة، محاولًا تغطية التاسوع، ولكن حمولته انتهت قبل أن

يغطـي نصـفَ المسـاحة المطلوبـة. كان لـون اللبـأ باهتًـا، ورائحتـه أقـلَّ حـدة، متقطعًـا غـير موصـول، ومـن ينتبـه جيّـدًا قـد يقطـع التاسـوع مـن دغـل الحيـاة إلى جبـالِ المناجـم، دون أن يطـأه بقدميـه. مـا يحـدث كان غريبًاوغـير معتادٍ.وبـما أنّ التاسـوعَ دقيـق مثـل شـاويش محطـة القطـار، بـدأ يـوم التاسـوع عاديًّـا. لم يتسـلل لبـأ الحنـين إلى دمائهـم، ويسـافر بهـم إلى الأوقـات التـي يهربـون منهـا في جحيمهـم الأرضي. مـن المعتـاد في مثـلِ هـذه المواقـف، أن يشـعروا بسـعادةِ الناجـي مـن الغـرق، ولكـن بـدلًا مـن ذلـك كان يعمّهـم القلـق والتّرقـب.

قال الطاهر بإصرار:

- التاسوع لا يغير ناموسه أبدًا.

اكتفـى الخليـل بالصمـت، لم يعـد يحتـاجُ إلى لبـأ الحنـين منـذ قـدوم ثريـة إلى هنـا، فهـي تعيـده في اليـوم عـشرات المـرّات إلى حياتـه السّـابقة، وتذكـره تفاصيلهـما الصغـيرة التـي ظـنّ أنهـا تاهـتْ في غياهـب النسـيان، الحديـث الهامـس بينهـما في المكتـب، محادثـات الهاتـف الليليـة، الوعـود التـي قطعاهـا لبعضهـما، عـلى أنَّهـما لـن يفترقـا أبـدًا، خوفهـا عـلى حزنِـه إذا فرقتهـما الدنيـا، شـفقتها عـلى زوجتـه وابنتِـه الوحيـدة، اهتمامهـا بمناسـباته الخاصّـة، عيـد ميـلاده، عيـد ملاقاتهـما

للمـرّة الأولى، عيـد اعترافهـما بالحـبّ، الآمـال العريضـة التـي شـيداها معًـا، وحلمهـما بالغـد، وعلمـه بـأنَّ كل هـذا كان مسـتحيلًا، ولكنـه مـضى في طريـق يعلـم نهايتـه جيّـدًا. كان يحلـم للمـرّة الأولى في حياتـه، يـدق قلبـه كمراهـق صغـير، ويصـاب بلوعـة الشّـوق، ويعشـق ضحكتهـا المنطلقـة البريئـة، وعينيهـا اللامعتـين، وملامحهـا الطفوليَّـة. تذكـر مقاومتهـا في أوّل الأمـر، وإصرارهـا عـلى عـدم منطقيّـة أن تنشـأَ بينهـما علاقـة، وعـن موقفهـا المبدئـي مـن رجـل متـزوج. كان الحـوار بينهـما أقـرب إلى حديـث العشـق، وظـلَّ يلـحُّ عليهـا، حتـى استسـلمت، ونهـلا معًـا مـن كـؤوس الحـب حـدّ الثمالـة، وحـين سـألته للمـرّة الأولى عـن الخطـوة القادمـة عللهـا بالصـبر، فصمتـتْ، وكذلـك في المرتـين الثانيـة والثالثـة، وعندهـا أدركـت أنَّـه لـن يتقـدمَ خطـوة أخـرى، وأنـه يكتفـي منهـا بحديـث الحـب ومحادثـات الليـل. غضبـتْ وثـارت وابتعـدت، لكنّهـا سُرعـان مـا عـادت مـرّة أخـرى. وتكـرر ذلـك كثـيرًا، تغضـب وتنـأى ثـم تعـود وتدنـو، ولكـن بـين كلِّ ذَهـاب وعـودة، كان هنـاك شيء يذهـب ولا يعـود، يمـوت ولا يحيـا، وكانـت المواجهـة قادمـةً لا ريـبَ فيهـا.

قطـع عليـه حبـلَ أفـكاره قـدوم الـسّر، في واحـدة مـن الحـالاتِ النّـادرة، التـي لا يُـرى فيهـا يقـودُ قاطرتـه، جلس

بالقــرب مــن الطاهــر، والتفــت نحوهمــا قائــلًا:

- لم يعد هناك المزيد من لبأ الحنين لنشرِه.

أومأَ الطاهر برأسه وقال في حَيرة:

- تُرى، ما الذي يخبئه لنا التاسوع بفعلتِهِ هذه؟

ردَّ عليه الخليل بنبرة مستهجنة:

- مـا زلـتَ تظـنُّ أن للتاسـوع عقـلًا، كل هـذا فعـل عبثـي صنعـه تتابـع الأحـداث ليـس إلّا. لم يكـن الزبـير يسـاعد صالحـاً في العمـل، وهـذا مـا أدّى إلى نقـص الكميـة المطلوبـة مـن لبـأ الحنـين، لا شيءَ آخـر ممـا يـدور في رأسـك.

لوَّح الطاهر بيده بإصرار قائلًا:

- لا شيءَ يحـدث في التاسـوع بشـكل عبثـي، هـذا حـدث لـه مـا بعـده.

قال السّر بنبرة سعيدة:

- هذه المرّة الأولى التي أكون فيها بلا عملٍ في التاسوع!

أكمل ضاحكًا:

- بـل ربـما في العالَـين معًـا، أظـنّ أن مَـا حـدثَ أمـرٌ جيِّـد أيًّـا كانـت عواقبـه.

لفّهـم الصمـت كتاسـوعهم بغموضِـه العجيـب. تلمـعُ أعـين الثعالـب الواسـعة مـن خلـف الآكام، قـرأ الخليـل الحَـيرة فيهـا، رآهـا في اضطـراب حركتهـا، ونباحهـا الـذي يتحـول إلى عويـل بـين الفينـة والأخرى. تصلـه زمجرتهـا واضحـة كتحذيـرٍ مـن خطـر محـدق، التفـت ناظـرًا نحـوَ الدغـل، ظهـرت أشـجار الحيـاة أكثـر ضخامـة، حتـى تـكاد تصـلُ إلى قبـة السـماء. شـعر الخليـل بأنهـا أكثـر عـددًا، ولـولا أنـه متأكّـد مـن خطـل رؤيتـه، لـصرح لهـما بأنه يـرى شـجر الحياة يسـير بخطـى بطيئـة، طاويًـا التاسـوع تحتـه. طمـأن نفسـه بـأن مـا يـراه لا يتعـدى خيـال قلـقٍ مـن حديـث الطاهـر الـذي يجـد صـدى في نفسـه. التاسـوع يتغـيرُ، مـا حـدث اليـوم كان تغيـيرًا هائـلًا، ولكنـه لم يبـدأ الآن، بـل بـدأ منـذ قـدوم ثريـة في بدايـة اليـوم السّـابق، وإقـراره بأنـه مـا يـزال يحبهـا، في عـالم ينكـر وجـود الحـب وتأثـيره. لاحـظ وقتهـا أنّ طيـور التاسـوع تنمـو بسرعـة أكـبر، وتبيـض بوقـت أبكـر مـن المعتاد. كـما أنّـه لحـظ منـذ اليـوم السّـابق محاولـة انتحـار الزبـير وردّ فعـل التاسـوع العنيـف، كأنّ صـبره قـد نفـذ ولم يعـد قـادراً عـلى التحمـل. التّغيـير في عـالم مثـل التاسـوع لا يعـدُّ أمـرًا نـادرًا بـل مسـتحيلًا. التاريـخ المحكـيُّ الـذي ورثـوه ممـن سـبقوهم إلى هنـا، يحكـي عـن تاسـوع دقيـقٍ وصـارم، كل شيء يحـدث بمقـدار دقيـق، ووقـت معلـومٍ.

حـين يفكـر الخليـل في التاريـخ، فهـو يتحـدث عـن عـشرات الأيـام التاسـوعيَّة، المكـررة والمتشـابهة، ولأن النـاسَ هنـا لا تملـك شـيئًا غـير الحكايـات، فالقليـل منهـا يتدحـرج مـن الذاكـرة الجمعيـة، يـصرون عـلى التشبثِ بالحيـاة خشـيةَ أن يكونـوا قـد فقدوهـا، فينحتـون الأحـداثَ عـلى جـدار ذاكرتهـم، ويمجدونهـا بالحكايـات، بـل إن بعضَهـا قـد يمتـد إلى مائتـين أو ثلاثمائـةِ عـامٍ أرضيّ، ولكـن ذاكـرة التاسـوع لم تلفظهـم، ومـا زالـتْ حكاياتهـم تحكـى وتعـاد، طـوالَ هـذا التاريـخ الطويـل، ذهـب أنـاسٌ وأتـى آخـرون، وازدانـت الذاكـرة الجمعيـة بحكايـات جديـدة، ولكـن التاسـوع لم يتغـير، كان راسـخًا في تقاليـده، متشـددًا في قوانينـه، أما الآن، فهنـاك شيءٌ يحـدث. نظـر الخليـل نحـو لبـأ التاسـوع الـذي بـدأ بالجفـاف بشـكل سريـع ومتقطـع، مثـل أثـر وشـمٍ قديـم عـلى الوجـه. خفـق قلبـه بقلـق، تنهـد، ثـم تنـاول جاروفـه ومكنسـته وشرع في العمـل بقلـب مثقـل وجسـد منهـك. نظـرت ثريـة بعينـين دامعتـين إلى ماريَّـة قائلـة:

- مـن الـذي حكـمَ علينـا بالوجـود هنـا؟ ولمـاذا ننتظـر باستسـلام يومنـا التّاسـع؟ وأيّ نهايـة بشـعة تنتظرنـا؟

- لا أحـد يعلـم لمَ نحـن هنـا ولا الحكمـة مـن وجودِنـا، ولا حتّـى طريـق الرجـوع إلى عالمنـا الأوّل إن كنـا سـنعود فعـلًا، كأننـا كنـا في غفـوة واسـتيقظنا هنـا. ينتابنـي أحيانًـا إحسـاس

بـأن مـا يحـدث مجـرد كابـوس طويـل ممتـدّ، وسأسـتيقظ منـه فأجـد زينـة في حضنـي فيغمـرني الإحسـاسُ براحـة مؤقتـة، سَرعـان مـا تتبـدد مـن وخـز الأشـواك ورتابـةِ العمـل. هـذا التاسـوع حقيقـيّ، مثـلي ومثلـك، ولا سـبيل لتغيـير مصيرنـا المنتظـر. يجتاحنـي الخـوف مثلـك ممّـا رأيتـه عنـد رحيـلِ الزبـير، ولكـن صدقينـي الأمـرُ ليـس كذلـك دائـمًا، في يومـي الأوّل شـهدت رحيـل الشـيخ جابـر، كان رحيـلًا مهيبًـا، وغمـرني بالطمأنينـةِ والأمـان، ولكـن مـا حـدث بالأمـس كان مخيفًـا، لـذا لا يدهشـني فزعـك، فأنـا لا أقـلّ عنـك، ولم أعتـد سـاعةَ الرحيـل بعـد.

امتقع وجه ثرية وهي تشيرُ إلى الدغل وقالت برعب:

- هـل رأيـتِ مـا حـدث الآن؟ لقـد هجـم الثعلـب عـلى فـرخ التاسـوع الصغـير والتهمـه!

هزّت ماريَّة رأسها نافية:

- الثعالـبُ الخجولـة لا تهاجـم طائـر التاسـوع مطلقًـا، ثـم مـا الغـرض مـن مهاجمتـه وهـي لا تـأكل أصـلًا؟

ردّت ثرية قائلة:

- لا يهمنـي لَمـاذا هاجمـه، ولكـن هـذا الثعلـب الـذي يختبـئ خلـف تلـك الشـجرة قـد افـترس فرخًـا للتـوّ.

يتراقص ذيل الثعلب الضخم ظاهرًا من خلف ساقِ الشجرة، اقترب الاثنان بحذر، وما إن شعرَ بهما الثعلب حتى عدا مبتعدًا عنهما ومتوغلًا داخل الدغل. دارت الاثنتان حول الشجرة، امتقع وجهُ ماريَّة وهي ترى بعض الزغب المتطاير حول المكان لفرخ التاسوع. وضعت يدها على فمها، وركضت مبتعدة عن المكان تتبعها ثرية. وصلتا بأنفاس مقطوعة إلى حيث الخليل والطاهر والسّر وربيع، قالت ماريَّة بصوت لاهث مشيرة نحو الدغل:

- لقد التهم أحدُ الثعالب فرخًا قبلَ قليل.

نهضوا من جلستهم فزعين، قال الطاهر منزعجًا:

- هل رأيته يفعل ذلك؟

هزّت رأسها نافية ولكنها قالت مدافعة:

- رأته ثرية، ونحن معًا رأينا الزغب المتبقي من الفرخ.

اندفعوا باتجاه الدغل، أشارت ماريَّة إلى الشجرة المعنيّة، جثا السّر على الأرض، وتناول نتف من الزّغب الناعم، وحين دقّقَ النظر حوله، أبصر قطرات متناثرة من الدم في المكان. تلفتوا حولهم خائفين مترقبين، إذ كان المقيمون هنا يخشون عادة ما بعدَ التاسوع، أما بعد أن افترس

الثعلب فرخًا، فقد أضحى التاسوع نفسُه مخيفًا.

جلسوا في حلقة دائريّة، ينظر بعضهم إلى دغل الحياة، في حين أعطى بعضُهم الآخر ظهرَه. تبحث نظراتهم القلقة عن الاطمئنان في أعين الآخرين، وشفاههم مطبقة لكن الكثير من الأسئلة تقبع خلفها. حين ينظرون إلى التاسوع، يرون الغيوم الفسفوريّة ذاتها والتي لا تهطل أبدًا، وأشجار الحياة بحرابِها المشهرة، وأزهار الشّجيرات الحمراء اليانعة، ومنازلهم القابعة بينَ الهضاب والآكام، ويسمعون ضباح الثعالب الخجولة القادم من جوف الدّغل. يبدو كل شيء معتادًا، ولم يتغير، ولكن عين الخوف جعلت من التاسوع عالمًا غامضًا، غيرَ مألوف بالنسبة إليهم، وحشًا يهم بافتراسهم، لا يأمنون جانبه. حين نظر الخليل إلى الدائرة المظلمة وسطَ حلقتها الملتهبة، خيّل إليه كأنها تبتسم، أغمض عينيه وفتحهما مرّة أخرى، فوجدها عادت إلى ذات وميضِها المعتاد. شعر بالبرد والوحدة، رغم وجوده في وسطهم، نظر إلى ثرية التي كانت ملامحُها تنطق بالخوف والحَيرة، خفق قلبُه، تمنّى لو يستطيع أن يطمئنها، أن يقول لها إنّ كلَّ هذا سيمضي، وأنه سيقف بجوارها ويحميها، ولكنه يعلم أنه آخرُ من ترغب في وجوده بجانبها.

قال الطاهر متوجساً:

- لم يأتِ القادمُ الجديد بعدُ، ألم يتأخر عن موعدهِ المعتاد؟

شعروا بالأرض تميد من تحت أقدامهم، يفتح دغل الحياة فاهه مشهراً أسناناً كالحراب لابتلاعهم. تقهقه دائرةُ الظلام، تعوي الرياح وهي تتخلل جبال المناجم. طائر التاسوع جاسوسٌ، والثعالب الخجولة لم تعد خجولة، والزهورُ زائفة، والسماء تكادُ تطبق عليهم، مَن هم؟ وما التاسوعُ؟ وما الذي يحدثُ؟ ولم؟ وأيّ مصير ينتظرهم؟

اجتاحهم الخوف، دنوا من بعضِهم بعضاً، أمسك السّر بكتف الخليل، لم يعد التاسوع هو التاسوع، لم تتغير قوانينه فقط، ولكن ثعالبه أضحت تفترس طيوره، والقادمون لا يأتون!

- ماذا يعنِي هذا؟

قالت ماريَّة بصوتٍ مضطرب وهي تتلفت حولها خائفة، ردَّ الخليل سريعًا:

- كلُّ الاحتمالات أضحت ممكنةً، التاسوع يتغير ولكن لا أحدَ يعلم إلى أين يتجه، هل سيكون خيرًا أم شرًا علينا؟ هذا يومي الثامن هنا، يمكنني أن أجزم لك أن كلّ ما حدثَ اليوم وما سيحدثُ لاحقًا، سيكون تاريخًا

جديـدًا يـؤرخ للتاسـوع، هـذا إن بقـيَ التاسـوع.

قفلـوا راجعـين بعيـدًا عـن دغـل الحيـاة، اتجهـت ثريَّـة إلى منزلِهـا أعـلى الهضبـة، جلـس ربيـع والـسّر رفقـة الطاهـر والخليـل، في منتصـف التاسـوع بالقـرب مـن منـزل الخليـل، في حـين عـادت ماريَّـة لاقتـلاع الأشـواك مـن شـجيرةِ الحيـاة.

قال الخليل متفكرًا:

- هل هذا من تأثير غياب لِبأ الحنين؟

ردَّ الطاهر:

- أتعنـي توحـش الثعالـب وهجومهـا عـلى فـراخ التاسـوع؟ ربـما تكـون حالـة واحـدة ولـن تتكـرر.

هزَّ الخليل رأسه نافيًا:

- بـل كلّ مـا يحـدث الآن، تأخـر القـادم الجديـد، توحـش الثعالـب، حبّـي الـذي مـا زال حيًّـا لثريـة، ثـم أشـار نحـو ربيـع والـسّر مكمـلًا:

- ربيـع لم يعـد يتشـقلب ويـمارس ألعابـه البهلوانيّـة، والـسّر يسـتمتع بإجازتـه غـير المتوقعـة، حتّـى أنـا أشـعرُ بثقـل غريـب، ولا أرغـب في كنـس التاسـوع كالمعتـاد.

- ولكنّـك أكـدت حبـك لثريـة قبـلَ مشـكلة نقـص لبـأ الحنـين.

هز الخليل كتفيه وقال:

- نعـم، وكذلـك قسـوةُ التّاسـوع مـع الزبـير كانـت قبـلَ لبـأ ا لحنين .

- لا أحـد يسـتطيعُ أن يجـزم بـما يحـدث ولمَ يحـدث، ولكـن لـو كان هنـاك شيء يعيـق دورة التاسـوع المعتـادة فعلينـا معرفتهـا.

- وماذا بعد معرفتها؟

ظهرت الحَيرة على الطاهر ولكنّه ردَّ قائلًا:

- ينبغـي للتاسـوع أن يسـتمرَّ في دورتـه، لا قـدرة لنـا عـلى مواجهـةِ التّغيـيرات غـير المتوقعـة.

ظهر الامتعاضُ على وجه الخليل وقال مستهجناً:

- تحتـاجُ إلى أن تكنـس التاسـوع مـن أوَّلِـه إلى آخـره كـي تعلـمَ أن الانعتـاق مـن هـذا الفعـل هـو خـيرُ مـا حـدث لي في التاسـوع.

اتسعت عينا الطاهر وقال مندهشاً:

- هل تقصد أنّك تملك قرارَك الآن؟

- نعـم، وكأني اسـتيقظت مـن غيبوبـةٍ طويلـة، ليـس هنـاك مـا يجـبرني عـلى هـذا العمـل الشّـاق، لا شيءَ عـلى الإطـلاق.

علق ربيع قائلًا:

- كذلـك أنـا لسـتُ مضطـرًا إلى الشّـقلبة طـوال النهـار، سـأكتفي بالثرثـرةِ مـن الآن فصاعـدًا.

قاطعه السّر بصوت قلق قائلًا:

- ثمّةَ شيءٌ غريب يحدث.

التفتوا نحوه جميعًا، وضع يدَه على بطنه وقال حائراً:

- أنا أشعرُ بالجوع.

لـو أن قنبلـةً انفجـرت في وسـطهم مـا كان لهـا ذات تأثـير الجملـة التـي قالهـا الـسّر!

- تشعر بالجوع؟

صرخ الطاهـر بدهشـة. أومـأ الـسّر دون أن يتفـوه بكلمـة، ولكـن ربيـع قـال بصـوتٍ مـتردد:

- وأنا أيضاً أشعر ببعض العطش.

لطمَ الطاهر على وجهه هاتفًا:

- يـا ربَّ التاسـوع! يـا ربَّ التاسـوع! تـرى مـاذا تغـيّر

أيضًا؟ وما الذي ينتظرُنا بعد ذلك؟

قطع عليهم حديثهم صرخةٌ طويلة أتت من جهة ماريَّة، ركضوا اتجاه الصرخة، متجاوزين بعضَ الشجيرات القصيرة، وداروا حول هضبةٍ صغيرة، وجدوها ساقطة على الأرض، عندما رأتهم أشارت إلى أكمة بالقرب منها، رأوا أربعةَ ثعالب تعدو مبتعدة.

قالت بصوتٍ لاهث:

- كنت منغمسةً في عملي حين أتوا، يتقاتلون على فرخ صغير بينهم، وحين انتبهوا لي توقفوا عن العدو، ووقفوا ينظرون نحوي بثبات.

قال الخليل:

- لم يختبئوا خلفَ إحدى الشجيرات؟

هزّت رأسها نافية وأكملت:

- بل إن أحدَهم تقدم نحوي خطوة، أقسم أنه كان يهم بمهاجمتي، ولكن حين صرخت تراجع، وحين شعروا بقدومكم؛ ركضوا مبتعدين.

اتجه السّر نحوَ المكان الذي كانت فيه الثعالب، عادَ يحمل بقايا فَرخ بين يديه، ألقاه وسطهم، لفّهم الصمت

برهة من الزمن، قبل أن يقول الطاهر بلهجة حاسمة:

- لم يعد التاسوع آمنًا، ينبغي أن يأخذَ الكل حذرَه من الآن فصاعدًا.

نهضت ماريَّة من جلستها، ووقفت في وسطهم، شملتهم بنظرة امتنانٍ. تعلم أنّها كانت بعيدة عنهم لوقت طويل، تعيشُ عزلتها، وتناجي شجيرات الحياة، وتنتظر ميعادَ رحيلها باستسلام، ولكن حينَ احتاجت إليهم كانوا بجوارها، ولما استغاثت هبوا لنجدتها. لم يكن هذا معتادًا بالنسبة إليها، ما علمته إياها الحياة أن لكلّ شيء ثمنًا. نظرت نحو دغل الحياة، حيثُ تختبئ الثعالب، تمامًا مثل ما كانت في عالمِها الأرضي، يجيدون الاختباءَ بوجوه توحي بالطمأنينة، ولكن حين هوى نجمها؛ استبانَ خبثُهم وجبنهم، وتركوها تواجه محنتها وحيدةً. فقدت زينة وفقدت عملها، اختبأوا في دغل حياتِهم المغرقة في الأنانيّةِ والنكران. الثعالب هي الثعالبُ في جميع العوالم، ولكن الإنسان قدْ يختلف.

مشت في وسطهم، يتقدمهم الخليل والسّر، وربيع خلفها والطاهر في المؤخرة، قالَ بصوت متردد:

- إن توحشت الثعالب حقًّا فلن تكفيها لحوم الطيور، خاصّة وأنَّ صغار طيور التاسوع ستنمو أجنحتها

ويصعــب اصطيادهــا بعــد زمــنٍ قصــير.

توقف الخليل والتفت نحوه قائلًا:

- ما تقوله مخيفٌ.

مطَّ الطاهر شفتيه قبلَ أن يردّ عليه:

- مــا حــدث لماريَّــة كان تنبيهًــا، عرفــت الثعالــب الجــوعَ، فافترســت طيــور التاســوع، وبعــد قليــل لا بــدَّ أن تبحــثَ عــن فرائــسَ أكثــر لحــمًا كــي تســدَّ جوعهــا.

قالت ماريَّة خائفة:

- ما الذي علينا فعله الآن؟

وضـع الطاهـر سـبابته أمـامَ وجهـه وكأنـه غـارق في التفكير، وصمـتَ للحظـة ثـم قال:

- يجبُ أن يعود التاسوع تاسوعًا.

قاطعه الخليل بصبر نافد:

- لا تفتأ تعيدُ هذا الكلام.

- نعــم، القضيــة ليســت توحــشَ الثعالــب فقــط، ولكــن هنــاك قضيــة أخــرى مهمّــة، شــغلنا عنهــا مــا حــدث لثريــة.

صمت وهو يعمّهم بنظره ثم أكمل:

- يشعر السّر بالجوع.

أكّد السر قائلًا:

- نعم، أنا أشعر بالجوع فعلًا.

أومأ الطاهر برأسه ثم قالَ:

- كذلك يشعر ربيع بالعطش، وليس لدينا طعامٌ أو ماء في التاسوع، الحياة هنا ممكنة، لأننا بلا غرائزَ، ولكن وجودها يجعل الحياة مستحيلة.

نزل كلامه كالصاعقة على رؤوسهم، لمس السّر بطنه، وبحث ربيع عن ريقه للمرّة الأولى منذ قدومه للتاسوع، ولكن حلقه كان جافًا. تتكشف أمام أعينهم تبعات ما يحدث كاملًا، اجتاحهم القلق والخوف، وسادَ الصمت بينهم للحظة، قبل أن يقول ربيع بصوت متردد:

- وكيف تريدنا أن نعيد التاسوع إلى وضعِه الأوّل؟

لوَّح الطاهر بسبابته كأنه معلمٌ في مدرسة قائلًا:

- هناك تغييران كبيران حدثا في التاسوع، الأوَّلُ هو أن القادم الجديد لم يأتِ، وهذا أمرٌ خارج عن يدنا، وليس بيدنا تغييره، ولكن بيدنا أن نصنع لِبأ الحنين.

قال الخليل بلهجة قاطعة:

- لـن أعـود إلى المكنسـةِ والجـاروف ثانيـة، هـذا الـذي تدعونـا لصناعتـه هـو القيـد الـذي يجعلنـا عبيـدًا للتاسـوع، لـن أعـود عبـدًا ثانيـة بعـد أن ذقـت طعـمَ الحريـة.

قال ربيع بصوت خافت:

- أنـا لا أرغـبُ في أن أعـود مهرجًـا مـرّة أخـرى، ولكـن العطـش يـكادُ يذبحنـي.

نظر نحوهما الخليل وقال بلهجة غاضبة:

- إذن، فلتجمعا القمامةَ وتوصلاها إلى جبال المناجم.

ابتسم الطاهر وردَّ قائلًا:

- لـن نحتـاج إلى جمـعِ القمامـة، هنالـك بالفعـل مخزون كبـير منهـا، منـذ المـرة الأخـيرة التـي جمعتهـا.

ردّ الخليل بذات اللهجة الغاضبة:

- سـأفعلُ مـا بوسـعي حتـى لا يعـود لبـأ الحنـين إلى هـذا العـالم مـرّة أخـرى.

ثـم ابتعـد عنهـم بخطـوات واسـعة متجهًـا إلى منزلـه، دفـع البـابَ بقـوة، أخـرج العـشرات مـن الجواريـف والمكانـس، ملقيًـا بهـا إلى الخـارج، شـعر أوَّلَ مـرة باتسـاع منزلـه، غمـره إحسـاس جديـد، لم يشـعر بـه مـن قبـل. فتـح البـابَ مـرّة

أخـرى، ونظـر إلى التاسـوع مـن حولـه بعـين جديـدة. يبـدو الدغـل أجمـل، وجبـال المناجـم كأنّهـا السّـحاب، والهضـاب أصدقـاء. نظـر نحـو الجواريـف والمكانـس المتناثـرة أمـام مدخـل منزلـه، شـعر بقيـود كلّ مـن سـبقوه في هـذا العـالم، لم تكـن المكانـس والجواريـف سـوى أغـلال غلّـت أيديهـم، واستسـلموا لهـا تحـتَ تأثـير ذلـك اللبـأ اللعـين، تذكـر آلاف المـرات التـي قـام فيهـا بتنظيـف التاسـوع، بحـث عـن مكنسـتِه وجاروفـه بعينيـه وسـطها، ولكنهـا بـدت متشـابهة إلى حـدٍّ بعيـد. كلُّ المكانـس هـي مكنسـته، وكل الجواريـف هـي جاروفـه، وكل القيـودِ قيـده، والآن تخلّـص منهـا جميعًـا. ابتسـمَ بارتيـاح، ألقـى نظـرة متحديـة إلى الدائـرة المظلمـة، ثـم انتابـه إحسـاسٌ مفاجـئ بالنعـاس، نعـاس قـوي، كأنـه لم ينـم منـذ قـرن مـن الزمـان، بـل هـو لم ينـم منـذ سـبعين عامًـا أرضيًّـا كـما يفـترض بحسـاب زمـنِ التاسـوع. شـمله إحسـاس لذيـذ بالخـدر، شـعر برعشـة تجتاحـه، وبإثـارة كأنـه يخـوض مغامـرةً للمـرّة الأولى، أغلـق البـابَ خلفـه، نظـر إلى منزلـه العـاري مـن الأثـاث، تمنـى لـو كان هنـاك أسرَّة في هذا العـالم. لم يبـالِ بالأمـر كثـيرًا، تمـدد عـلى الأرضيـة العاريـة، وتسـلل الكـرى إلى عينيـه سريعًـا، ولم يسـع إلى مقاومتـه إطلاقًـا، بـل استسـلم لـه في شـوق حبيـب غـابَ دهـرًا مـن الزمـان وعـاد عندمـا سـلّم بغيابـه الأبـدي.

صعدوا نحو جبال المناجم، تصحبهم ماريَّة للمرة الأولى. عدم وجود شجيرات الحياة بالقرب من المناجم قد حصرَ حياتها ما بين منزل الخليل وحتى الدغل، حتى عندما أتت في نهاية اليوم السّابق لوداع الزبير وقفت عندَ آخر هضبة قبل جبال المناجم، فبدت لها حينها أكثر ضخامةً من المعتاد، ولكن حين وصلت إليها اليوم، تبيّن لها مدى ضخامتها وهيبتها. تتطلع إلى الصخور بأحجامها المتفاوتة وألوانها التي تتدرج من الأسودِ إلى الأرجوانيّ فترى جمالًا مهيبًا ومخيفًا في ذات الوقت. جعلت الصخور المتفاوتة الأحجام المسير صعباً، ولكنها واصلت المسير في وسطهم، حتى وصلوا إلى مناجمِ الحنين، ووقفوا عند مدخلِ الكهف. رأت النارَ تشتعل في قعره فاضطربت. خُيِّل إليها أنها تسمع صرخات معذبة تصدر من جوفه، وانتابها إحساس بأنه يناديها، ويهتف بها للقدوم نحوه، فتراجعت خطوات إلى الخلف. قطع عليها استغراقها مناداتهم المتكررة لصالح، لكنّ المكان بدا خاليًا لا أثر لصالح فيه. تفرقوا بحثًا عنه وأصوات نداءاتهم تصلها بعد أن اتخذت مجلسًا عند الصخرة بجوار المدخل. عادوا وتجمعوا بجوارها تعمّهم الحَيرة وتنتابهم الاحتمالات السّيئة. اقترب السّر من قاطرته التي تربضُ بجوار المدخل، دار حولَها وهو ينظر إليها من نوافذها

الضخمـة، وعـاد خائبًـا أيضًـا.

لم يمـضِ وقـت طويـل، قبـل أن يخـرج مـن كهـف القمامـة، يحمـل شـيئًا بـين يديـه، وحـين وصـل إليهـم حيّاهـم بيـده، قبـل أن يلـجَ مـن مدخـل المنجـم أمـام أعينهـم.كان المشـهد مذهـلًا وهـم يقتربـون مـن المدخـل كـي يتابعـوا مـا يحـدث أمـام أعينهـم، صالـح الـذي تجـاوزَ منتصـفَ العقـد السّـابع، كان ينحـدر برشـاقة نحـو قعـرِ الجحيـم، اقـترب مـن النـار، ومـد يـدَه إلى قلبهـا وتركهـا قليـلاً، ثـم سـحبها وعـاد يصعـد برشـاقة نحوهـم. خـرج مـن مدخـل الكهـف مبتسـمًا، جلس في وسـطهم يحمـل فرخًـا مشـويًا بـين يديـه وشرع في التهامـه دونَ أن يطـرف لـه رمـش، وهـم ينظـرون إليـه بدهشـة. مـا يقـوم بـه معجـزة كاملـة، هنـاك إنسـانٌ يـأكل بالفعـلِ في عـالم التّاسـوع. رغـم شـكوى السّر مـن الجـوع وربيـع مـن العَطـش، ولكـن رؤيتهـم لأحدٍ يـأكل أمـامَ أعينهـم كان فعلًا خارقًا.عضّهـم الجـوع فجـأة، نظـر نحوهـم ثـم قطـع جـزءًا صغـيرًا مـن الفـرخ وألقـاه نحـو ماريَّـة؛ فالتقطتـه مـترددة ونظـرت إليهـم. أومـأ لهـا الطاهـر، فوضعتـه في فمهـا بـترددٍ، ومضغتـه ببـطء كأنّهـا تتعلـم الأكل للمـرة الأولى ثـم ابتلعتـه، والجميـع ينظـرون نحوهـا مترقبـين. قـال صالـح مبتسـمًا:

- مذاقه جيد أليس كذلك؟

أومأت برأسها موافقة، قال ربيع راجياً:

- نحن كلّنا نشعر بالجوع.

أشار نحو كهف القُمامة قائلًا:

- فقس بيض التاسوع من القُمامة حين لم نحرقه، أزح الصخرة من مدخلِ الكهف، وحاذر أن يفرّ أحدهم، خذ واحدًا وستجد جوار المدخل صخرةً مجوفة، لا تهدر قطرة دم واحدة، أفرغ دمه فيها بحرص.

قال الطاهر متعجبًا:

- ما الذي تفعله بالدم؟!

ضحكَ صالح وردّ قائلًا:

- لم أجد نبعًا للماءِ بعد، يا صديقي.

نظر الطاهر إلى السر وربيع وهما يزيحان الصخرة من المدخل، كان الجميع يتحول الآن إلى وحوش حسبما يرى. وقف صامتًا بجوار ماريَّة ولم يلبثوا إلَّا قليلًا حتى عاد السر وربيع وكلّ منهما يحمل فرخًا مذبوحًا.

صرخَ صالح غاضباً:

- أتظنان أننا سنقيمُ مأدبة؟، هو فرخٌ واحد تتقسمونه جميعًا، لا تكررا هذا الفعلَ ثانية.

وقـف الـسر وربيـع لا يحـيران جوابًـا، أشـار صالـح إلى مدخـل المنجـم، وقـال:

- هيا أنضجا طعامَكما، النارُ تنتظر!

ظهـر الـتردد عليهـما وهمـا ينظـران إلى بعضِهـما. نهرهمـا صالح بنـبرة آمـرة لم يعتدهـا أحـدٌ منهـم مـن قبـلُ، فتقدمـا نحـو المدخـل مترددين نـزل ربيـع أوَّلًا، تقـدم عِـدَّة خطـوات، ثـم عـاد وجلـس لاهثًـا بجـوار المدخـل. تقـدم الـسر بـدلًا منـه، كان يبـدو أكثـر تحمـلًا، وهـو يخطـو أبعـد قليـلًا مـن ربيـع، ثـم عـاد لاهثًـا دامـعَ العينـين، قـال يائسـاً:

- لا يمكننا الوصول إلى النار.

تأفـف صالـح بصـوت عـالٍ، تنـاول الفـرخ مـن يـدِ الـسر واتجـه نحـو المدخـل ثـم التفـت نحـو الطاهـر قائـلًا:

- هل تودَّ أن تجرب يا صديقي؟

هـزَّ الطاهـر رأسـه رافضًـا دون أن يتفـوّه ببنـت شـفة. قهقـهَ صالـح وهـو يعـود إلى مدخـل المنجـم، ثـم قفـزَ بخفّـة حتـى وصـل إلى النـار ومـد يـده وسـطها. عـاد يحمـل الفـرخ مشـويًّا، ألقـاه نحـو الـسّر وقـال بلهجـة آمـرة:

- اقتسمه مع الطاهر.

قطعَ السر الفرخَ إلى نصفين وناول الطاهر نصفَه، في حين تناول صالح الفرخ الآخرَ وعاد إلى مدخل المنجم ولم يلبث إلا قليلًا حتى عاد يحمله مشويًّا هو الآخر وألقاه نحو ربيع وأمره أن يقسمه مع ماريَّة بذات اللهجة الآمرة. ووقف مستندًا إلى الصخرة، يتابعهم وهم يلتهمون لحمَ الفراخ بنهم.نفد اللحم من أيديهم بسرعة، شملوه بنظرة عرفان، فردّ عليهم قائلًا:

- لا بأسَ، نحن جميعًا إخوة في هذا العالم الغريب، انتظروا قليلًا.

اتجه نحو كهف القمامة وعاد يحملُ الصخرةَ المجوفة بحذر، ناولها ربيع أوَّلًا، وقال محذرًا:

- جرعةً واحدةً فقط، لا نملكُ رفاهية الارتواء هنا.

تناول ربيع الصخرة وارتشف جرعة صغيرة، ظهر الاشمئزازُ على وجهه، ابتلعها بصعوبة، وناوله الصخرة ثم مسحَ على فمه بظهر يده. ناولها للسر، فتناول منه الصخرة متردداً، أخذَ جرعة صغيرة، لم يستطع تحمل مذاقها فبصقها جانبًا. صرخ صالح غاضباً:

- هل تعلم ماذا أهدرت؟ دم الفراخ هذا هو أغلى ما في التّاسوع الآن، عليك بالصبرِ حتى يحين موعد الشّرب

القـادم، لا أرغـبُ في سـماعِ شـكواك مـن العطـش!

أخـذ الصخـرةَ واتجـه بهـا إلى الطاهـر الـذي أشـار بيـده رافضًـا، وهـزَّت ماريَّـة رأسـها بعنـف ووجههـا ممتعـض مبينـة رفضَهـا. هـزَّ صالـح كتفيـه باسـتهانة، وعـاد بالصخـرةِ إلى كهـف القمامـة وأغلقـه خلفـه بحـرصٍ ثـم عـاد ووقـف عنـد مدخـل الكهـف وقـال بصـوت عـالٍ كأنـه يخاطـب جمهـورًا متخيـلًا أمامـه:

- مـن الواضـحِ للجميـع، أنَّ التاسـوع قـد تغـير إلى غـير رجعـة، وأننـا عدنـا نشـعرُ بجميـع غرائزنـا الإنسـانيَّة، الجـوع والعطـشِ وغيرِهـا، مـع شـحٍّ في المـوارد كـما تعلمون، وأظـنُّ أن إدارة هـذه المـوارد تحتـاجُ إلى حنكـةٍ ومهـارة، حتـى نسـتطيع العيـشَ في هـذا العـالم الصعـب.

قاطعه الطاهر ملوحًا بيده:

- ليـس هـذا مـا أتينـا مـن أجلـه إلى هنـا، جئنـا لأننـا نرغـبُ في صناعـة لِبـأ الحنـين، حتـى يعـود التاسـوعُ سـيرتُه الأولى.

ابتسـم صالـح ابتسـامةً حانيـة كأنـه يحـادث طفـلًا صغـيرًا وقـال:

- مـن الـذي يرغـب في عـودة التاسـوع إلى سـيرتِه الأولى يـا بنـي؟ هـل تظـنُّ أن مثـلي سـيعود لقضـاء مـا تبقـى لـه مـن

أيـام في التاسـوع في صناعـة اللِّبـأ والغبـار؟!

ردّ عليه الطاهر قائلًا:

- أنـت تعلـم أن مـواردَ التاسـوع محـدودةٌ، ولـن نلبـث إلا قليـلًا وسـتنقرضُ الطيـور، خاصّـة أنَّ لدينـا شريـكًا فيهـا، فالثعالـب تأخـذ نصيبهـا منهـا أيضًـا.

أومأ صالح برأسه متفهمًا ورد قائلًا:

- لم يفـت علـيّ هـذا، سـنفصل جـزءًا مـن الفـراخ في أحـدِ الكهـوف، ونوظـفُ أحدنـا للاهتـمام بهـا ورعايتهـا وتوفـيرِ طعامهـا مـن أوراقِ وزهـورِ شـجيرات الحيـاة، ولا بـدَّ مـن تخصيـص اثنـين لاصطيـادِ أكـبر عـدد مـن فـراخ التاسـوع قبـل أن تتحـول إلى طيـورٍ، وضمّهـا إلى مخزونِنَـا منهـا، كأننـا نصنـع مزرعـةً للطيـور كـي توفـر لنـا الغـذاء. أمـا الثعالـب فهـي حربُنـا القادمـة، أظـن أنّ التاسـوع لا يتسـع لنـا معًـا.

قال الطاهر بامتعاض:

- تتحـدث وكأنّـك قائـدٌ لنـا، تـرى مـن عينـك قائـدًا مـن دون أن أعلـم؟

ابتسمَ صالح ابتسامة مدروسة وقال بطريقةٍ دبلوماسيَّة:

- لا. لستُ قائدًا لكم بالطبع.

ثم اختفتِ الابتسامة وتغيرتْ لهجته، وقال بنبرة عاليّة:

- ولكن مَن ترونه أنسب مني لهذا المنصب؟ أنا من لديه طيور التاسوع وأنا مَن أتحمل النار لشيِّها لكم، وأنا أيضًا بمعونتكم قادرٌ على تطويعِ هذا التاسوع كي يصبحَ عالمًا صالحًا للحياة.

نهض السّر من جلسته، واندفع بقوة اتجاه صالح، حمله من على الأرض حملًا، واندفع نحو مدخل المنجم ثمّ ألقى به وسطَ دهشة الجميع من تصرفه المفاجئ. سمعوا جميعًا صدى صرخته وهو يهوي نحو قعر المنجم، ثم صوت ارتطام جسده بالقاع.

صرخَ الطاهر هاتفًا:

- لمَ فعلت ذلك؟، كنا نتحاور فقط.

التفتَ السّر نحوه لاهثًا من المجهود الذي بذله قبل قليلٍ وقالَ بصوته اللاهث:

- لا يحتاج التاسوعُ إلى مجنونٍ مصابٍ بداء العظمة، يكفينا ما نحن فيه من محنة.

قال ربيع:

- لقد فعلت الصوابَ عينَه، ولكن كيف يمكننا أن

ننضج الفراخَ الآن بعد موت صالح؟

رد عليه السّر بصبر نافد:

- سنجد حلًا لهذا. لا تقلقْ.

صمت ربيع، وشرعت ماريَّة في البكاء بصوت مكتوم، في حين غرق الطاهر في صمته مفكرًا. لم يمضِ سوى وقت قليل منذ بداية تغير التاسوع، ولكن ما إنْ بدأت غرائزهم البشريَّة الظهورَ، حتى بدأ الصراع بينهم. الإنسانُ هو الإنسان أيًّا كان العالم الذي يقطنه. حين قتل التاسوع غرائزهم، كانوا إخوةً، غاب الصراع بينهم. يستقبلون القادمَ الجديد بحياد، ويودعون المغادرَ بحياد. ما حدث من صالح لم يكن مفاجئًا، إذ إنّه يعلم أنَّ الغرائزَ ليست الجوعَ والعطشَ فقط. سُرعان ما ستتبعها باقي الغرائز مثل انفراط عقد. ربما تحدث صراعات أخرى بينهم، وهو يخشى فقدانهم الواحد تلو الآخر. التفت إلى ماريَّة، ربت على كَتِفِها، قال بصوت خَافت:

- أحيانًا، يكون في الموت حياةٌ، وجود شخص مثل صالح في ظل هذا الاضطراب قد يتسبب في موتنا جميعًا.

لم تتوقف ماريَّة عن البكاء. رفعت عينين مغرقتين بالدّمع، بدت جميلة في عيني الطاهر، خفقَ قلبه، وبعد قليل من التّردد مدَّ يده ومسح دموعَها بأطراف أنامله. تجمدت وهي

تنظر إليه بدهشة. سحبَ يده وهو لا يعلم لمَ فعل ذلك. وفي غمرة اضطرابهما، خرج صالح من مدخل المنجم كأنه قادمٌ من قلب الجحيم. قال بصوت عالٍ وهو ينظر إليهم غاضباً:

– ظننتم أن التخلصَ مني سهلٌ أليس كذلك؟ ولكن لا بأسَ، ليس هذا وقت الخصام، سأتجاوز عمّا حدث من أجل مصلحتنا جميعًا!

نظروا إليه بذهول. قال الطاهر بحيرة:

– لم يعد في التاسوع شيءٌ مثيرٌ للدهشة.

لم يسمعه صالح وهو يعتدل في وقفته، قال بصوت قوي:

– من الواضح أن قوى التاسوع الخفيّة تدعمني أيضًا، لا بأسَ، سأكون قائدًا للتاسوع، ومن يرغب في طعام أو شراب، فعليه أن يتبعني!

نظروا إليه دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة، أشار إلى الطاهر قا ئلًا :

– الجوع قاتلٌ، يا صديقي. لا أرغب في فقدِ رجل عاقلٍ مثلك.

عقد الطاهر يديه أمامَ صدرِه، ونظر بحدة إلى صالح، التفت نحو ربيع قائلًا:

- تبدو أكثرَ تعقلًا، ولحم طائر التاسوع شهيًّا.

التفـت ربيـع ناظـرًا نحوهـم بـتردد، تحـرك بخطـوات مـترددة، ووقـفَ بجـوار صالـح الـذي ربـت عـلى كتفـه بسـعادةٍ، وقـال مبتسـمًا:

- كنـت موقنًـا مـن أنّـك سـتكون عاقـلاً، مـن الجيِّـد أنـك لم تخيّـب ظنـي فيـك.

ابتسـم ربيـع في وجهـه، وأومـأ برأسـه مبينًـا طاعتَـه وقـال بصـوت متملق :

- أنَا في خدمتِكَ أيُّها القائدُ العظيمُ.

التفت إلى ماريَّة قائلًا:

- فتـاة رقيقـةٌ وجميلـة مثلُـك لـن تحتمـلَ الجـوعَ كثـيرًا، كـما أن القائـدَ سـيحتاج إلى زوجـةٍ، أنـت تعلمـين أن الأمـرَ لا يقتـصر عـلى الجـوع والعطـشِ فقـط.

قالهـا وابتسـامة صفـراء تلمـع عـلى شـفتيه. بـدا لماريَّـة بشـعًا، اختبـأت خلـف الطاهـر وقالـت بلهجـة حـادّة:

- فلتذهب إلى الجحيم أيُّها الأحمقُ.

ضحكَ وردّ قائلًا:

- لقـد أتيـت مـن هنـاك قبـلَ قليـل يـا صغـيرتي، تعـالَي، ولا

تضيعــي الفرصــةَ.

ثــم التفــت أخــيرًا إلى الــسّر، وجــده يقــف متحفــزًا للقتــال، فقــال مطمئنًــا إيــاه:

– البــاب مفتــوحٌ لــك متــى رغبــت في إتباعنــا، ســتدرك حتــمًا قيمــة أن تكــون بجانــب الطــرف القوي.

قفلوا راجعين نحوَ قلب التاسوع، قالت ماريَّة:

– أنا مقتنعة تمامًا أنَّ السّياسيين هم أسوأُ النَّاسِ في كلّ العوالم!

قالَ الطاهر وكأنه لم ينتبه لعبارتها:

– تــرى، كيــف ســيكون موقــفُ الخليــل مــن كلّ مــا حــدث قبــلَ قليــل؟

لم يجبــه أحــدٌ، يمتــد التاســوع مــن تحــت أقدامهــم مظلــمًا ومخيفًــا، دغــل الحيــاة بــدا لعينــي الطاهــر مثــل وحــش ضخــمٍ بألــف رأسٍ. ويصلهــم ضبــاح الثعالــب واضحًــا. فــرّ اليقــين مــن يــدي الطاهــر، وتوّلــد مكانــه الشّــك والريبــة والخــوف ممّــا يخبئــه التاســوع تاليًــا. تنهّــدَ ثــم التفــت نحــو ماريَّــة وقــال معقبًــا:

– السِّياســيون هــم ثعالــبُ عالمِنــا الأرضيِّ، ثعالــب بــلا حيــاء، يــا ماريَّــة!

معركة كسر العظم

تسللت صرخةٌ ضعيفة عبرَ أذنه، وولجت إلى عقله، لتضيف خلفيةً صوتية غير منطقية إلى حلمِه. حتى في منامه، أدركَ أن الصرخةَ لا تتناسب مع الحلم الذي يدور في مصلحةِ الضرائب، ومدير المؤسّسة يحاول القفز عاليًا، فترتج بطنه، ويغرقون في الضَّحِك، ولكنه يواصل القفز بإصرار. فتح عينيه، نظر حوله متعجباً كأنه يرى غرفته الخالية من الأثاث للمرّة الأولى، ثم انتبه لصرخة ثانية تأتي من مكانٍ ما. أدرك بقلبه أنها ثرية، نهضَ فَزِعًا من رقدته، فتح البابَ وتناول جاروفًا، وركض جهةَ دغل الحياة، متبعًا حدسه. يصله ضباح الثعالب وزئيرها واضحاً. زادَ من سرعته، وقلبه يخفق ويزداد لهاثه، وما زالَ الدغل بعيدًا. واصل الركض، سمع الاستغاثة مرة أخرى، وصلته بصوت ضعيفٍ، مشحونٍ بالخوف. سبّ ولعن بصوت واضح. صرخ بقوةٍ، والمسافة تقل بينه وبين الدغل. تعترضه الشّجيرات في رحلتها نحو التّحول إلى أشجار، تفادى بعضها وقفز فوق

بعضِها الآخر. داعبته بعضها بزهورِها، وطعنته أخرى بأشواكِها. وحين دنا من المكان رأى عشرات الثعالب في حلقة ضيقة حول ثرية وقد برزت أسنانها. كان زئيرها مرعبًا. ربما لو كان في حياة سابقة لفكّر في نجاته، وتعلّل بأن الأمر لا يخصه، ولكان تساءل ماذا سيحدث له لو قررت الثعالب أن تفترسه بدلًا من ثرية، ربما سيحسب أيضاً حجم الخسائر التي سيتعرض لها ويحجم، ولكنّه لم يفكر في كل هذا. كان ما يحدث أشبه بالفعل الغريزي، يغيب العقل ليفسح الطريق للدوافع النّبيلة، التي تدفع الجندي للموت من أجل وطنِه والتّضحية بحياته، ربما شعر في تلك اللحظة التي قفزَ فيها بطريقة أسطوريّة وسط حلقة الثعالب المرعبة بأنه يقاتل من أجل ثرية، وطنه الذي نبذه ولكنّه ما يزال ينتمي إليه، وعلى استعدادٍ للتضحية بحياتِه من أجله. وهكذا وجد نفسه يقف بين ثرية وبين عشرات من الأنياب الجائعة، صرخ صرخةً عظيمة وهو يهوي بجاروفه نحو أقرب ثعلب إليه. لم يبالِ بضغائه المتألم، وهو يستدير ليلطم آخرَ بظهر الجاروف. استمرت المعركة لفترة قصيرة من الزمن، ثم ولَّت الثعالب الأدبار. كان جسده مغطًى بالدم مثخنًا بالجراح، ولكنه انتصر. جثا على الأرض منقطعَ الأنفاس، ونظر نحو ثرية ليطمئن عليها. وجدها تستند

إلى شـجرة، جاحظـةَ العينـين مبهـورة الأنفـاس. تـوكأ عـلى جاروفـه ناهضًـا، وقـف بقربِهـا وقـالَ بصـوت متقطـع:

- هل أنتِ بخير؟

أومـأت برأسـها ناظـرة إليه،وسُرعـان مـا تخلصـت مـن جمودهـا وركضـت نحـوه، ثـمّ أجلسـته عـلى الأرض، وتفقـدت عضـات الثعالـب المتفرقـة عـلى جسـده، تلفتـت حولهـا في حَـيرة، ثـم تناولـت شـيئاً مـن أديـم التاسـوع، وسـكبته عـلى إحداهـا. أغمـض عينيـه متألّمًـا، ولكـن النـزف توقّـفَ عـلى الفـور. واصلـت سـكبَ الـتراب عـلى جراحـه، وحـين انتهـت كان مسـتلقيًا عـلى ظهـره، ينظـر نحـو الدائـرة المظلمـة مستسـلمًا لمـا تقـومُ بـه. قالـت بصـوتٍ خافـت:

- شكرًا لإنقاذي، لا أدري ما الذي أصابها.

ابتسم، قال بصوت منهك:

- التاسـوعُ يتغـير، لم تعـد الثعالـب هـي التـي اعتدتِهـا، كادت تفـترسُ ماريَّـة أيضًـا، لـولا إنقاذنـا لهـا. لمَ أنـتِ وحيـدة هنـا؟ أيـنَ البقيـة؟

ردّت ثرية قائلة:

- لا أدري، أتيـت إلى هنـا بحثًـا عـن ماريَّـة، تمكـث هنـا كثـيرًا، لكنـي لم ألـقَ أيّـاً منهـم طـوال طريقـي.

نهض الخليل من رقدته، توكأ على جاروفه، تلفت حوله متوجسًا، قال بقلق:

- هل تفكرين فيمَا أفكر؟

وضعت يدها في فمها، ردّت بسرعة:

- لا لا، لا أظنُّ ذلك، دعنا نبحث عنهم معًا.

عبروا التاسوع الذي كان هادئًا، وحيدينِ، كأنّهما آدمُ هذا العالم الغريب وحواءه. كانت ثرية مضطربة، بين إحساسِ العرفان بالجميل لما فعله قبلَ قليل، وبين ما حدثَ بينهما سابقًا، والألم الذي أصابها به، بجبنه وتخاذله وشكه، تبعته صامتة، وهو يتوكأ على الجاروف كأنه عصا، يتلفت حوله باحثًا عن الآخرين، قالت بتردد:

- حدث شيءٌ غريب اليوم.

التفتَ نحوها قلقاً، سارعت لتطمينه قائلة:

- ليس هناك ما يقلق. لكنّي عندما ذهبت إلى المنزل نمت دون أن أشعرَ، وهذا مخالف لناموس التاسوع، ثمّ استيقظت من نومي لأجد التاسوع خاليًا من البشر. هل لهذا دلالة معينة؟

التفت مواصلًا طريقه، ثم ردَّ عليها بعد برهة من الصمت:

- أنا أيضًا نمت. هذا من ضمن التّغير الذي يحدث في التاسوع، كأننا نعودُ إلى طبيعتنا البشريّة،فقد أصابنا النعاس، كذلك شكا ربيع من العطش، والسر من الجوعِ، لا أدري ما الحكمةُ من كلِّ هذا؟ وإلى أينَ سيقودنا. ينادي الطاهر بضرورة العودة إلى اللبأ، وربما يحتمل رأيه الصواب، ولكنه ثقيلٌ على النفس. إن كان اللبأ يغنينا عن الجوع والعطشِ والنُّعاس، فهو يحولنا إلى عبيدٍ للتاسوع. يأخذ أكثرَ ممّا يعطي. عمري كإنسان ابتدأ اليوم، لم أستغن عن المكنسة والجاروفِ فقط، ولكني ألقيتُ خوفي وراءَ ظهري، تركة عالمين ثقيلين عليّ.طوال مكوثي هنا أراني كيف كنت عندما التقيت بك وفقدتك، لأنّي كنت أزن كلَّ شيء بميزان مختل، يدقّق في حساب ما يعود عليَّ من أيّ موقف قد اتخذه، متجنبًا كلَّ ما يسبب ضررًا لي. دفعت أنت ثمن ذلك، ودفعته أسرتي، وطريقتي في عملي. ربما احتجت إلى الانتقال إلى التاسوع لأكنسه وأستغرق في تأملِ حياتي الماضية، وأستعيد كلَّ تفصيل صغير فيها، كل موقف. كثيرًا ما فكرت أن التاسوع كان عادلًا معي، تركني أواجه نفسي بعلاتها جميعًا، وحين تحررت من أغلاله اليوم أدركت

أنني لن أعود. لم أعد أحتاج إلى التفكير وتقييم حياتي مرّة أخرى. أظنُّ أنني تعلمت الدرسَ جيّدًا، والدليل الأوَّل هو رهاني على الموت جوعًا، أو بين أنياب الثعالب المتوحشة، على عودتي لذات الوثاق الذي قيدني سبعة أيام ماضية طويلة كأنها الدهر، سقيمة ومملة وقاتلة.

حلّ الصمت بينهما ثقيلًا.تنظر ثريّة بعيدًا، كان حديثه مؤثراً، ونبرتُه صادقة.غمرها إحساس العرفان بالجميل لإنقاذه حياتَها، ولكنها لا تستطيع أن تنسى، كانت بلا خبرةٍ صغيرةً مقبلةً على الحياة، تنظر إلى المستقبل بثقة، وإلى الخليل على أنه رفيقُ دربها الطويل، ولكنه خذلها حينَ وثقت، وغدر بها عندما أمنت، وبثها شكه حتى فقدت الثقة في نفسها، وأخذتها الحياة بموجها، ألقت بها يمينًا ويسارًا. كانت مغرقة في الشك وعدم اليقين، تنظر إلى المستقبل بسوداويّة، ولا تؤمن بالحبِّ، وقلبها مغلق أمامَه. كانت عاجزة عن الحب، شحيحة العطاء، مضطربة النفس. حين نظرت إلى قامة الخليل الطويلة، وهو يتوكأ على جاروفه، واتاها إحساسٌ بالشفقةِ عليه، وتأكدت بأن لها القدرةَ على أن تسامحَ وتغفر، ولكنها لا تستطيع أن تنسى، قالت بصوتٍ خافت ولكنه واضح النبرات:

– مرَّ على ما قلت عالمان ودهرٌ من الزمان، حان الوقت

لتنسى وتسامح نفسَك قليلًا.

بدأوا مرحلةَ الصعود إلى جبال المناجم حيث الاحتمال الأخير للعثور على البقية يبدو التاسوع مسالمًا هادئًا، لا يوحي بما يخفيه في قادم الأيام. شجيرات الحياة ما تزال تهب العالمَ زهورَها اليانعة، ومنزل ثرية يطلُّ من بين الغيوم الفسفوريَّة، كأنه حلمٌ جميل في ليلة صيف هادئة، وجبال المناجم يلفها الصمت والسّحر، تظهر للناظر من بعيد كأنّها تسير، لو كان التاسوع أرضيًّا، لكان مزارًا سياحيًّا للباحثين عن هدوءِ النفس وراحةِ البال.

تحركا ببطء، دارا حول الهضاب وصَعِدَا بعضَها، وحين دنوا من الجبال وأصبحَ المشي صعبًا بسبب الصخور الصغيرة الحجم، ظهر لهم شبح الثلاثة قادمين من الاتجاه المعاكس. توقف الخليل في مكانه وألقى جاروفه ثم تهاوى على الأرض، وقفت ثرية بجواره. ينخر البردُ في عظامِهما، تشعر بلسعة الجوع ولكنها لم تبحُ بها. احتضنت ماريَّة وحيّت الطاهر والسر، في حين أحاطا بالخليل للاطمئنان عليه. أنبأهما الخليل بما دارَ في غيابهم، فأظهر الطاهر دهشته من نوبة النُّعاس التي اجتاحت الخليل، ولكنه عقب قائلًا:

– الجوعُ للسر والعطشُ لربيع، ثم النومُ لك، والجنس

لــدى صالــح.

قاطعه الخليل في دهشة:

- عن أيّ جنسٍ تتحدث؟

حكــى لــه الطاهــر مــا فاتَــه بينهــم وبــين صالــح. تلــوَّن وجــه الخليــل بالغضــب، تــوكأ عــلى جاروفــه، ثــمّ قــال محــاولاً أن يكبــت غضبــه:

- يريد صالح أن يستعبدنا بعدَ تَحَرُّرِنا من اللبأ.

ردّ عليه الطاهر محاولًا تهدئته:

- ليــس هــذا وقــت الانفعــال، علينــا أن نفكــرَ في وضعنــا، ونعيــدَ ترتيــبَ أولوياتنــا جيّــدًا.

التفت إليه الخليل منصتًا، فأكمل قائلاً:

- نحــن نعــودُ إلى طبيعتنــا البشريَّــة، ونعــاني مــن انعــدام كامــلٍ في الطعــام والــشّراب. النَّــار بيــد صالــح وكذلــك فــراخُ التاســوع، ومصــدر الطعــام الثّــاني هــو الفــراخ داخــلَ الدغــل، وبيننــا وبينهــا صعوبــة التوغــل داخلــه، ووجــود الثعالــب المتوحشــة.

كانت ابتسامة الخليل غريبة، نظر نحو الطاهر وقال:

- مــا لــدى صالــح ســنعتبره مخزونًــا إضافيًّــا، نلجــأ إليــه بعــد

أن تغلـق جميعُ خياراتنـا الأُخـرى.

فردَ الطاهر سبابته قائلًا:

- بقيَ لدينا خيارٌ واحد فقط.

وأشار نحو الدغل.

خرج السّر عن صمته معلقًا:

- نحتاج إلى أسلحةٍ قبلَ كلّ شيء.

- ولكن من أينَ لنا بالأسلحة؟

قال الطاهر معقبًا.

غرقوا في التفكير، ثم قال الخليل:

- حـين صنعـتُ جـاروفي ومكنسـتي أوَّل قدومـي هنـا، اسـتعنت بأشـواك أشـجار الحياة. كأنهـا حـراب ملتصقـة بأفـرع الشـجرة، انتزاعهـا صعـب، ولكـن في حالـة اسـتطعنا انتـزاع عـددٍ كافٍ منهـا، فسـيكون بيدنـا سـلاحٌ مـاضٍ ضـدّ الثعالـب.

اتّجـه الخمسـة بأنظارهـم إلى الدغـل بأشـجاره العدائيَّـة وثعالبِـه المتوحشـة، وظلامِـه الدامـس، وأشـواكِه الحـراب. تكمـن هنـاكَ أسـباب الحيـاة وأسـباب المـوت أيضًـا الآن.

أشار الخليل إلى منزله قائلًا:

- سنأخذ الجواريف، وستبقى ثرية ومارِيَّة هنا في انتظارنا، ستصعدان إلى واحدةٍ من الهضاب العالية.

أشار إلى هضبة تغطيها شجيرات الحياة اليانعة، تعلو حتى تعانق السّحاب:

- انتظرونا هناك.

هزت ماريَّة رأسها رافضة وردّت بصوت ثابت:

- ستحتاجون إلى كلِّ يد هناك.

قال الخليل بصبر نافد:

- وينتظرنا الموت أيضًا.

- وهل تظنّ أن المكانَ هنا آمن؟ الموت يحيطُ بنا من كلّ اتّجاه، لا أمان في التاسوع.

لم يحر أحد جوابًا، كان ما تقوله مفحمًا. بعد برهة من الصمت ردّ الخليل:

- ستأخذ كل واحدة منكما جاروفًا، وستظلان في المنتصف بيننا نحن الثلاثة.

جاء صوته صارمًا، أومأت ماريَّة برأسها موافقة. أشار

الخليـل إلى منزلـه:

- سنأخذ الجواريفَ من أمام منزلي ونستخدمها لحمايتنا.

تحـرك فتبعـه الجميـع بصمـت. توقفـوا عنـدَ المنـزل، واختـار كلٌّ منهـم جاروفًـا، ثـم مَشـوا في خـطٍّ مسـتقيم يتقدمهـم الـسر ويتبعهـم الخليـل، ومـن خلفهـم ثريـة ثـم ماريّـة، وأخـيرًا الطاهـر. كان الـبردُ قارصـا، كـما لم يشـعروا بـه مـن قبـل في التاسـوع، خمسـة يلفهـم الـبردُ والجـوع والخـوف، يتقدمـون نحـو الدغـل بخطـوات بطيئـة حـذرة، يغـرق كلّ منهـم في أفـكاره الخاصّـة، يهبطـون نحـو الدغـل رويـدًا رويـدًا. تسـتطيل الشَّـجيرات وتتكاثـف ويصعـب المسـير كلـما تقدمـوا إلى الأمـام، ثـم بـدتِ الأشـجار متباعـدةً، واحـدة هنـا وأخـرى هنـاك تطـل بـين الشـجيرات. عـبروا بمحـاذاة منـزل الطاهـر الـذي يطـلّ عليهـم عنـدَ حـدود الدغـل مثـل بيـت الحـارس، كئيبًـا ومهجـورًا، بجُـدُرٍ عاليـة ونوافـذ معتمـة وصمـت مخيـف. يضيـقُ الطريـق كلـما تقدمـوا، أصبحـت أشـجار الحيـاة أكثـرَ عدائيـةً، وأشـواكها أكثـرَ جـرأة، وهـي تنتـش ملابسـهم، وتنهـش لحمهـم كلـما تقدمـوا خطـوة إلى الأمـام. في غفلـة منهـم، كان هنـاك زوج مـن الأعـين اللامعـة يتبعهـم بحـذر، يـكاد لا يصـدر صوتًـا، وهـو يتبعهـم برشـاقة دون أن يشـعروا بـه. يـزن قوتهـم بغريزتـه الفطريَّـة، والجـوع الـذي يسـتعر في جوفـه، مسـترًا

بالظـلام وكثافـةِ الأشـجار، وعنـد آخـر منحنـى يقودهـم إلى أوّل الدغـل، كان قـد انتقـى ضحيتـه مـن بينهـم. لمعـت أسـنانُه في ظـلام التاسـوع، وسـال اللعـاب بينهـا، ثـم قفـزَ برشـاقة يحسـد عليهـا ليقتنـص ضحيتـه مـن وسـطهم، سـقط الاثنـان أرضًـا. وفي لحظـة اضطـرب الصـف وتبعثـر وهـم يـرون الضحيـة تقاتـل بيـأس ثعلبًـا لم يـروا مثـل ضخامتـه يومـاً في عـالم التاسـوع.

حـدث كلُّ شيء في لحظـة خاطفـة وهـم يـرون ماريَّـة تصـارع الثعلـب. تحـرك الـسّر والطاهـر في لحظـة واحـدة، وانهالـوا ضربًـا بالجواريـف عـلى ظهـره، فرفـع رأسـه وفمـه ملطـخٌ بالـدم. بـدا مخيفًـا وهـو يزمجر ملتفتًـا إليهـا، تراجعـا بحـذر، ثـم صرخ الطاهـر وهـو يهـوي عـلى الثعلـب الـذي تفـادى ضربتـه برشـاقة ولكنـه لم يسـتطع تفـادي ضربـة الـسر المفاجئـة، فتدحـرج عـلى الأرض وهـو يعـوي. انهـال عليـه الاثنـان بالجواريـف الثقيلـة، حتـى صرخ الخليـل بهـما:

– يكفي هذا لقد مات!

توقفـا وهمـا يلهثـان، في حـين يتحـرك قائـما الثعلـبِ ببـطء، وهـو مغمـض العينـين، يعـوي بصـوت ضعيـف. انتبـه الجميـع في لحظـة واحـدة إلى ماريَّـة، ركضـوا نحوهـا، ينـزف الـدمُ مـن عنقهـا بغـزارة، مـزق الطاهـر قميصـه بسرعـةٍ،

وناولـه ثريـة التـي سـارعت بوضـع أديـم التاسـوع عـلى الجرح ومـن ثـم تضميـده، وبعـد قليـل توقـف الـدم وسـطَ خوفهـا، وهـي تتـأوّه بطريقـة رتيبـة. تنـاول الطاهـر جاروفَـه الملقـى بجـواره وانهـال عـلى الثعلـب بالـضرب، سـارع الخليـل للإمسـاك بذراعـه، قـال بنـبرة حاسـمة:

- توقـف، قـد نحتـاج إليـه، يمكنـك إفـراغ غضبـك في أشـجارِ الحيـاة.

ردَّ عليه الطاهر باستنكار:

- فيمَ سنحتاج إليه؟

نظر الخليل نحو الثعلب ثم قالَ بلهجة هادئة:

- لا بدَّ أن نعيش في عالم التاسوع

لم يحـر الطاهـر جوابًـا، تخيـل للحظـة أنـه يلتهـم ثعلبًـا، فاقشـعرَّ جلـده، تسـاءل بينـه وبـين نفسـه، عـن الثمـن الـذي ينبغـي أن يدفعـه للعيـشِ داخـل التاسـوع، تبـدو الفاتـورة مرتفعـة، وسـترتفع قيمتهـا كلـما مـرَّ الوقـت.

سأل السر حائراً:

- هل سنواصلُ المسير أم ننتظر هنا؟

التفت الخليل إلى ثرية متسائلًا:

- هل تستطيعين المواصلةَ معنا؟

هزت ثرية رأسها نافية، وهي تواصل تضميدِ الجرح:

- الجرحُ بليغ، لن تستطيع المشي.

تنهد الخليل، والتفتَ إلى الطاهر قائلًا:

- ستبقى أنت وثرية برُفقتها، دافع عنهما بحياتك، ولا تنسَ الثعلب، حافظ عليه أيضًا إلى حين عودتي.

نهضت ثرية من مكانها وقالت بتصميمٍ:

- سأذهب معكما.

- ما ينتظرنا قد يكون أسوأ.

- سأذهب.

- حسنًا كما ترغبين.

ودعهم الطاهر، وتحرك الثلاثة، السّر في المقدمة وخلفه ثرية ثم يأتي الخليل في الخلف، سارَ موكبهم الصغير ببطءٍ بالغ، والسر يحذرهم من الأشواك التي تعترض طريقه، ولم يمضِ وقت طويل، قبل أن يتوقف السّر عن المشي، التفت نحوهم وقال بصوتٍ يائس:

- أضحى التّقدم مستحيلًا.

أمسـك الخليـل بواحـدة مـن الشـوكات، وهزّهـا بقـوة فانخلعـت في يـده، شـعر بعـدم الرضـا والتفـت إلى الـسّر وقـال بحـزم:

- سنزحفُ.

كان الظـلام دامسًـا، وضـلَّ ضـوء الدائـرة المظلمـة عـلى قلتـه الطريـق إلى قلـب الأحـراش الكثيفـة، وبـرد التاسـوع كان قاسـيًّا، والأديـم مثـل ثلاجـة الموتـى. حـاول الخليـل صـمَّ أذنيـه عـن تأوّهـات ثريـة كلـما وخزتهـا شـوكة، يشـعر بمرفقيـة يـكادان يشـتعلان مـن الألم، وطاقتـه تقـلُّ، ولكنـه صمـد. شـعوره الطاغـي بأنـه لا يقاتـل لأجلـه فقـط، ولكـن مـن أجلهـا هـي أيضًـا، يدفـع جسـده المثخـن بالجـراح لبـذل طاقـةٍ تفـوق القـدرة عـلى احتـمال الألم. شـعرَ بالـدم يسـيل مـن جراحـه، ولكنـه عـضّ عـلى شـفته السُّـفلى حتـى كاد يدميهـا هـي أيضًـا، وهـو يواصـل الزحـفَ بعنـاد، بعـدَ قليـل أتـاه صـوت الـسر قائـلًا:

- هناك فسحة وسطَ الدغل، يمكنكما الوقوف الآن.

وقـف ثلاثتهـم وسـط الفرجـة الخاليـة في الدغـل، مـكان لم تطـأه قـدمُ إنسـان مـن قبـل. كانـت الأشـجار التـي تحيـطُ بالمـكان عملاقـة، تسـتطيلُ حتـى تعانـق السّـماء، وبـين أفـرع الأشـجار الكثيفـة تطـلّ الدائـرة المظلمـة بومضاتهـا الرتيبـة،

فيتسلل ضوءُها الأحمر الباهت ويصبغ المكان بصبغة مخيفة. حين نظر الخليل إلى ثرية والسّر رأى أشباحًا لم يعرفها قبلُ، يتطلعان حول المكان السّاكن بترقب، رأى الخوف في عيني ثرية وهي تتلفت حولها، فاعتصره قلبه وهم يتحركون بحذرٍ.

قالت ثرية حائرة:

- هل شعرتم بما شعرت به في أثناءِ زحفنا؟

ردّ الخليل قائلًا:

- عمَّ تتحدثين؟

- الطلِّ.

- الطلّ؟

أومأت برأسها وقالت:

- كانت أوراق الأشجار مبللةً بالطل، والمكانُ رطبًا جدًّا.

وافقها السّر قائلًا:

- نعم، شعرت بذلك فعلًا، ولكن ماذا يعني هذا؟

صمتت قليلًا، كأنَّها تختبر مدى قوة استنتاجها، ثم

قالــت:

- يعني أن هناك مصدرًا للماء قريبًا من هنا.

ظهـرت عـشرات الأعـين الصغـيرة مـن بـين الأشـجار، أحاطـت بهـم في دائـرة مغلقـة، التصـق الثلاثـة ببعضِهـم، فكّـر الخليـل في احتـمال نجاتهـم. امـرأة ومصـاب ورجـل في منتصـف العقـد الخامـس تحيـط بهـم عـشرات الثعالـب الجائعــة في جــوٍّ قــارص الــبرودة ورؤيــة غــير واضحــة. تضاءلــت احتــمالاتُ النجــاة إلى الصفــر، ربــما كان المــوت قريبًــا، ولكنــه ســيرحل قبلهــا. زمجــرة الثعالــب تصلهــم واضحـة، ونباحهـا كأنهـا تنـادي عـلى ثعالـب تبعـد قليـلًا، بالفعــل زادت أزواج الأعــين التــي تحيــط بهــم مــن كلِّ مــكان، ثــم تحركــت الثعالــب في وقــتٍ واحــد والدائــرة حولهــم تضيــق ببــطءٍ.

قال الخليل بصوت حاول أن يجعله قويًّا:

- لــن نجعــل موتنــا ســهلًا، ســتدفع هــذه الثعالــب اللعينــة الثمــنَ غاليًــا، قبــل أن تتــذوق لحومنــا.

قالت ثرية بصوت ضعيفٍ باكٍ يكاد لا يسمع:

- لا أريدُ أن أموت.

أطلقــت صرخــة طويلــة عاليــة والثعالــب تنطلــق في لحظــة

واحـدة نحوهـم مـن كل مـكان، ورغـم الإضـاءة الخافتـة، فـإنَّ أنيابَهـا التـي تلمـعُ في جـوف الظـلام، تحمـل وعـدًا بمـوت قـاسٍ وسريـع لثلاثتهـم.

أتـى صـوت الصرخـة للطاهـر الجالـس بجـوار ماريَّـة واضحًـا، نظـر نحـو الاتجـاه الـذي أتـت منـه الصرخـة، كان الشـجر كثيفًـا، والظـلام معتـمًا، شـعر بالتوتـر وهـو ينظـر إلى ماريَّـة وهـي مسـتلقية عـلى الأرض، أزاحـت يدهـا عـن وجههـا، واسـتوت جالسـةً وقالـت بذعـر:

- إنه صوت ثرية.

ساعدها الطاهر على الوقوف بمشقة، وقال بلهجة آمرة:

- سنبتعد من هنا.

ردت ماريَّة بعصبيَّة:

- والبقية؟

التفت نحوها وردَّ بعصبية هو الآخر:

- هـل سـمعت نبـاح الثعالـب وعواءَهـا؟ هنـاك مـا لا يقـل عـن مئـة منهـا داخـل هـذا الدغـل اللعـين، وأنـت رأيـتِ مـا يسـتطيع ثعلـب واحـد فعلـه، سـنبتعد مـن هنـا ونحـاول الصعـود إلى هضبـة عاليـة.

قالت بصوت باكٍ:

- هل يعني هذا أنهم قد ماتوا جميعًا؟

ساندها وشرعا في الابتعاد عن المكان، توقف للحظة مترددًا، ثم حسم أمره، وعاد مهرولًا ثم رجع بعد قليل يجر جثةَ الثعلب من ذيلها، نظرت نحوه بدهشة، فقال بحزمٍ:

- ليس لدينا خيارٌ آخر.

تحركا مبتعدين، تشكو ماريَّة من جرحها، وتتحرك ببطء متكئة على كتف الطاهر، وجثة الثعلب ترسم خطًا طويلًا متعرجًا على أديم التاسوع من خلفهما. كانا مرهقين وجائعين، يحمل كلّ واحد منهما جاروفًا، وخلفهما جثة لثعلب يفترض أنه وجبتهما الوحيدة. شعر الطاهر باليأس، ولكنه تظاهر بالتماسكِ لأجل ماريَّة، ينظر إلى جرحها وضعفها فينفطر قلبه، ويشتد عزمُه، ويعبر خطوة أخرى نحو وسط التاسوع، بعيدًا عن الدغل، عبر من أمام منزله، ولم يرفع نظره إليه، بل واصل جرَّ الثعلب، منكبًّا بنظره إلى الأسفل، قطعا التاسوع، ووقفا أسفل الهضبة المغطاة بشجيرات الحياةِ اليانعة، نظر نحوها مشفقًا، وقال وكأنه يعتذر:

- تبقى أن نصعدَ الهضبة فقط.

ظهـر الألم عـلى وجهها وهـي تصعـد ببـطء خلفـه. يلقـي أحيانًـا بجاروفـه وبجثـة الثعلـب جانبًـا ويسـاندها، فيعـبرا عِـدَّة خطـوات معًـا، ويجلسـها لترتـاحَ قليـلًا، ثـم يعـود ويحمـل الجـاروف ويمسـك بذيـل الثعلـب، ويواصـل المسـير حتـى يتعداهـا. ثـم يلقـي بالجـاروف والثعلـب جانبًـا، ويعـود لأخـذ قسـط مـن الراحـة بجوارهـا، ثـم يعـودان لمواصلـةِ المسـيرة، حتـى ظهـرت قمـة الهضبـة بـين السّـحب الفسـفوريّة. أجلـس ماريـة عـلى الأرض، وألقـى بجثـة الثعلـب جانبًـا، وأخـذ جاروفـه، وبـدأ قطـعَ شـجيرات الحيـاة بحافته،وسـوى الأرض، وصنـع مـا يشـبه الفـرش مـن الشـجيراتِ، ثـم سـاعدها حتـى اسـتلقت عليـه، وحـين اطمـأنَّ إلى أنهـا اتخـذت وضعًـا مريحًـا، ابتعـد عنهـا قليـلًا، وبـدأ ضربَ الجـاروف الثقيـل بإحـدى الصخـور.

نادته بصوت واهن:

- ماذا تفعل؟

التفت نحوها وقالَ لاهثًا:

- سأكسرُ الجاروف، وأستخدمُ جزءًا منه في تقطيع هذا.

أشـار برأسـه إلى جثـة الثعلـب، ظهـر الاشـمئزازُ عـلى

وجهها، ولكنها لاذت بالصمت وعادت للاستلقاء وهي تكاد تتجمد من البرد. عاد الطاهر لضرب الجاروف بعزم حتى تحطم إلى أجزاء صغيرة، تناول عِدّة قطع وجربها، ثم استقر رأيه على واحدة، قلَّبَها في يده كأنّه يختبر متانتها، هزَّ رأسه راضياً، واتجه نحو جثة الثعلب وشرع في نزع الجلد وتقطيع اللحم وتعليقه على الشّجيرات وإلقاء بعضه على الصخور. قضى بعض الوقت منهمكًا في العمل، وبعد أن نزع الجلد كاملًا واتته فكرةٌ فشرع في تنفيذها فورًا. مدّ الجلد على الأرض وغطاه بأديم التاسوع ثم طواه وربطه من أطرافه جيّدًا، ووضعه أعلى صخرة جرداء. تخير قطعة من اللحم تبدو أقلهم سوءًا من حيث الشكل، ثم اتّجه إلى ماريّة، هم بمناولتها إياها ولكنه وجدها مستغرقة في النوم، فتراجع بهدوء وجلس يتأملها تحتَ ضوء الدائرة المظلمة الشّحيح، واضعة يدها على وجهها، تتردد أنفاسها بإيقاع رتيب، وديعة كالنسمة. جلسَ يتأملها وإحساس غامر بالطمأنينة والسّلام يتغلغل في صدره، كأن التاسوع كذبة، والبرد القارص نسيمٌ عليل. شعر بأن وحدته تتبدد كالدخان، شعر بالوجعِ وهو ينظر إلى ظهر كفها، لم تدع أشواك التاسوع خلية فيه دون أن توقع عليه برؤوسها الحادة. شعر أن خلفَ كل وخزة آهةَ ألمٍ،

ووراء كل ندبة دمعةً على الخد. تعجب كيفَ لم يرها وهي تشاركه التاسوع يومًا كاملًا، أيُّ لعنة تلك التي يملكها لِبأ الحنين، ليجعله يعمى عن كلّ هذا الجمال. مدَّ يده واحتضن كفها الصغير بين أصابعه، شعر به باردًا كقطعة من الثلج، أمسكه بكفيه وبدأ تدليكَه، آملًا في بثّ الدفء إليها. تأوّهت وكأنها تحلم، توقف للحظة ثم عاد لتدليك كفها بحذر بين أصابعه خشيةَ أن تستيقظ. أمضى قليلاً من الوقت جالسًا بجوارها، ثم نهض يدفعه الجوع. أخذ قطعة من اللحم وألقاها في فمه، حاول مضغها ثم لفظها، والشّعور بالاشمئزاز يكادُ يقتله. نظر إلى ماريّة وهي مستغرقة في النوم، شدّ عزمه، تناول قطعة صغيرةً، قلّبها أمام عينيه، ثم ألقى بها إلى فمه، حاول مضغها. شعر كأنها قطعةُ مطاط، ازدردها بصعوبة بالغة، ثم نهض وعاد للجلوس جوار ماريّة، تأملها محاولًا نسيانَ ما فعله قبل قليل. لم يدرِ كم مرَّ من الزمن، وهو جالس القرفصاءَ جوار رأسها، دون أن يشغله عنها شاغلٌ، ثم رآها تتحرك ببطءٍ. نهضت ممسكة برأسها، سندها حتى استوت، ثم عاد للجلوس بجوارها، التفتت نحوه متسائلة:

– هل من أخبارٍ عنِ البقيّة؟

هزّ رأسه نافيًا بيأس، أومأت برأسها، وقالت بصوت

حزيـن:

- لم يبقَ سوانا، وهذين المجنونين عند جبال المناجم.

نهـض مـن جلسـته وتنـاول قطعـة اللحـم التـي احتفـظ بهـا، قطعهـا إلى قطـع صغـيرة، وناولهـا واحـدة، رفضـت معانـدة، ألقــى واحــدة في فمــه ومضغهــا مبتســمًا، وقــال محــاولًا طمأنتهــا:

- طعمها أفضلُ مما تبدو عليه، صدقيني.

نظـرت نحـوه بشـكّ، فـازدادت ابتسـامته اتسـاعًا، وأومـأ لها برأسـه مشـجعًا. وضعتهـا بـين شـفتيها مـترددة ثـم لفظتهـا وانخرطـت فجـأة في البـكاء. قفـز نحوهـا ممسـكًا بيديهـا محـاولًا تهدئتهـا، ولكنهـا صرخـت بصـوت بـاكٍ وهـي تهـزُّ رأسَـها بعنـف:

- سـنموتُ جميعًـا هنـا، لا فائـدة مـن كل هـذا، إنهـا حـربٌ خـاسرة!

كانـت تبكـي بشـكلٍ هسـتيري، احتواهـا بـين ذراعيـه، تحـول بكاؤهـا إلى نهنهـة، ملقيـة برأسـها عـلى كتفـه، ولم تلبث سـوى قليلٍحتـى عـادت إلى النـوم، مدّدهـا بحـرص وهـو ينظـر إلى عينيهـا المغمضتـين الدامعتـين، تمـدد بجوارهـا، وطوفـان مـن المشـاعر يجتاحـه، ولم يلبـث سـوى وقـت قصـير حتـى غـرق

هو الآخر في النوم دونَ أن يشعر.

كان الطاهر مفترشًا الأرض غارقًا في النوم، ثم رأى ذلك العملاقَ الطويل. حين نظر إلى قدمه كانت أطول منه، لو وضعها عليه لسحق جسده بسهولة، وقد استطال حتى غطّى وجهه قبة السماء. يحمل بين يديه الضخمتين، هضبةً كأنها لعبة بين يدي طفل صغير، تابعه الطاهر مرتعبًا، دون أن تصدر عنه حركة واحدة تدل على استيقاظِه، والعملاق يتلفت حوله باحثًا عن شيء ما. ثم ابتعد عنه ووضع الهضبة جوار صخرتين متلاصقتين، ثم تداعى جالسًا على الأرض، وزفر متعباً، فتطايرت شجيراتُ الحياة، وحلقت مثل فراشات صغيرة حول المكان. نهض العملاق من مكانه، ودنا منهما هو وثرية، اقترب بوجهه ناظرًا إليه، أغمض الطاهر عينيه بقوة، وحين لطمت وجهه أنفاس العملاق الضخمة صرخَ برعبٍ، ثم فتح عينيه وقفز مبتعدًا عن المكان.

قال بصوت مبحوح:

- الخليل؟

رد الخليل بصوت هادئ:

- يبدو أنك كنت ترى حلمًا سيئًا.

ابتسم وقال بفرح:

- لقد نجوت من هجوم الذئاب.

ثم استدرك سريعًا مكملًا:

- ولكن أين البقية هل ...؟

رد الخليل وهو يشير إلى الصخرتين:

- ثرية ترقدُ هناك، أما السّر فهو قادم خلفنا وسيلحق بنا بعد قليلٍ.

- ولكن كيف عرفتم مكاني.

ابتسم الخليل وقال بصوت متعب:

- لم يكن الأمر صعبًا، اتبعنا المسارَ الذي صنعه جسد الثعلب على أديم التاسوع حتى وصلنا إلى هنا.

قال الطاهر بتعجب:

- ولكن كيف نجوتم من هجوم الثعالب؟

ابتسم الخليل، ثم تهاوى إلى الأرض، وقال:

- يبدو أن التاسوع يقف إلى صفنا يا صديقي

قال عبارته وأغمض عينيه مسترجعًا ما حدث قبل قليل بأدقّ التفاصيل.

صرخت ثرية، في ذات اللحظة التي قررت فيها الثعالب الهجوم عليهم، كأنها تلقت إشارة خفية من مصدرٍ مجهول لهم فأطاعتها. يمسك الخليل بجاروفه بين يديه، مدركًا أنها معركته الأخيرة. تصدى لأول الثعالب بلطمة قوية مستخدمًا ظهر الجاروف، ورأى ثرية والسر يقاتلان بيأس، والثعالب تناوشهما وعواؤها يزيد الرعبَ في قلوبهم. تزداد المعركة صعوبةً بعد امتلاء السّاحة بالثعالب حتى فاضت، صرخ الخليل غاضباً حين أدركَ أن أجسادهم ستقتسم بين الأنياب التي يراها، واستمر في دفع الثعالب التي تتدفق كالسّيل بجاروفه، والسر وثرية يقاتلان بجواره. رأى أحد الثعالب يصل إلى ساقِ ثرية، وسمعَ صرختها، فالتفت ورفع جاروفه لضربه، ولكن ثعلباً آخر قفز وألقى به أرضًا. تكاثرت الثعالب من حوله، وشعر بأحدِها ينهش لحم فخذه، نظر إلى ثرية وهي تدفع الثعلب بقدمها الأخرى، شعر بالعجز، نادى على السر كي ينقذها متجاهلًا الثعالب التي تحيط به، ولكن السّر كان مثل قبطان في سفينة غارقة، يدفع الثعالب من حوله، دون أن ينتبهَ إليهما، وحين شعر الخليل بالاستسلام، والقهر يكاد يقتله قبل أنياب الثعالب الماضية، سمع خفقان مئات بل آلاف الأجنحة كأنه يحلم، ثم ظهرت طيورُ التاسوع من بين فروع

الأشـجار. بـدت مثـل كائنـات أسـطوريَّة، وهـي تنعـق في وقـت واحـد فارتـج الدغـل. كانـت الثعالـب تعـرف عدوَّها جيّـدًا، فتراجعـت اسـتعدادًا للمعركـة، وبـدأ هجـوم طيـور التاسـوع بمناقيرهـا المعقوفـة. لم يـر أحدُهـم مـن قبـل طيـورًا في ضخامتهـا، بـدت مثـل رخ أسـطوري. كان أحدها يمسـك بثعلـب بـين أصابـع قدميـه القويتـين ويحلـق بـه وسـط ضبـاء الثعلـب وعوائـه الجريـح. دارت رحـى المعركـة أمـام أعينهـم المذهولـة، ونعيـق الطيـور وضبـاء الثعالـب وزمجرتهـا يشـقان عَنـان الصمـت الـذي كان طاغيًـا. تسـاقطت الطيـور مثـل جـدر منهـارة، وتشـتت جثـث الثعالـب في السـاحة، ولكـن مـا يبـدو أمـامَ أعينهـم، كان أقـرب إلى معركـةِ كـسر العظـم. لم يفـر ثعلـب إلى الأحـراش بحثًـا عـن النجـاة، ولم يلتجـئ طائـر إلى أفـرع الأشـجار المحيطـة هروبًـا مـن أنيـاب ثعلـب عنيـد. أتـت المزيـد من طيـورِ التاسـوع مـن حيثُ لا يـدرون، وانهمـرت الثعالـب مـن بـين الأحـراش كالمطـر، وظلّـت رحـى المعركـة تـدور بـلا رحمـة، وتتراكـم الجثث،وتتدفـق الدمـاء، ويـزداد العـواء، وتخفـق الأجنحـة، ولا يبـدو أن لهـا سـقفًا أو نهايـة. ثـم غطيـت الدائـرة المظلمـة بجناحـين ضخمـين، ونعـق طائـر بحجـم قبـة السّـماء في المـكان فارتج. عـوتِ الثعالـب ملتصقـة بـالأرض، ولاذت الطيـور بأفـرع الأشـجار الباسـقة. ثـم هبـط الطائـر العمـلاق فأثـار الغبـار

حوله، وتطايرت أوراقُ الأشجار الجافة، ودار حول الساحة، وجثث الثعالب تلتصقُ ببطن قدمه ولا تظهر مرّة أخرى، توقف عندما رآهم، وحدق في ثلاثتهم طويلًا، ثم عاد إلى الدوران حول الساحة. كانوا لا يسمعون غير صوتِ تكسر الأوراق من تحته، وضباء الثعالب الجريحة المتألمة. نهض الخليل من رقدته وهو يعرج، ساعد ثرية في الوقوف، ثم أمر السّر بنزع بعض الأشواك من سيقان الأشجار، نعق الطائر الضخم محذرًا، واقترب من السر ثم فرد جناحيه فغطت الساحة، تراجع السر خائفاً والتفت إلى الخليل قائلًا:

– لا يريدنا أن ننزع الأشواك.

أمسك الخليل بثرية وهو يبتعد بحذر، وأشار إلى السّر، فتراجعوا مبتعدين عن الدغل، وزحفوا بمشقة عظيمة، ثم واصلوا المسير حتى المنحنى الأخير بجوار الدغل. لم يجدوا الطاهر وماريَّة، ولكن الخليل لم يهتم كثيرًا، أراح ثرية على الأرض، وغرف بكفيه الاثنين من أديم التاسوع وسكبه على جرحِها النازف وسط آهاتها المتألمة، فتوقف النزيف من فوره. خلع قميصه رغم برودة الجوّ ومزقه وضمد به جرحها، ثم غرفَ من ترابِ التاسوع مرّة ثانية، وسكبه على جرح فخذه، شعر بنار تسري في عروقه. أغمض عينيه متألماً، ثم ضمد جرحه بما تبقى

مـن قميصِـه الممـزّق، ونهـض وهـو يعـرج، ثـم سـاعد ثريـة في الوقـوف. شرع موكبهـم في الابتعـاد مـن الدغـل، لا يقطـع صمتهـم سـوى آهـات ثريـة المتقطعـة. حـاول السر مسـاعدةَ الخليـل في حمـل ثريـة، ولكنـه رفـض بحـزم، وهـو يحملهـا عـلى كتفـه، ويخطـو خطـوة تلـو الأخـرى، غارقًـا في أفـكارِه. يشـمله إحسـاس غريـب بالسّـلام، كأنـه يدفـع ثمـن مـا فعلـه بهـا مـع كلِّ خطـوة يخطوهـا، يمسـح دموعَهـا، ويـداوي جـروح قلبهـا، ويعيـد ثقتهـا بالحـبّ. كان الحمـل ثقيـلًا، وجراحـه تؤلمـه، شـعر كأن سـاقه قـد بـترت وهـو يجرّهـا في خـط طويـل متبعًـا أثـرَ جثـة الثعلـب، وحـين حـاذى منزلـه أشـار إليـه، وقـال للـسر:

– اجمـع الجواريـفَ وألحـق بنـا متبعًـا أثـر الثعلـب. لا نعلـم مـا الـذي ينتظرنـا لاحقًـا.

ابتعـد الـسّر عنهـما، وواصـل الخليـل طريقـه بصعوبـةٍ بالغـة، نادتـه ثريـة بصـوت ضعيـف:

– أستطيع أن أمشي، أنزلني.

ردَّ عليها بحسم:

– لا.

تشـعرُ بالأمـان رغـم ألمهـا. أكانـت تحتـاج العبـورِ إلى عـالم

آخـر كـي تعـرف الجانـب النبيـل منـه، أم أن الخليـل تغـير مع تغـير التاسـوع؟ ليتـه كان بهـذا النبـل عندمـا أحبتـه وسـلمته قيـاد قلبهـا. غمرهـا حـزنٌ عميـق، وطافـت ذكرياتهـما معًـا بعقلهـا، فألقـت بهـا بعيـدًا، وهـي تقنـع نفسـها كلَّ صبـاح بصحـة اختيارهـا، وحتميـة اجتماعهـما. وليتـه حـينَ تركهـا اختـار أسرتـه، لكنـه اختـار ألّا يقاتـل مـن أجلهـا، اختـار ألا يسـير خطـوة نحوهـا، في حـين أنهـا كانـت عـلى اسـتعدادٍ لتعـبر بحـرًا إليـه، ثـم يـأتي الآن يـذود عنهـا بحياتـه، ويحملها عـلى كتفـه ويشـق بهـا عالمًـا موحشًـا ومتوحشًـا، لا تعلـم أين يختبـئ سـهم المـوت فيـه كـي يصطـادك. اهتـزاز جسـدها مع خطـوات الخليـل ذهـب بهـا في غفـوة متقطعـة، اختلـط فيهـا الحلـم بالواقـع، وهـي تـراه يحملهـا ملتصقـين ببعضهـما إلى الأبـد ويشـقّ بهـا طرقـات مدينتهـم، ويشـهر حبّهـا في المآذن، ولا ينزلهـا مـن فـوق كتفـه، غـير عابـئ بقانـون بلادهـم الغبـي وعرفهـا المنافـق وعاداتهـا المداهنـة. ليتهـا تظـلُّ هنـا، عـلى كتفـه إلى الأبـد، عاشـقين سـياميين، ينبضـان بـذاتِ القلـب، ويتنفسـان بـذات الرئـة. تنتبـه فـترى التاسـوع مـن خلفهـا غامضًـا ومخيفًـا، فتتشـبث بالخليـل بحثًـا عـن الأمـان والـدفء. اقتربـا مـن الهضبـة، أصبـح الصعـود أكثـرَ مشـقة، دهشـت مـن قـوة التّحمـل التـي لديـه وهـو يصعـد بعـزم إلى الأعـلى بخطـوات بطيئـة ولكنـه لا يتوقـف. يصلهـا لهاثـه

المتقطع وأناته المتباعدة، وترى أثر قدمه على الأرض فتغمرها الشّفقة، وتعود للإلحاح عليه بإنزالها، ويرفض بذات الإصرار، حتى وصلا إلى الطاهر وماريَّة. فزع الخليل في البداية فقد ظنهما ميتين، وحين دنا منهما وجدهما نائمين في أحضان بعضهما. شعر بمزيج من الدهشة والفرح، أخيرًا عادوا ليكونوا مع بعضهم رغم خسائرهم الآنية، سيطوعون هذا التاسوع رغم قسوته البائنة، وسينتصرون في معركة الحياة وإن طالت.

غرق الطاهر في أفكاره، محاولًا وزنَ الأمور بميزان دقيق، نظر إلى الخليل وقال مشركًا إياه في تفكيره:

– أيتغير التاسوع ، أم يبوح بأسرارهِ؟ كنت كثيرًا ما أنظر إلى الدّغل من منزلي، فيبدو لي صندوقًا من الأسرار. لم أكن أنتظر أن يأتي يومًا فيكشف لي عنها أو عن بعضِها طائر مثل الذي تحكي عنه. كم تظن أنه احتاج من الزمن، كي يصل إلى هذا الحجم الضخم الذي وصفته لي؟ يومًا، عشرة، مائة؟ لماذا لم يرحل مع بقية الطيور في نهاية اليوم كما تفعل البقية؟ أم أن حياة الطيور في الدغل لا تخضع لقانون التاسوع؟

رد الخليل بعد صمت قصير:

– حتى بقية الطيور كانت أضخم كثيرًا من الطيور التي

اعتدناها. يستطيع الواحد منهم حملَ ثعلب بين مخالبه، كما أن الثعالبَ تعرفها جيّدًا، ما إن سمعت صوتها حتى استعدت للمعركة، ربما كان الأمر عكسَ ما نعتقد، والثعالب هي طعامُ طيور التاسوع داخل الدغل.

أومأَ الطاهر برأسه موافقًا:

- لم أرَ ثعلبًا هرمًا في التاسوع، رغم أنها تتسافد، ونرى جراءها في أوقات متباعدة. لذلك فإنّي كثيرًا ما كنت أسألُ نفسي، كيف لا يزداد عددها فتبتلع التاسوع. ربما كان كلامك صحيحًا، وكانت هي فرائس الطيور داخل الدغل.

قطع عليهما الحديث آهات ثرية، نهض الخليل وتبعه الطاهر، كانت تهذي وهي نائمة، تلفت الخليل حوله حائراً بحثًا عن غطاء يقيها البرد. أشار الطاهر إلى جلد الثعلب بتردد. تناوله الخليل وهزه بعنف نافضًا عنه أديم التاسوع، غطّى أعلى جسدها به، فخفت أنينها وعادت إلى نومِها العميق. لم يلبثوا إلا قليلًا، حتّى أتى السّر يحمل عددًا كبيرًا من الجواريف، ألقاها جانبًا، وجلس محيّيًا الطاهر، وقال بصوت متعب:

- أشعر بجوعٍ قاتل.

ناولـه الطاهـر قطعـة مـن لحـم الثعلـب، قلبهـا الـسّر بـين يديـه محتـاراً، طمأنـه الطاهـر قائـلًا:

- طعمُه سيئ ولكنه محتملٌ، ستعتاد عليه.

أخـذ الـسر قطعـة صغـيرة، مضغهـا مشـمئزاً وابتلعهـا بصعوبــة.

ظهـر الغضـب عـلى الخليـل، نهـض مـن مكانـه، وانتـزع بقيـة اللحـم النـيء مـن يـد الـسر وألقـى بـه بعيـدًا، قـال غاضبـاً:

- لسـنا وحوشًـا كـي نـأكلَ اللحـم نيئًـا، سـننضجه في نـار المناجـم.

قال الطاهر بتردد:

- ولكـن صالـح لـه شروطـه السَّـابقة، يجـب علينـا الامتثـال لهـا حتـى يُنضِـج لنـا اللحـمَ.

رد الخليل بذات النبرة الغاضبة:

- ليـس لديـه خيـار، إمّـا أن ينضـج لنـا اللحـم، وإمّـا سـنطعمه لثعالـب التاسـوع الجائعـة، ونـرى هـل يملـكُ حصانـة منهـا أيضًـا.

نظر الطاهر إليه ثم قال متعجبًا:

- لم تكـن مصادمًـا بهـذا الشّـكل سـابقًا، كنـت أراكَ أميـل إلى

الموادعة والسّــلامة.

ابتعـد الخليـل خطـوات مـن مكانـه، نظـر إلى عـالم التاسـوع في الأســفل، رآه كهاويــة مظلمــة ضخمــة وغامضــة، ردّ باقتضــاب:

– غــيّرني التاســوع، أو أنــه بــيّنَ لي حقيقــة نفــسي، وعرّفنــي بهــا جيِّــدًا.

التفت إلى الطاهر والسّر وقال بنبرة آمرة:

– ســنذهب إلى جبـال المناجـم وننضـج لحـمَ الثعلـب، ونعـود ببعــض فــراخ التاســوع أيضًــا، وأتمنــى صادقًــا أن يمانــع صالــح في ذلــك.

قالَ الطاهر معقبًا:

– تظـل مشـكلة المـاء قائمـةً، هـل سـنشرب الـدم بـدلًا منها، مـا الفـرق بينـه وبـين اللحـم النيِّئ؟

ردَّ السر سريعًا:

– قالت ثرية إن الماءَ موجودٌ في الدغل.

تنهد الطاهر يائسًا:

– الدغل مرّة ثانية، وكيف سنستطيع الوصولَ إلى هناك.

صمت الجميع، الأهوال المختبئة هناك، تجعل من ماء الدغل سرابًا لا يُطال، بينهم وبينها أشواك الدغل وأنياب الثعالب الجائعة، وربما لا ترحب طيور التاسوع بهم هناك، غرق كلّ منهم في داخلِه.

قال الخليل بصوت مرهق:

- دعونا ننتهي من مشكلة الطعام أولًا وبعدها لكل حدثٍ حديث. سندع الطاهر هنا ونذهب إلى الجبالِ أنا والسّر، ولن نعود إلا باللحم ناضجًا. هذا وعد مني.

أخذَ كل منهما جاروفًا، وجمعا قطع اللحم المتناثر على الصخور وشجيرات الحياة، وانحدرا سريعًا نحو أوسط التاسوع، يلفهما ضوءُ الدائرة المظلمة الشحيح والبرد.

حيلة التاسوع

يمتد التاسوع مثل حكاية لم تكتمل فصولُها، متشابكة الخيوط، متعددة الأوجه، لا يعلم أحدٌ أين تفضي به أحداثها، غامضة ومثيرة ومحفزة للخيال. يعبر الخليل والسّر بين دروبه، وكأنهم ينتقلون بين صدى صوت الحاكي وخيال المستمع، وليل التاسوع بضوئهِ الأحمر ودائرتهِ المظلمة والذي يلقي بظل من الخوف على المكان، فيتحول صوت الحاكي لهمهمة ساحرٍ يجيد استخدامَ أدواته بحذق ومهارة. يستسلم المستمعُ لاستثارة تفضي إلى رجفة تدّب في جسده، وينتبه بين الفينة والأخرى إلى أنّه ليس في عالم التاسوع فيبتسم بسعادةٍ ويعود مصغيًا بمتعة الإحساس بالإثارةِ والأمان، يقوده الفضول وصوتُ الحاكي الآسر. ويمتد ليل الحكايات حتّى يطلع الصباح، وتسكت شهرزاد عن الكلام المُباح.

هل غيّر التاسوع السّرَ أيضًا؟ ومَنْ لم يغيّره؟ ظل السّر

طـوال حياتـه يسـتمع إلى صـوت عقلِـه ونـداءِ نفسـه. وجـد نفسـه يقـودُ قاطـرة معبـأة بلِبـأ الحنـين وغبـارِه. يقطـن في مناجـم الحنـين تلفحـه نارهـا وتعبـئ صـدره بغبارهـا الطـازج. لم يكـن يملـك غـير التأمـل في عالمـه السّـابق والبحـث عـن أسـباب شـقائه القائـم. لكـن مـن كان في عمـر الـسرّ الـذي يقـارب السـتين وعنيـداً مثلـه لا يعـترف بسـهولة بأخطائـه. فلـو أنـه لم يـأتِ إلى التاسـوع وظـل في عالمِـه الأرضيّ قرنًـا آخـر مـن الزمـان، لمـا حـادَ عـن الطريـق الـذي اختطـه لنفسـه، ولظـلَّ حاديـه هـو مـا يوافـق هـواه. لكـن للتاسـوع سـلاحه المـاضي، سـلاح الفـراغ. المشـاهد ذاتهـا بحدودهـا الضيقـة ومعالمهـا المتكـررة وروتينهـا القاتـل تجعـل الإنسـان يفـرّ إلى داخلـه لتبـدأ لعبـة التاسـوع الأثـيرة. مـع كلّ عـودة تتفتـت صخـرةٌ مـن العنـاد، وتنجـلي غشـاوةُ العـين، وتتضـح أخطـاءُ النفـس أمـامَ عـين صاحبهـا، ويتـم اسـترجاعهاعدداً لا نهائيـاً مـن المـرّات، فيسـكنه النـدمُ، وتمتلكـه الحـسرة، ويتمنـى أن يعـود بـه الزمـن مـرّة أخـرى ليصلـح أخطـاءَه. يمنحـه التاسـوع الفرصـةَ بغبـار الحنـين في أثنـاءِ اليـوم وبلبائـه في ختامِـه ولكـن بشروطـه الخاصّـة، فـلا يملـك الرائـي غـيرَ المعايشـة والإحسـاس بالنـدم مـع العجـزِ عـن التغيـير. وهكـذا يمـضي بـه التاسـوعُ يومًـا تلـو الآخـر. وعنـد انقضـاء يومـه الأخـير ووقوفـه جـوار الـذي

لا اسـم لـه يـدرك جيّـدًا لمـاذا كان التاسـوع يناسـبه وكأنـه فُصِّـلَ عـلى مقاسِـه فلـم يـزد أو ينقـص شـيئًا. والتسـليم هنـا ليـس تسـليمًا قدريًّـا بـأن مـا حـدث كان يجـب أن يحـدث، بـل تسـليمٌ أقـرب إلى الإقـرار بالذنـبِ وعدالـة الحكـم والإذعـان لسـلطة العقـاب. وفي هـذا الطريـق كان يسـير السّـر، يتسـاقط فتـات عنـاده كلـما طـافَ بالقاطـرة واستنشـق غبـار الحنـين، ولفحتـه نـار المناجـم التـي لا تنطفـئ، وشـدةُ الشّـوق إلى أيام ذهبـت في غيابـة التّاريـخ. عندمـا تغـيّر التاسـوع شـعر كمـن كان معلقًـا بحبـل مشـنقة فانقطـع قبـلَ أن يخنقـه، وأقـرّ بـأن نـداءَ نفسـه وإتبـاع هواهـا لـن يـورده سـوى مـوارد الهـلاك. لـو أن صالحـاً لم يجعلـه يـشرب دمَ طائـر التاسـوع لاتبعـه، ولكنـه أقـر في قـرارة نفسـه بقـصرِ نظـره، وقـرر إتبـاع مـا يـراه الآخـر لعـل ذلـك يوصلـه إلى بـرّ الأمـان. وقـد وجـد في الطاهـر والخليـل مـا كان يبحَـثُ عنـه: صـوابَ الـرأي، وعمـقَ الفهـم، والقـدرةَ عـلى اتخـاذ القـرار بـما يناسـبُ الموقـف. فاتبـع خطواتهـما وانقـاد إليهـما، ولم يكابـر رغـم أنـه يفوقهـما سـنًّا وخـبرةً في الحيـاة، فقـد تـذوق ثمـنَ الكبريـاء المزعومـة في التاسـوع وهـو يسـير جـوار الخليـل. لم يكـن يبحـث عـن أمانِـه بـل عـن أمـان الخليـل، ففـي نجـاة الأخـير نجاتُـه.

تكاثـرتِ الأحجـار والصخـور الصغـيرة تحـت أقدامهـما،

وتعالت قمم الجبال حتى عجزا عن رؤية قمتها، وظهر مدخلُ المنجم ينبض بضوئه الأخضر الخافت، ولما وصلا، كان ربيع يجلس جوارَ المدخل، يبحث عن الدفء في ليل التاسوع البارِدِ. لم يلقيا عليه التحية بل وقف السر جوار الخليل الذي استندَ إلى جاروفه، وأشار لربيع بالاقتراب، دنا منهما حذرًا، قال الخليل بترفع:

- أين سيدُك أيُّها المهرج؟

أشار ربيع إلى قاطرةِ الحنين، أمره الخليل باستدعائه، فركضَ ربيع على الفور جهةَ القاطرة ونادى صالحاً الذي جاءَ ينفض يديه وحياهما بترحاب، ثم قال للخليل باسمًا:

- مرحبًا يا صديقي، لا بدَّ أن الجوعَ هو ما دفع بكَ إلى هنا!

رد الخليل عابسًا، مناولًا إياه لحمَ الثعلب:

- نعم. نرغب في طهوِ هذا اللحم الآن.

سلَّك صالح حنجرته، وقال مخاطبًا الخليل:

- أنت تعلم شروطي، فلا بَّد أن السر والبقية قدْ أخبروك بها، كما أن هناك شرطًا جديدًا سأبلغك به الآن، لأنه يخصّك بطريقة ما.

عقد الخليل يديه أمام صدرِه وقال باسمًا:

- أطرب مسامعي بجميلِ حديثك يا صالح.

أشار صالح إلى منزل ثرية، وقال باسمًا:

- أنا لا أستأذنك بل أخبرك. فأنا أعلمُ أن المنزلَ يعود إلى حبيبتك التي لفظتك. أنا أرغب في السّكن هناك، ويمكنك إقناعها بالإقامةِ في منزلك، ليجتمع الحبيبان في التاسوع أخيرًا.

لمع الغضبُ في عيني الخليل، وزعق في وجه ربيع قائلًا:

- ألا ترى أنّي لا أرتدي قميصًا في هذا البرد؟ انزع قميصَك، وبإمكانك أن تتدفأ في قعر المنجم.

نظر ربيع إلى صالح، ولكن السّر لم يمهله. نزع عنه القميص، ثم صفعه قبلَ أن يعطي القميص للخليل. لم يعلق الأخير وهو يرتدي القميصَ الضيق بصعوبة، ثم نظر إلى صالح، وقال بنبرة باردة:

- لدي عرض آخر لك، ما رأيك أن تنضج اللحم، مقابلَ أن نعطيك ما يسدُّ رمقك في هذا التاسوع اللعين.

ضحكَ صالح بسخرية واضحة وقال:

- يبدو أنك غيرُ ملمّ بأبعاد الوضع كاملة، أنا لديّ

النــا...

لوح الخليل بجاروفه في وجهه ثم صرخ بصوت هادر:

- هذا وإلا سأطعمُك لثعالب التاسوع الجائعة.

أمسك السّر عنقَ صالح، وهزه بعنف.

قال صالح جزعاً:

- ولكنكم ستضطرون إلى أكل اللحم نيئًا إذا متُّ.

ضَحِكَ الخليل بسخريّةٍ ورد قائلًا:

- سأعتبره عقابًا عادلًا على قتلنا لك.

ثم التفت إلى السر متسائلًا:

- هــل تظــنُّ أن القاطـرة مـا زالــت تعمــل؟ الطريــق مــن هنــا إلى الدغــل بعيــد جــدًّا.

دفــع الــسر صالحــاً بعنــف ملقيًــا إيــاه عــلى الأرض غــير عابئ بصياحــه وهــو يعــترض عــلى مــا فعلــوه، في حــين تكــوَّم ربيع تحــتَ صخــرة ضخمــة يتابــعُ مــا يحــدث بخــوف. لم يمــض وقــت طويــل قبــل أن يعــود الــسّر وهــو يقــود القاطــرة. أوقفهــا ثــم نــزل مبتســمًا. فتــح نافــذةَ القاطــرة، فســمع الخليــل نعيــقَ عــشرات الفــراخ في وقــت واحــد.

قال صالح يائساً:

- خفنا عليها من الاختناق داخلَ الكهف.

صفق الخليل بيديه مسرورًا، ثم أشار إلى ربيع وصالح بالصعودِ في القاطرة المزدحمة بالفراخ، وركب هو جوار السّر صعدتِ القاطرة ببطءٍ اتجاه سماء التاسوع، وعندما استوت في مسارها كان التاسوع يبدو في أعين الخليل مثلَ منزل صغير للألعاب، أخذه إلى حيث تلهو آسيا ابنته بألعابِها، كان لديها واحدة تحتوي على منزل وحديقةٌ أشجارها صغيرة وأبقارٍ ذات قرون رائعة. شعر بحزن يجتاحه، نفخ من منخريه والقاطرة تعبر أعلى الهضبة وتقترب من الدغل. هبطت القاطرة إلى أسفل لتمرَ أعلى الأشجار مباشَرة. رأوا عِدّة ثعالب تتجول في المكان، رفعت رؤوسها تتابعُ القاطرة وهي تحلِّق فوقهم. التفت الخليل، موجهًا كلامَه إلى ربيع:

- سأبدأُ بك أوَّلاً كمقبلات لتلك الثعالب الجائعة، قبل أن أدفع لها بلحم صالح المتعفن هذا.

صرخ ربيع بهيستريا:

- ولكني لم أفعل شيئًا، هل الجوع ذنبٌ يجب أن أُقْتَلَ

من أجله؟ سأكون معك وطوعَ أمرك، لكن أرجوك لا تلقي بي إلى تلك الثعالب المتوحشة!

ارتفع صوتُ عويله. لمح الخليل قطرات من العرق تنعقد في جبين صالح رغم برودة الجو، أشار إلى السر بالنزول إلى الأرض، فتح الخليل باب القاطرة، وأشار إلى صالح بحركة مسرحية محتشدة بالسخريّة:

- تفضل، أيها الملكُ الهمام!

رد صالح بصوتٍ ضعيف:

- إنكم ترتكبون خطأً فادحًا!

كانت عينا الخليل باردتين كنصل السّكين، واختفت الابتسامةُ من وجهه، فبدا وكأنه قُدَّ من صخرٍ. نهض صالح من مكانه، وخرج من القاطرة، ثم التفت إلى الخليل قائلًا:

- ربما نصل إلى حلٍ وسط، دعنا نتفاهم.

دفعه الخليل مستخدمًا ظهر جاروفه وردّ عليه بصبر نافد:

- تحاور مع الثعالب. انتهى الحوارُ بيننا!

ثم ركب القاطرة التي حلقت ببطء، ودارت دورة حولَ

المكان. كان الخليل يتابع حركة صالح الخائفة، وتلفته القلق، رأى من الأعلى ثعلبين يخبان السير اتجاهه. أشار للسر بالتريث وهو يتابع بترقب. بدأ صالح الركضَ نحو وسط التاسوع، وهو يتلفت خلفَه مذعوراً. لا بدَّ أنه شعر بدنو الثعلبين منه، ضاقتِ المسافةُ بينهما والثعلبان يزدادان سرعةً. وصلهما صراخُ صالح مستغيثًا، وهو يلوّح بيديه إلى القاطرة بيأس، وجّهَ الخليل حديثه للسر قائلًا باقتضاب:

- لننقذه.

اقتربت القاطرة من صالح بسرعة، وهبطت بشكل مهيبٍ بينه وبين الثعلبين اللذين تراجعا خائفين. لوّح الخليلُ بيديه حاثًّا إياه على العجلة. قفز صالح إلى القاطرة وسطَ نعيق الفراخ المذعورة وهو يلهث بإعياء، وما إن استرد أنفاسه حتى شرع في الصراخ:

- كادت تلحقُ بي تلك الثعالبُ اللعينة، كادت تلحقُ بي!

لم يرد عليه الخليل، وقال موجهًا حديثه إلى السر:

- عُد بنا إلى جبال المناجم، لدينا لحمٌ علينا إنضاجه.

اعتدل مسار القاطرة، وهي تقطع التاسوع طولًا، وصولًا إلى جبال المناجم. هبطت جوار مداخل الكهف،

قـال الخليـل لربيـع بلهجـة آمـرة:

- خذ ثلاثةً من الفراخ واذبحها وأعدّها للشّواء.

أمسـك ربيـع الفـراخَ الثلاثـة، وقطـع رؤوسـها مفرغًـا الـدم في الصخـرة المجوفـة، شـعر الخليـل بالاشـمئزاز، ولكنـه اكتفـى بالمتابعـة. ناولهـا ربيـع لصالـح، الـذي أخذهـا بانكسـار وهـمَّ بمغـادرة القاطـرة، صـاحَ بـه الخليـل:

- لا تنسَ لحم الثعلب!

عـاد صالـح وأخـذه مـن القاطـرة، ثـم اختفـى في جـوف المنجـم، وعـاد بعـدَ قليـل باللحـم ناضجًـا، تفـوحُ منـه رائحـة الشـواء. شـعر الخليـل بالجـوع يجتاحـه مثـل داءٍ غريـب يصيبـه للمـرّة الأولى. شـعور مختلـف عـن النُّعـاس، شـعر بالنُّعـاس مثـلَ رحلـة عـلى جناحـي السّـحاب، يـسري في جسـده فيصيبـه خـدرٌ لذيـذ ورغبـةٌ عارمـة في الاستسـلام لأسرِه الجميـل، لكـن الجـوع يهاجمـه الآن مثـل عـدو متربـص. لم يكـن اشـتهاءً للطعـام، بـل كان ألمًـا يطعنـه في أمعائـه فيشـعر بإحسـاس أقـرب إلى الغثيـان ويرغـب في التّخلـص منـه. غمـره شـعور بالانزعـاج مـن الرائحـة، وتمنى لـو كان بإمكانـه إلقـاءُ اللحـم مـن القاطـرة، لكنّـه بـدلًا مـن ذلـك لاذَ بالصمـت. دارت القاطـرة حـولَ الهضبـة بحثًـا عـن مـكان ملائـم للهبـوط، قبـل أن تحـطّ جـوار الصخرتـين

حيث كانت ثرية لا تزال غارقةً في النوم لا تشعرُ بما يدور حولها.

قفزَ الخليل من القاطرة ثم جثا بالقُربِ منها. سمعها تهمهم بكلمات غيرِ مفهومة كأنها تحلم. مسَّ خدها بظهر يده، شعر أن حرارتها مرتفعة قليلًا، زفر ونهضَ من مكانه. نظر إلى الطاهر، فلمح ابتسامة المتشفي مرتسمة على وجهه وهو ينظر إلى صالح الذي يقف بانكسار بجوار القاطرة، ثم التفتَ إلى الخليل وقال ساخرًا:

- شرفنا ملكُ التاسوع بالزيارةِ في هضبتنا!

ضحك الاثنان معًا، وربيع يشرعُ في توزيع اللحم المشوي عليهم، ثم وقف جوار صالح، التفت الخليل نحوه قائلًا:

- خُذْ نصيبَك من اللحم، وأعطِ صالح نصيبَه أيضًا.

وضع ربيع يديه على رأسه وانحنى دلالة على الشّكر، في حين التفت الخليل نحو الطاهر متسائلًا:

- كيف حال مارية الآن؟

هزَّ الطاهر رأسه دلالةً على الرضا، ورد مجيبًا:

- هي بخير.

اقتربا منها، ألقى عليها الخليل التّحية وسألها عن جرحها، فأومأت برأسها مطمئنة إياه بفم ممتلئ بالطعام، تذكر الخليل أنه لم يأكل، قضم قطعة من اللحم الذي في يده، وازدردها بسُرْعة.

جلس الخليل بعد أن شبع مع الطاهر بعيدًا عن الجميع. بدا التاسوع من أعلى هادئاً كرضيع يغفو في حضن أمّه. ابتسم وقال للطاهر:

- هذا التاسوعُ مخادع. يختبئ الموتُ فيه خلف كلّ أَكَمَةٍ وهضبةٍ وشجرةٍ، بينَ الجوع والعطش وأنيابِ الثعالب.

ضحك الطاهر قبلَ أن يرد قائلًا:

- صدقني، رغم وحشية التاسوع، فإنّنا أخطرُ مَن يمشي عليه. ألم ترَ أن الثعالبَ حاولت افتراسنا فافترسناها؟ وطيورَ التاسوع أنقذتنا ووقفت بجانبنا وبدلًا من شكرها التهمنا فراخها؟!

ردّ الخليل بسرعة:

- ولكننا فعلنا ذلكَ في معركة البقاء.

قال الطاهر مبتسمًا:

- كذلك الثعالب فعلتْ، ولكننا نتهمها بالشرِ والوحشية رغم أنها تقاتل للبقاءِ فقط. هذا هو ديدن الإنسان، يتهم كلّ من لا يتفق مع مصلحته بالعداء. وفي سبيل تحقيق ذاتِ المصلحة يؤذي العدوَ والصديقَ لا فرق.

صمت الخليل، الزاوية التي يتحدثُ منها الطاهر كانت قاسية، ولكنها حقيقية وموجعة في الوقت ذاته. فكّر أنه التهم صديقًا قبل قليل.راوده إحساس عجيب بأنه كائنٌ متوحش ومؤذٍ. أوشك على لمسِ فمه بحثًا عن أنياب أكثر طولًا وحِدّةً.

قطع عليهما الحديث قدومُ السر مذكرًا إياهما بمشكلة الماءِ التي لم تحل بعدُ. يشعر الخليل بالعَطش ويجتهد في تناسيه. قال الطاهر:

- دعونا نجتمع ونناقش الأمرَ.

ثرية لا تزال نائمة، اجتمع الثلاثة إلى مارية، في حين ظلّ صالح وربيع قابعين جوار القاطرة عندَ الصخرة.

ابتدر الخليل الحديث قائلًا:

- لو سلمنا بصحةٍ استنتاج ثرية فلا بدَّ من العودة إلى الدغل، وفي هذا مخاطرة تصل إلى الموت.

- والعطش أيضًا سيؤدي بنا إلى الموت.

ردّ السرّ بسرعة

قال الخليل:

- لمَ لا نجرب دمَ الطيور والثعالب؟

ظهر الامتعاضُ على وجوهم، وأدار السّر وجهه إلى الجهة الأخرى مظهراً رفضه. ردّ الطاهر بصوت هادئ:

- لا يمكننا الاعتماد على الدمِ لسببين، أوَّلهما أنّه مصدرٌ محدود ولن يكفي لفترة طويلَة، فاصطياد طيور التاسوع صعبٌ عندما تنبت لها أجنحة، والثعالب اصطيادها أصعبُ. ثمّ لا يمكن لأحد منّا أن يتنبأ بما سيحدث لنا حين نشرب الدم بانتظام، فربما أدى هذا إلى إصابتنا بالأمراض.

رد الخليل مستنكرًا:

- أمراض في التاسوع؟

التفت إليه الطاهر وقال:

- لم يكن هناك جوع وعطشٌ ونوم في التاسوع، لماذا علينا استبعاد الأمراض؟ لكل شيء بداية.

ساد الصمتُ بينهم. كان الطاهر مقنعًا في حديثه. تحول التاسوع إلى مكان تصبح الحياة أصعب فيه بين كلّ لحظة

وأخـرى.

قال الخليل باسمًا:

- هذا لو كانت هناك حياة من الأساس في التاسوع!

لم تكـن جملتـه مفهومـة، ولكـن لم يعقـب أحدُهـم. أتـت ثريّـة تجـرّ قدمهـا وجلسـت بينهـم والنُّعـاس مـا زال يداعـب أهدابهـا.

قال الخليل بصوتٍ هادئ:

- إذن، لا مفرَ من الذهاب إلى قلبِ الدغل وجلب الماء.

قالت ماريَّة بحماسةٍ:

- سنذهب جميعًا ونعود بكمية وافرة منها!

هزّ الطاهر رأسه وقال:

- أنتـما مصابتـان وسـتعيقان المَسِـير. سـتبقيان هنـا ونذهـب نحـن الثلاثـة ونـأتي بالمـاءِ.

أشار السّر برأسه إلى ربيع وصالح وقال متسائلًا:

- وهؤلاء؟

نظرت ثرية إليهما وقالت ببغضٍ:

- لنقيدهما.

هز الطاهر كتفيه بحَيرةٍ وقال:

- لا نملكُ ما نقيده بهما.

ردّت ماريّة بحماسةٍ:

- يمكننا صنع حبالٍ متينة من لحاء شجيرات الحياة.

دبَّتِ الحماسةُ في الجميع وهم يجمعون سيقانَ الشّجيرات من حولهم، حتى ربيع وصالح أُجبِرَا على المشاركة في العمل. لم يمر سوى وقت قصير حتى نجحوا في جمع قدر كبير منها، ثم شرعوا في نزعِ اللحاء عنها. بدأت ماريّة فتلَ الحبال ببراعة بمشاركة ثرية،سُرعان ما صنعوا حبلين طويلين متينين. نهر الخليل صالحاً وربيعاً معاً، ثمّ قام بربطهما إلى الصخرة وسط اعتراض صالح لسوء المعاملة التي يلقاها. لم يحفل به الجميع، وعادوا إلى الجلوس بعيدًا عنهم.

عادت ماريّة إلى النقاش السّابق ذاته قائلة:

- لا نستطيع البقاء هنا، فالمكان ليس آمنًا حتى مع تقييد هؤلاء.

قال الطاهر:

- ولكننا نعلمُ ما ينتظرنا هناك، وحالتكما لا تسمح

بوجودكـــما وســـطَ الدغـــل.

قاطعه الخليل:

- بالفعـل الخطـر هنـا كبـير، رغـم تقييـد الاثنـين فنحـن لا نـدري مـا يخبـئ التاسـوع.

ثم التفت إلى السر قائلًا:

- أخـبرني، هـل تظـن أنّ القاطـرة لهـا القـدرة عـلى العبـور فـوقَ الدغـل؟

هز السّر رأسه نافيًا قبل أن يردّ:

- لست متأكدًا، لم أصل هناك من قبل.

أومأ الخليل برأسه متفهمًا قبل أن يقول:

- عندمـا كنـتَ تـوزع الغبـارَ واللِّبـأَ وتصـل إلى حـدود الدغـل، أكنـتَ تختـار الـدوران والعـودةَ أم أن القاطـرة هـي التـي تقـوم بذلـك؟

غرق الخليل في التّفكير ثم قال حائراً:

- لسـتُ أدري بالضبـط. إنـه شيء يشـبه توافـق المقـدرةِ مـع الالتـزام بطاعـةِ الأمـر. لم أفكـر في العبـور فـوق الدغـل، لأن مهمتـي تنتهـي عنـدَ حـدود الدغـل مبـاشرة، ولكنـي كنـت موقنًـا في داخـلي أننـي لا أسـتطيع العبـورَ مـن فوقـه أيضًـا.

نظـر الجميـع نحـو الخليـل، الـذي نكـس رأسـه نحـو الأرض، وقـال بصـوت ثابـت:

- لا مفـرّ مـن المخاطـرة. سـيذهب واحـد منـا فقـط إلى الدغـل بالقاطـرةِ ويبحـثُ عـن المـاء، ويبقـى الاثنـان هنـا، لحراسـة ثريـة وماريّـة ، هـذا رأيـي.

تبادلـوا النظـرات القلقـة بينهـم. عقـدَ الطاهـر يديـه أمـامَ صـدره وقـال متسـائلًا:

- ومن تظنه يصلح لهذه المهمة في رأيك؟

ردّ السر سريعًا:

- أنا من سيذهب بحكم إجادتي لقيادةِ القاطرة.

أشار الخليل بيده معترضًا، وقال بذات الصوت الثابت:

- أنـا الـذي يجـب أن يذهـب. تعلمـون هـذا هـو يومـي الثّامـن، وهـو يقـارب عـلى نهايتـه، وتبقـى لي يـوم واحـد فقـط وبعدهـا سـأغادر عـبر إحـدى الدائرتـين. سـأغادر في أيـة حـال، فدعـوني أقـم بهـذه المخاطـرة لأجلكـم.

اغرورقـت عينـا ماريّـة وثريـة بالدمـوع، في حـين لـفّ الحـزن البقيـةَ. بـدا لهـم أن الخليـل ذاهـب في طريـق لا عـودة منـه. شـعروا أن الليـل أضحـى أكثـر ظلمـةً والهـواء أكثـر بـرودةً

والتاسوع أشد وحشةً. قال الطاهر معترضًا:

– كنا ثمانية. ذهب الزبير ولم يأتِ أحدٌ بدلًا منه، ثم فقدنا اثنين قادتهم الأنانيةُ والطموحُ الشخصي لخيانة المجموعة، ثم تريد أنت أن تذهب الآن وتتركنا. لا يا صديقي. سنذهب معًا ونموت أو نبقى معًا، فلو لم تعد أنت فإن الموت عطشاً سينتظرنا على أية حال.

أيّده الباقون وارتفع ضجيجهم في ليل التاسوع الهادئ. رفع الخليل يده فصمتوا جميعًا، ثم قال:

– ما دمنا استطعنا الوصول إلى هنا رغم كل معاناتنا، فلا أحد يعلم إلى أين يمكن أن نصل أيضاً. لا داعي للمخاطرة بدوافع عاطفيّة بحتة. بقاؤكم هنا يعني أن نضالَ الإنسان في هذا العالم سيستمرّ. لا جدوى من موتنا جميعًا.

نهض الخليل من مكانه، وتحرك مبتعدًا عنهم بخطوات سريعة. وقف بجوار القاطرة فلحقت به ثرية تحجل على قدم واحدة. استندت إلى القاطرة، نظرت نحوه وقالت بصوت خافت:

– ستعود؟

يمتد التاسوع متسعًا من تحته، مكتنزًا باحتمالاتٍ شتى.

- سأعود. تعلمت بطريقة قاسية أنني من أصنع مصيري، ولكن قبل كل هذا يجب أن أعتذر عن كل ما حدث سابقًا، عن طعناتي المتتالية لك، عن فقداني الثقة بنفسي قبل فقدان ثقتي بك، وعن خشيتي من مواجهة مشاكلي، وعن بحثي عن أماني الشخصي على حسابك، وعن أنني لم أكن أستحقك، ولم تكوني تستحقين أن تلتقي بشخصٍ مثلي يحول حياتك إلى جحيم بشكوكِه وظنونه، ويسقط تجارِبه السّابقة عليك، فيصبغ حياتك بعدم اليقين والحزن. أتأسف على كلّ هذا، وعندما أشق سماء التاسوع بالقاطرة، سألتفت بحثًا عن كفك وهو يودعني. أبحث عن الاتزان للخروج من شرنقةِ تاسوعي الخاصّ، وهذا يقتضي القليل من التفهم والكثير من الغفران من جانبك.

أطرقت بوجهها، سقطت دمعة لم تحاول منعها، نظرت نحوه طويلًا. شعر بملابسه تتداعى وجلده يتساقط ونظرتها تتفحصه وتخترقه. يقف أمامها عاريًا من كل شيء إلا هو بجوهره الحقيقي، بخوفه وجبنِه وإيثاره لنفسه واهتزاز ثقته وحبّهِ لها. ذلك الحبُّ الذي عَبَرَ عالمين، وصمد مئةَ عام، وسيدومُ مئةَ مثلها. تمنى أن تنظر إلى مكان آخرَ، أن تعتقه من هذا التداعي الصامت والإقرار الأبكم الفصيح. طالت اللحظة حتى بدت

دهـرًا. أسـند ظهـره إلى القاطـرة، شـعر بجهـدِ مَـن صعـد الجبـل راكضـاً، وتلـك النظـرة ذاتهـا التـي ألقيـت عليـه منـذ بـدء الكـون وسـتدوم حتّـى فنائِـه ،تحرقـه خليـة تلـو الأخـرى، وتحيلـه رمـادًا مـن الذكريـات والألم. ثـم تنهـدت، فعـادت إليـه أنفاسُـه الهاربـة، وعـاد التاسـوع تاسـوعًا، يغمـره الظـلام ويلفـه الـبرد.

قالت بصوتها الهامس:

- لسـت عاتبـة عليـك. مـا حدث قـدْ حـدث وطمرتـه الأيام وواراه عالمـان، ولم يبـقَ منـه سـوى الذكـرى. أدرك أنـك آلمتنـي وأوجعتنـي، وأننـي اضطـررت إلى الوقـوفِ وحـدي، والتعـافي دون مسـاعدة مـن أحـدٍ، فأعـدتُ بنـاءَ حيـاتي مـن الأنقـاض التـي خلفتهـا. ولكنـي لسـت عاتبـة عليـك. ربـما كنـت أحتـاج العبـور إلى عـالم آخـر كـي أرى جانبًـا مختلفًـا منـك وأسـتوعبه وأحبـه أيضًـا. بقـدرِ مـا صنعـت في حيـاتي مـن دمـار فأنـتَ هنـا في هـذا التاسـوع جهـدت لمعالجـة كلّ مـا خربتـه. ربـما ليسـت لـدي القـدرة عـلى النّسـيان، ولكنـي أسـامحُك، وأغفـر لـك، وأشـكرُك لأنـك موجـودٌ في التاسـوع وسـتبقى مـن أجلنـا. ربـما نجتمـع في التاسـوع أو في عـالم آخـر يومًـا مـا، ومَـن يعلـم مـا سـيحدث وقتهـا، فقـط عُـدْ سـالمًا مـن رحلتـك هـذه وبعدَهـا لـكل حـدثٍ حديـث.

احتضنه الطاهر بقوة، وكذلك السر. ان التّعبير عن تلك المشاعر الجياشة في عالم التاسوع يعد فعلًا غريبًا غير معتادٍ، وهو الذي اعتاد حياد المشاعر وعزلةَ قاطنيه وترحالهم السرمدي داخلَ ذواتهم. ربما تفتحت زهورُ شجيرات الحياة أكثر، وازداد ألقُ الدائرة المظلمة. وربما مسّت ذات المشاعر قلبَ التاسوع، فخفقَ بعد سبات، واهتز بعدَ ثبات، وعادَ ينثر الحياة لِمَنْ حوله.

ارتجتِ القاطرة وزأرت. التفت الخليل إلى الطاهر، وقال بصوت عالٍ كي يسمعَه:

- أطعموا صالح وربيع للثعالب عندَ أوّل بادرةِ خيانة، ولو اضطررتم إلى التضحية بأحدهم في واحدة من مكائد التاسوع، فادفعوا بهما ثمنًا لنجاتكم، سأعُود بالماء، أو لا أعودُ مطلقًا!

تحركت القاطرة ببطءٍ، ودارت حول المكان، ثم ارتفعت، واتجهت نحو الدغل، حتى تحولت إلى نقطة صغيرة، قبل أن تختفي تمامًا.

جلسوا في حلقة صغيرة، لم يكن هناك سوى الانتظار، يعتريهم الإحساس بالوحدة. يبدو عالمهم الأرضيّ مثل ذكرى بعيدة أو حلم عابر. الحقيقة أنهم الآن على سطحِ هضبة يلفها البَرد والظلام في عالم التاسوع، يهددهم

المـوتُ، ويجتاحهـم الخـوف، وكل واحـدٍ منهـم غـارقٌ في ذاتـه. سـاد الصمـت إلا مـن نهنهـة ثريـة وهـي تبكـي بصـوت خافـت. ثـم تسـلل النُّعـاس إلى عيونهـم بهـدوء، فاستسـلموا لـه، وتداعـوا إلى أديـمِ الهضبـة بـين سـباتهم وغطيطهـم، والتاسـوع يغمـره السّـكون.

تـم كلّ شيء بهـدوء. حلقـت آلاف مـن طيـور التاسـوع بعيدًا عـن الهضبـة فـوقَ جبـال المناجـم، وعنـد منازلهـم المهجـورة، والهضـاب الخاليـة، والآكام المغطـاة بشـجيرات الحيـاة، وعنـد حـدودِ الدغـل. غطـتِ التاسـوع بعيـدًا عنهـم، فتحـول لـونُ سـمائه إلى الرمـادي الداكـن. وعندمـا حلـق طائـر التاسـوع الضخـم فـوق هضبتهـم المنتقـاة، غطـى الظـلامُ المـكانَ. بـدأ بإفـراغ حمولتـه عـلى الهضبـة. اسـتيقظوا عـلى صـوت خفقـان جناحيـه العظيمـين، يعمّهـم الخـوف. كان الظـلامُ دامسًـا وصـوتُ خفقـان جناحـي الطائـر العظيـم مثـلَ فرقعـةٍ هائلـة في عـالم التاسـوع الهـادئ. ظنـوا للحظـة أن قيامـةَ التاسـوع قـد قامـتْ، ثـم انتبـه الـسر إلى مـا يحـدث، زكمـت الرائحـة النفـاذة أنفـه واقشـعر جلـده مـن الملمـس اللـزج، صرخ جزعـاً:

– لِبأ الحنين.

اضطربـوا في مكانِهـم، ثـمّ انتـشروا في الهضبـة المظلمـة بحثًـا

عن النجاة، ولكن غُطي المكان باللبأ. شعر الطاهر أنه يعود إلى سجنِه مرّة أخرى، تحيط به قضبان لا يراها، ولبأ الحنين يتسلل إلى داخله بسرعة. يأخذ اللبأ ماريّة إلى حفلة نسيتها في غمرة التاسوع التقت فيها بوزير الاستثمارِ للمرّة الأولى. تعود ثرية إلى أيام عذابِها العظيم، والخليل يحقن دمها بالشّك، ويحاكمها بالأوهَام التي تنتابه، ويظنّ جميعَ النساءِ زوجتَه. شعرت بنفسِها تضيقُ وروحِها تثبُ إلى حلقها. شهقت بحثًا عن الهواء، قبل أن تتداعى ساقطة ولِبأ الحنين يعبر إلى دمِها فينقلها إلى أيام ظنّت أنها قد تجاوزتها بالتّفهم والغفران. ذهب السر فيما يشبه غفوة طويلة، واللبأ يأخذه إلى ليالي الإرجاء، والحنين يشده إلى ولدِهِ الذي لم يأتِ بعدُ، ورائحة مزارع الموز تملأ صدرَه، وخوار أبقار مزرعته يصله، فيميز بينها واحدةً تلو الأخرى، ويعرف التي تعاني من الجوعِ، والتي يدفعها الملل للخوار، ففرت دمعتان من عينيه.

بدأ الإحساس بالعطشِ يفارقهم، والخوفُ من الجوع يتلاشى. فرت ماريّة من قلب الطاهر مثل حمامة صغيرة، وعاد قلبه ممتلئًا بالخواء، يبحث عن أنثى تكسر قضبان وحدته، ويحن إلى كوبٍ من القهوة، ودخان لفافة تبغ في أمسيَّة هادئة. شعر بحزنٍ عميق يجتاحه، ثم فتح عينيه فرأى الطائر العملاق يخفقُ بأجنحته مبتعدًا،

وتعـــود الدائـــرة المظلمـــة للبـــزوغ مـــرّة أخـــرى، ويغطـــي ضوءُهـا الأحمـر الشـاحب ثنايـا التاسـوع وآكامَـه، واللـون الأخـضر للبـأ التاسـوع ينتـشر في المـكان، كأنـه الطمـي بعـدَ أمطـارٍ غزيـرة، ورائحتـه النفـاذة تزكـم أنوفَهـم. تلفتـوا حولهـم بدهشـة. انتبـه السر إلى صالـح وربيـع المقيديـن عنـدَ الصخـرة، فـكّ وثاقهـما وهـو يسـأل مندهشـاً عمـن قيدهمـا. بـدأ ربيـع القفـزَ حـول المـكان مبـاشرة، ونظـر صالـح إلى جبـال المناجـم قلقـاً شـاكياً مـن صعوبـة الوصـول إلى هنـاك في ظـل لزوجـةِ لِبـأ التاسـوع الـذي غطّـى المـكان. نظـر السر إلى قاطرتـه الرابضـة في المـكان، وسـارع لامتطائهـا وحلّـق بهـا بعيـدًا باتجـاه المناجـم. انثنـت ماريّـة نحـو شـجيرات الحيـاة تنـزع عنهـا أشـواكَها بملـل، في حـين نظـرت ثريـة إلى بيتهـا القابـع بـين السّـحب الفسـفورية، ثـم تنهـدت. غمرهـا شـعور بعـدم الراحـة مثـل الحِكـةِ في القلـب. لم ينتبـه أحـدٌ إلى الغريـب الـذي يقـف في وسـطهم. كل مـن ينظـر إليـه يعلـم أن اسـمه سـالم، وأنـه أتـى بديـلًا عـن الزبـير، ويقـضي يومـه الأوَّل بينهـم. ينتابهـم الفضـول لسـماعِ قصتـه بعـد أن يـسري لبـأ الحنـين في دمـه للمـرّة الأولى في نهايـة اليـوم. سَرعـان مـا ابتعـد صالـح وسـالم عـن الجمـع، وهـم يخبـان السـير إلى جبـال المناجـم، يحيـط بهـما اللِّبـأ، فيخطـون بحـذر خشـيةَ الانـزلاق. اقـترب الطاهـر مـن الخليـل، الـذي يقـف

مستندًا إلى جاروفه وممسكًا بمكنسته. استقبله الخليل بعبارته المعتادة:

- أخذني إلى هناك.

ثم ألقى على الطاهر نظرة حزينةً وأكمل:

- إلى ذات اللحظة التي تراجعت فيها، وأخبرتها بأني لا أصدق ما تقوله، وأني مقتنعٌ تمامَ الاقتناع بعلاقتها به، ووصمتها بالخيانة والضعة والخسة.

تنهد بعد ذلك وقال والطاهر يقف مستمعًا إليه عاقدًا يديه أمامَ صدره:

- لا أصدق أنها معنا في ذات التاسوع، وأني لا أستطيع الحديث إليها وتقديم اعتذاري عن كلّ ما حدث، ولا أستطيع محاولة مواساتها عن كل ما سببته لها من وجعٍ وألم.

ردّ الطاهر مخففًا عليه:

- هوّن عليك يا رجل، إنها مجرد امرأة واحدة.

قطع كلامه فجأةً وإحساس غريب ينتابه بأنه قدْ قال تلك العبارة من قبلُ. بحث في أضابير ذاكرته ولكنه لم يجد ما يبحث عنه. ابتعد عنه الخليل، وهو يشرع في

جمع الأزهار والأوراق الجافة ملقيًا بها في جاروفه. ثم شرعت الآلاف من فراخ التاسوع الخروجَ من بيضها، وتلفتت حولها بحيرة قبل أن تركض في اتجاه الدغل تتبعها عشراتُ الثعالب الخجولة وهي تزمجر حتى ابتلعها دغل الحياة كأن لم تكن.

لكأن الزمن بحوزة يدٍ مجهولة فأعادت ضبط الساعة إلى بداية اليوم الثامن في تاسوع الخليل، ومُحي تغير العالم كأنه لم يكن، وعاد التاسوع إلى روتينه المعتاد، لولا شذرات بقيت متعلقة بذاكرة كلّ واحد منهم، مثل نتف أحلام لا يمكن فهم تفاصيلها ولا مقاصدها ومعانيها. خطر في ذاكرة الخليل حديث مبهم دارَ بينه وبين ثرية، ورأى نفسه يقود قاطرة الحنين، فوقع في حيرة من أمره، وحسب أن توتره وخوفه من اليوم التاسع وشدة شوقه إلى ثرية وتعلقه بها جعل رأسه ممتلئًا بالخيال. ركن إلى ما قاده إليه تفكيره، وعاد إلى الانخراط في تنظيف التاسوع، وجمع قشور البيض وبراز الثعالب الخجولة ودفعها إلى الكهوف، فمارس ما اعتاد فعلَه آلاف المرات منذ قدومِه إلى التاسوع.

نظر الطاهر إلى ماريّة، فداهمه إحساسٌ بقربها وبعدها. وتذكّر أجزاء من حديث عابر بينهما، وغفوة تشاركاها في مكان ما. نفض رأسه بعنف مبعدًا ما تهيأ له، مسلمًا

أن التاسوع لا يتغير.

لم تشذ ثرية عما اعترى الطاهر والخليل. فقد رأت الخليل يحملها على كتفه قاطعًا التاسوع. لم يكن ما يخطر في بالها يتلاءم مع الواقع الذي تعيشه، فلا شيء يجمعها بالخليل غير تركة ثقيلة من الألم والوجع والشّك وفقدان الثقة. انتابها العجب ممّا تتخيله، فنظرت إلى الخليل وهو منخرط في تنظيف التاسوع. شدّها حنين غريب لا تعلم مصدره، وسَرعان ما تذكّرت ما كان بينهما. عمّ خواء صدرها غبار ذكريات لا تنسى، فأضحت لا تشعر اتّجاهه سوى بالاحتقار.

لم يكن أحد من الباقين استثناء، فقد كان كل منهم يقنع نفسه بخطل ما يخطر في باله. مضى التاسوع بالجميع كما اعتادوا. لم يمضِ وقت طويل قبل أن ينشر السّر غبار الحنين في التاسوع، ويرحل بهم إلى عالمهم الأوَّل فيعودون من هناك أشد عزلة وأكثر وحدة، ويعيش كلُّ واحد منه تاسوعَه الخاصّ، فيغرق في ذكرياته وتقلباتِ أيامِه. يعيشون بين الألم والندم، والتاسوع يمضي حثيثًا، وساعة توقيته لا تتوقف عن الركض نحو نهاية اليوم.

بدأت أسراب طيور التاسوع تحلقُ في السّماء من خلف جبال المناجم حتى نهايةِ الدغل فاردةً أجنحتها، ويتردد

نعيقها في فضاء التاسوع الهادئ، يأتي مصحوبًا بضباح الثعالب الخجولة، التي تختفي خلفَ الآكام المنتشرة في التاسوع، ووراء شجيراتِ الحياة، ترقب المكان بأعينها الواسعة. سُرعان ما تناثر بيضُ طائر التاسوع بشكله البيضاوي وملمسِه الناعم ولونه الوردي الجميل. لمحه الخليل أوَّلَ مرة وهو منغمس في التنظيف بالقرب من جبال المناجم. خفقَ قلبه، ها هو اليومُ قبلَ الأخير يوشك على الانتهاء، ولم يعد بينه وبين الذَّهاب سوى يوم وبعض يوم.

بعد ذلك بدأ التكاثرُ، وزاد عددُ الثعالب التي ترتاد قلب التاسوع محاذية للآكام والشجيرات، بعيدًا عن أماكن وجودهم المعتاد، وصولًا إلى صخور جبال المناجم، متاخمة لكهوفِ الحنين.

كان الطاهر يشفقُ على أيامه القادمة. ذهب جابر، والآن سيذهب الخليل ويغدو التاسوع بلا أنيسٍ، ولن يتبقى له سوى متابعة ربيع يتشقلب حولَ المكان.سيعمر التاسوع بآخرين لا يدري عنهم شيئًا. بدا له التاسوع لوهلة مثل عالمه القديم، لا يختلف عنه شيئًا. تعمر الأرضُ بمن يظنون أنفسهم ملوكها وسادتها، ويعمّهم الإحساس بانتمائهم إلى الأرض وبملكيتهم لها. يخلقون رابطًا بينهما يظن الرائي والمتمعنُ فيه أنّ عراه لا تنفصم

بتقادم الأيام والسّنين، ولكن الوقت يمضي، فتختفي وجوه تنكرها الأرض كأنهم لم يمشوا على ظهرها يومًا، ولم تدب خطاهم عليها، وتأتي وجوهٌ أخرى تستقبلهم الأرض بذات مشاعرهم الجياشة وادعاءاتهم الساذَجة بانتمائها إليهم، وتقابلهم بجمودها المعتاد وصمتها المكين، تاركة الزمنَ يلعب لعبته المعتادة، وتستمر الحياة هناك على وتيرة واحدة. حين ينظر إلى التاسوع الآن لا يرى اختلافًا كبيرًا، أين ذهبَ جابر والزبير؟ واليوم سيمضي الذي لا اسم له ويأتي آخر، وغدًا يمضي الخليل، وفي يومِه الأخير لن يكون هناك سوى أغراب في التاسوع، ليتحوّل هو والبقية إلى مجرد حكاياتٍ تُحكى وتأريخ من تواريخ التاسوع، تماماً مثل بعض الأسماء التي قطنتِ التاسوع دهرًا وغادرت. جمل قصيرة تُقال لتحكي قصتهم في حديث عابر بين قاطنين في التاسوع لا يعلمون شيئاً عنهم، كما استأنسوا زمنًا بآخرين لا يذكرون سوى أسمائهم والحكايات التي توارثوها عنهم. سيأتي بعدهم من يستأنس بحكاياتهم، ولا يذكر سوى أسماءهم. يا للعبث، وانعدام الجدوى، وسراب الحياتين، وخدعتهما الكبرى. لفه الحَزنُ، وغمره الضياع، وَدَّ لو يغادر الآن وتبتلعه هوة النسيان فلا يذكره أحدٌ في العالمين.

تكاثـر بيـض التاسـوع وغمـر المـكان، حتـى لم يعـد هنـاك موطـئ قـدم لا توجـد فيـه بيضـة ورديّـة اللـون. زاد بـراز الثعالـب حتـى صبـغ الأديـم بلونـه والمـكان برائحتـه الكريهـة. شـكا صالـح وسـالم مـن امتـلاءَ الكهـوف بالقُمامة، وارتفعـت نـار المناجـم حتـى بـات مـن الممكـنِ رؤيتُهـا مـن حـدود دغـل الحيـاة. تـراءى الغبـار الأخـضر يتراقـص مـع ألسـنةِ اللهـب منبئًـا بقـرب اسـتواء لبـأ الحنـين ونهايـة يـوم آخـر في التاسـوع. ثـم أتـت الطيـور، وكان حضورهـا مختلفًـا عـن المعتـاد، لم تتكاثـف في مـكان معـين، ولكنهـا انتـشرت في التاسـوع بطولـه. كانـت أعدادهـا بـالآلاف، غطـت التاسـوع بلونهـا الرمـادي الباهـت ومناقيرهـا البرتقاليّـة المعقوفـة. تكاثـرتِ الثعالـب تحـتَ الصخـور وبـين الجبـال وفي مداخـل الكهـوف وخلـف الآكام، بذيولهـا العريضـة، وأعينهـا اللامعـة.

بـدا التاسـوع وكأنـه في يـومٍ زفـاف عظيـم. نزلـت ثريـة إلى قلـب التاسـوع، وانضمـت إلى ماريّـة، ووقـف الطاهـر والخليـل معًـا، وربيـع يقفـز حـولَ المـكان، بحركاتـه البهلوانيَّـة المعتـادة، ثـم أتـى صالـح وسـالم، ووقفـا بعيـدًا مـن قلـب التاسـوع، حيـث مـا زالـت الصخـورُ الصغـيرة تداعـبُ أقدامهـما، يغطيهـما غبـار الحنـين الأخـضر، ويغمـر البـؤس ملامحَهـما التـي لوحتهـا نـار المناجـم. لم يمـضِ سـوى

وقت قصير قبل أن يظهر الذي لا اسم له، بلحيته الطويلة وجلبابه ذي اللون الباهت، قادمًا من خلف جبال المناجم يمسك عصاه، ويمشي نحو قلب التاسوع وكأنه يحلّق، فلا يُلمَس لمشيته أثرٌ، ولا لخطوه صوت، تبعته الآلاف من طيورِ التاسوع، تنعقُ بصوت رتيب، مرددة أنشودةَ الوداع المعتادة، والثعالب تظهر وتختفي بعيدًا محاذية للموكب المهيب.

مرَّ من أمامهم مغمضَ العينين تنفرج شفتيه عن ابتسامة. تشي ملامحه بسعادة غامرة وهو يدنو من الدغل يتبعه الجميع، ونعيق الطيور يزداد قوةً، وضباح الثعالب يزداد حدةً. لم يروا مشهدًا في عظمته من قبلُ، ولم يروا عددًا من طيور التاسوع بهذا الحجم، ولم يكن ضباح الثعالب بهذه القوة في يومٍ من الأيام. ثم وقفَ الذي لا اسم له عند حافة الدغلٍ، وألقى عصاه وبدأت شفتاه ترتجفان، يداه مفتوحتان على اتساعهما وكأنه يحتضن الفضاء ناظرًا نحو الدائرة المظلمة. بدا لهم وكأنه يصلي صلاةَ شكرٍ وملامحُه مستبشرة، والدائرة المظلمة تزداد ألقًا وتكاد تبتلعُ سقف السّماء من فوقهم ناشرة ضوءها الأحمر في المكان.

بدا المشهد أسطوريًّا والجبال تصطبغ بالصبغةِ الحمراء، أعلى الدغل والهضاب والآكام. سحرتهم هيبة المشهد،

بينـما الـذي لا اسـم لـه يرتفـعُ ببـطءٍ، ويـداه مبسـوطتان بسـعتهما، ورأسـه ناظـرٌ إلى الأعلى،تتبعـه طيـور التاسـوع وهـي تخفـق بأجنحتهـا، حتـى اهتـزت قمـم الأشـجار وتحركـتِ الريـاح. ارتفـع الموكـبُ المهيـب مبتعـدًا نحـو الدائـرة المظلمـة التـي تألقـت بقـوة لكأنهـا تفتـح فاهـا لابتلاعـه، ثـم ولـج الموكـب إلى قلـب الدائـرة المظلمـة، وارتفـع عـواء الثعالـب وهـي تعـدو مبتعـدة عـن وسـط التاسـوع، وحياؤهـا يغلـب عـلى حزنهـا. ثـم أتـى الـسر يقـود قاطرتـه وعَـبَرَ فـوق الجميـع موزعًـا لِبَـأَ الحنـين في المـكان، وسِرعـان مـا فـر الخليـل إلى منزلـه وأغلـق عليـه البـابَ بإحـكام فـرارًا مـن لِبـأ الحنـين ووجعـه. كان المنـزل محتشـدًا بعـشرات المكانـس والجواريـف، فحـص جسـده جيّـدًا خوفًـا مـن التصـاق لبـأ الحنـين بـه، تنفس الصُّعـدَاءَ حـين وجـده جسـده نظيفًـا. لم يكـن لديـه طاقـة للعـودة إلى هنـاك. هـذا يومـه الأخـير في التاسـوع، سـتفصل بينـه وبـين عالمـه السّـابق عـوالمُ في نهايـة هـذا اليـوم. بقـدر مـا يخشـى هـذا اليـوم، كان يداعبـه أمـلٌ بعيـد أن نجاتـه قـد تكـون آخر هـذا اليـوم ذاتـه. ربـما لم يعـد التاسـوع سـوى ذكـرى بعيـدة.

بعـد وقـت قصـير سـمع جلبتهـم بالخـارج، فاسـتدل بهـا على تخلصهـم مـن أثـر اللبـأ. فتـح البـاب وخـرج ليجـد الطاهـر يقـف عنـدَ قلـب التاسـوع، وربيـع يبـدو كالخيـال بالقـرب

مـن الدغـل، في حـين انهمكـت ماريّـة في اقتـلاع الأشـواكِ مـن شـجيرات الحيـاة، ومـا زال أثـر الدمـوع عالقًـا بخديهـا. وثريـة، أيـن ثريـة؟ سـأل الخليـل نفسـه بقلـقٍ، تلفـت بحثًـا عنهـا، رآهـا تقـف شـاخصة إلى الدغـل، تنتابهـا ذكريـات تنكرهـا، تطـل مثـل حلـم مبتـورٍ بـلا بدايـة معلومـة أو نهايـة مدركـة.

تألقـتِ الدائـرة المضيئـة، انتبهـوا في لحظـة واحـدة، كانـت الدائـرة تـبرق منزويـة فـوقَ جبـال المناجـم، ثـم اتسـعت قليـلًا، وهـوى جسـم متدثـرٌ بالبيـاض. ركضـوا نحـوه، نهـض قبـل أن يصلـوا إليـه، ثـم ابتعـد عـن مكانـه نحـو الجبـال، ركضـوا خلفـه. قالـت ماريّـة وهـي تلهـث:

- كأنه الشّيخ جابر.

قال الطاهر نافيًا:

- لا أحد يعود إلى التاسوع بعد أن يغادره.

ردت ماريّة معاندة:

- بل هو الشيخ جابر!

ثم صرخت تناديه:

- الشيخ جابر...

التفـت ناظـرًا إليهـم للحظـة ثـم عـاد لمواصلـة مسـيره إلى جبـال المناجـم، تجمـدوا كلّهـم معـاً. شـعروا كأن سـماء التاسـوع قـد سـقطت عليهـم بدائرتيهـا، قـال الطاهـر بحـيرة عظيمـة:

- إن التاسوع لا يتغيّ...!

قطـع عبارتـه موقنًـا أنـه قالهـا في وقـت مـا وفي مـكانٍ مـا قبلَ الآن، ولكـن ذاكرتـه مثـل ولـدٍ عـاق، لا يجـده حـين يحتـاجُ إليـه حقًّـا.

ذاكرة التاسوع

مخرتِ القاطرة السماءَ والخليل على ظهرها، والتاسوع مثل عملاق نائم لا تؤمن غوائله. كان الخليل خليطاً من الخوف والوجدِ، الأملِ والرجاء، الإقبال والإدبار. ودّ لو أنه رفقة ثرية الآن، يزيل عن ذاكرة أيامها ما علقَ فيها من دَرنِه. هو الآن في رحلة إلى المجهول من أجلها. ما لم يستطع أن يصرح به لها أو للجميع، أنه رغب أن يكون فارسَها، أن يحملها بين ذراعيه ويحلّق بها بعيدًا عن التاسوع ومخاطره. ربما لو لم تكن معهم لأكل اللحم نيئًا وشرب الدم، بل ربما اتبع صالح، وقنع من المخاطرة بالنّجاة. لكنها كانت هنا، بينهم، وحيدة وضعيفة وخائفة. أتته الفرصة ليثبت لها أنه تغير لأجلها، وأنه مستعدٌ للمخاطرة بحياته كي يحميها. ربما يكون لكل منا تاسوعُه الخاصّ كما يقول الطاهر، ولكنه كسرَ شرنقة تاسوعه المصنوعة من ذكريات

يـودُّ لـو أنهـا لم توجـد، وحلـق بجناحيـه فوجدهمـا قويـين، قادريـن عـلى تطويـعِ الهـواء وارتيـاد السـماء، فقـوي انتـماؤه إلى هـذا العـالم الغريـب الـذي أعـاد اكتشـافه وبـيَّن لـه مـن نفسـه مـا لم يكـن يعلـم. الخليـل الـذي التقـى ثريـة في العـالمَ السّـابق، مجـرد كذبـة، شـبح غـير حقيقـي، هـو ينتمـي إلى هـذا العـالم الـذي يمخـر عبـابَ سـمائه الآن، والذي سـيقاتل فيـه إلى آخـر رمـق مـن أجـل تطويعـه وجعلـه مكانـاً يصلـح للحيـاة، يجتمـع فيـه هـو وثريـة مـا إن تفتـح لـه أبوابَهـا مـرّة أخـرى وتمنحـه ثقتهـا وقلبهـا.

غمـره التفـاؤل رغـم قتامـة الواقـع وشـحّ المـوارد وقلـة الخيـارات. وصلـت القاطـرة إلى حـدود الدغـل، ارتجـت قليـلًا وهـي تعـبرُ الحـدود للمـرّة الأولى وتحلّـق فـوق أشـجار الحيـاة التـي بـدت مـن هنـا كأنهـا ترنـو إلى الأعـلى مشرعـة حرابهـا في جميـع الاتجاهـات. خفـقَ قلـب الخليـل وهـو يتخيـل الأشـجار مصارعًـا بإمكانـه الحركـة والقفـز برشـاقة والإقبـالِ والإدبـار. أي مقاتـل سـتكونه بأسـلحتها المشرعـة وجسـدها الضخـم! قبـض عـلى جاروفـه دونَ أن يشـعر، والقاطـرة تتقـدم ببطئهـا المعتـاد، والدغـل مـن تحتـه يمتـد إلى مـا لا نهايـة. رأى في الفسـحات القليلـة بـين الدغـل ثعالـب تلهـو فيـما بينهـا، وأخـرى تتعـارك، ورأى معـاركَ صغـيرةً تـدور بـين طيـور التاسـوع وثعالبـه. ثـم

رأى مستعمرة الثعالب، مساحة تماثل حجم التاسوع أو تقاربه، مغطاةً بالعشب الأخضر، وآلاف الثعالب تجول فيها بمختلف أعمارها وأحجامها، تخفق أذيالها كأنها آلاف الأعلام الصغيرة لتمنح المكان هُويّته المميزة. رأى جراء الثعالب تعدو وسطَ هذا الجمع الهائل، وكبارها يرقدون عند حافاتٍ الساحة يمارسون الكسل اللذيذ، في حين ضجّ وسط الساحة بالثعالب التي اعتاد رؤيتها قبل تغير التاسوع بأعينها الواسعة، وقفزاتها الرشيقة، ويصله ضباحها المعتاد في الأعلى. كان يحلّق قريبًا منهم، حتى أنه فكّر للحظة لو أن أحد الثعالب واتته الشجاعة وقفزَ إلى الأعلى لكان من الممكن أن يلامس جسدَ القاطرة. كلُّ ذلك ولا أثر للماء، ولكن كل ما يحيط به ينبئه عن وجوده. فالأشجار اليانعة الخضرة والثعالب عالم من الحياة لا بدَّ أن تجري الماء في أوردته حتى وإن كان لا يراه. ابتعدت القاطرة عن ساحة الثعالب، ولكن ما يزال بإمكانه رؤية بعضها يتناثر بين الأشجار الكثيفة، وكأنهم حراس يراقبون المكانَ حذرًا من عدو قادم. ثم عاد الدغل إلى منظره المعتاد، آلاف الأشجار المتراصّة مثل جيشٍ عرمرم، يغلفها الغموض، وتبثه عشرات الرسائل الملغزة التي لا يستطيع تفسيرها. كان التاسوع الذي يعرفه يبتعد كثيرًا الآن، وحين ينظر في

جميع الاتجاهات لا يرى سوى الدغل، لكأن سفينته تمخرُ عباب بحر أخضر تشوبه حمرة ولا يبدو له ساحلٌ. أكد إحساسه تطاول الأشجار في كثافتِها، لتبدو مثل الموج علوًا وهبوطًا، فامتلأت نفسُه بالرهبة، وغمره شعور بأن الدغل لا نهاية له، وسيبتلعه في نهاية الأمر.

رأى طائرًا للمرة الأولى حلّق بالقرب منه في الاتجاه المعاكس، لم يدرِ إن كان متوجهاً نحو التاسوع أم ساحة الثعالب. انتابه إحساس البحارة حين يرون النوارس، فيستدلون بها على قرب الشّط. شعر بالأمل يدب في قلبِه، وإن لم تبدُ بادرة لانتهاء الدغل ولم تظهر له حدود. ثم تكاثرت أعداد طيور التاسوع وهي تحلّق من حوله، واحد، اثنان يحلقان أحدهما خلفَ الآخر، اثنان متجاوران، سرب صغير، سرب أكبر، وجميعها تحلّق في الاتجاه المعاكس له بصمت تام، لا تصدر نعيقًا ولا يسمع سوى خفقان أجنحتها وهي تعبر بجواره. تظهر من تحته ساحات متعددة يتفاوت حجمها، تعج بالثعالب حينًا، وبطيور التاسوع حينًا آخر، وخالية في أوقات نادرة. ثم ظهرت ساحة تتناثر فيها أشجار الحياة بطريقةٍ هندسية مميزة، تفرق بينها مسافات متساوية، اكتظت بأعشاش طيورِ التاسوع التي يراها الخليل للمرّة الأولى. كانت كلّ شجرة مكتظة بعشرات الأعشاش الصغيرة، وتحلق

مـن حولهـا الطيـورُ فـاردة أجنحتهـا الرماديـة. كانـت بعـض الطيـور سـاكنة في العـش مكتفيـة بالتلفـت باسـتخدام عنقهـا الطويـل. وعندمـا توسـط السّـاحة بـدأ حجـم طيـور التاسـوع بالازديـاد بشـكل ملحـوظ، حتـى إن بعضَهـا كان بحجـم القاطـرة أو فاقهـا حجـمًا. كانـت طيـور التاسـوع تنظـر إليـه غـير مباليـة بـه، كأن رؤيـة القاطـرة تقطـع فـوق مملكـة الطيـور أمـر عـادي، وإن كان بعضهـا قـد حلـق بالقـرب منهـا. شـعر الخليـل بالفضـولِ ينتابُهـا وهـي تنظـر نحـوه بعيونهـا الصغـيرة، ثـم تنثنـي مبتعـدة برشـاقةٍ بديعـة.

فغـر الخليـل فـاه دهشـة وهـو يـرى العـش الماثـل أمـام عينيـه، كان مكوَّنًـا مـن عِـدّة طوابـق. ارتفـع بالقاطـرة ليتفـادى الاصطـدام بـه. كانـت آلاف الطيـور تخـرج وتدخـل إلى طوابقهـا التـي تفـوق العـشرة، وفي أعـلى هـذا الـبرج المذهـل، رأى الخليـل عشًـا يـكادُ يماثـل حجـم جبـل مـن جبـال المناجـم أو يزيـد، خاليًـا إلا مـن ريشـتين اثنتـين رماديتـي اللـونِ تسـتريحان عـلى العـش وتنبئـان عـن حجـم الطائـر الـذي يقطنـه. تذكـر الخليـل معركـة كـسر العظـم بـين الثعالـب والطيـور، وطائـر التاسـوع الـذي فـردَ جناحيـه فغطـى الدائـرة المظلمـة، كان هـذا عشّـه مـا في ذلـك شـك. لكـن هـذه الهندسـة العظيمـة للعـشّ لا يمكـن أن تـأتي مـن فعـل غريـزي تقـوم بـه الطيـور مـن دون عقـلٍ مدبـر. كان

هـذا فعـلًا عقلانيًـا، مـن صمّمـه يجيـدُ عملـه جيّـدًا ويلـمّ بعلـوم الهندسـة والحسـاب. هنـاك خيـاران، فإمّـا أن تكـون طيـور التاسـوع عاقلـة وبينهـا مهندسـين متخصصـين، وإمّـا أن يكـون هـذا عمـلاً بشريـاً متقنـاً. بـدا الأمـر مدهشًـا عندمـا دار هـذا الاحتـمال في رأس الخليـل، فهـل التاسـوع مـن صنـع البـشر؟ وهـل سـبقه أحـدٌ إلى هـذا المـكان مـن قبـلُ؟ وأقـام فيـه وصنـع عشًـا بتقنيـة هندسـية عاليـة تحتـاج دهـرًا مـن الزمـان وجيشًـا مـن الرجـال؟ مـا بـالُ التاسـوع كلـما أفصـحَ عـن سرٍّ مـن أسرارِه ازدادَ غموضًـا وكأنـه يهـزأ بفضولـه وجهلـه؟

شـعر الخليـل بالضآلـة، والقاطـرة تبتعـد عـن مملكـة الطيـور بعشـها المذهـل وطيورهـا العجيبـة. عـاد الدغـل إلى الامتـداد بطـول البَـصر، لكـن أيـن ذهـب الطائـرُ العمـلاق، وهـذا عشّـه خـاوٍ إلا مـن ريشـتين عظمتـين؟ ربـما كان يطـوف حـول المـكان. تلفـت الخليـل حولـه بحثًـا عنـه، لكـن لم يكـن لـه أثـر في سـماء التاسـوع. عـاد إلى الانتبـاه لمـا يـدور تحتـه، والقاطـرة تتهـادى فـوقَ الدغـل. دُهِـشَ حـين رأى بعـض الثعالـب حتـى في هـذه النقطـة البعيـدة مـن الدغـل، ثـم ظهـر طائـر آخـر، وطائـران، ثـم سربٌ مـن الطيـور، وتتالـت الأسراب الواحـد تلـو الآخـر، وفجـأةً انتهـى الدغـل، مثـل جملـة مبتـورة، وظهـرت مـن بعـده شـجيرات

الحياة بأزهارها اليانعة. ثمّ بدت أمام الخليل جبال مماثلة لجبال الحنين، وما إن دنا منها حتّى زكمت أنفه رائحة اللِّبأ التي يعرفها جيّدًا. ارتفع بالقاطرة منزعجاً وهو يشاهد آلاف الطيور تحلق حول الجبال، ثم تهبط لبرهة من الزمن قبل أن تعود للتحليق مرّة أخرى متجهة نحو الدغل. اعتراه الفضول فاقترب من الجبال، فاجأه نهر صغير مخضر يكاد لا يرى من أعلى، يمتد متعرجًا بين الجبال، وقد اصطفت طيورُ التاسوع على جانبيه، تأخذ حسوات متتابعة منه، ثم تعبئ فمها باللبأ وتغادر جميعها في اتجاه الدغل. غمرتِ الحَيرة الخليل، أتقتاتُ طيور التاسوع على الثعالب أم على اللّبأ؟ ثم هل تبدو هناك نهاية لهذا العالم وأسراره، أم أنه يمتد إلى ما لا نهاية؟ وما الحكمةُ والغرض من كل هذا؟ لماذا يوجد عالم بهذه الضخامة تقطنه الطيور والثعالب وتسعةٌ من البشر يتغيرون بتتابع؟ لا، بل أضحوا ثمانية بعد ذَهاب الزبير وكأن التاسوع لا طاقة له لاحتمال المزيد منهم. أنزل القاطرةَ في قلب التاسوع، وشرع في المشي بحثًا عن دليل يقوده إلى شيء آخر غير الدغل والجبال. ثم اتسعتِ الدائرة المظلمة أمامَ عينيه، حتى كادت تبتلعُ السماء، كان هذا إنذارًا بنهاية اليوم، انتصب الخليل في مكانه ناظرًا إلى الأعلى، كان وميضها يزيد فيصبغ المكان

بضوئـه الأحمـر الشـاحب. شـعر برهبـة لم يلمسـها في نفسـه مـن قبـلُ، وهـو الـذي شـهد مـا يحـدث أمامـه الآن لسـبعة أيـامٍ متتاليـة، ولكنـه لم يكـن وحيـداً، ثـم ظهـر الذي لا اسـم لـه محلقًـا مـن خلـف الجبـال. دُهِـش الخليـل واضطـرب وهـو يـرى طيـور التاسـوع تلحـق بـه وتتبعـه، وتحيـط بـه مـن كلّ الاتجاهـات. كان ينبغـي أن يكـون الصعـود مـن خلـف الدغـل، مـن حيـث أتـى، ولكنـه الآن يـراه يحـدث مـن خلـف الجبـال، فهـل هـذا هـو الاتجـاه الآخـر مـن جبال المناجـم؟ هـل قـاده الطريـق الطويـل الـذي قطعـه إلى المـكانِ الـذي مـا فتـئ يثـير فضولهـم؟

هنـا كان يقيـم الذي لا اسـم لـه، في تاسـوع مماثلٍ لتاسـوعهم، لا يختلـف إلا بكثـرة طيـوره وغيـاب البشر عنـه. قادتـه قدماه إلى حيـثُ الهضبـةُ التـي تغطيهـا شـجيرات الحيـاة اليانعـة. جالـت الذكريـات في رأسـه كالمـوج، ثريـة تنتظـره في ذات المـكان، قالـت لـه: «عُـد سـالمًا». رفـع رأسـه نحـو السّـحب الفسـفورية، لم يكـن هنـاك منـزل بـل كانـت السـحب تتهادى بكسـل عاكسـةً ضوءهـا الفسـفوري عـلى المـكان، ثـم برقـتِ الدائـرة المضيئـة. التفـت متابعًـا هبـوط القـادم الجديـد، كلُّ شيء يحـدث كالمعتـاد، لـكأن التاسـوع لم يتغـير، ولبـأ حنينـه لم يفقـد، ونفـوس قاطنيـه لم تبـح بأسرارهـا. أيُّ قـادم هـذا الـذي يـأتي في ظـل هـذا الاضطـراب؟ ومـا الـذي ينتظـره في

عـالم التاسـوع العجيـب؟

دار حــول الهضبــة في طريقــه نحــو جبــال المناجــم، وفي دورتـه الأخـيرة حـول الهضبـة اتسـعت عينـاه دهشـةً وقـد امتــدت المنــازل أمــام عينيــه مشــكّلة قريــة صغــيرة مــن البيـوت المتقاربـة في قلـب التاسـوع. خفـق قلـب الخليـل وهـو يقـترب مـن المـكان بخطًـى مـترددة. أوَّل المنـازل كان يجلـس عنـد سـفح الهضبـة. لم يكـن يشـبه منـازل التاسـوع التـي اعتادهـا الخليـل بحـالٍ مـن الأحـوال. انتصـب البـاب بلونـه الأسـود أمـامَ عينيـه فدفعـه مـترددًا. كان الفنـاء الـترابي شاسـعًا، رسـمت عليـه آثار عـشرات الأقـدام الصغـيرة، كأن ثُلَّـة مـن الأطفـال كانـت تلهـو في المـكان قبـل قليـل. منـزل قديـم مكـون مـن طَابَـقٍ واحـد بنوافذ خشـبية خُضر مشرعة عـلى الفنـاء. هتـف الخليـل بصـوت عـالٍ:

- هل من أحدٍ هنا؟ مرحبًا، هل من أحد بالداخل؟

جاوبـه الصمـت المطبـق. لم يكـن المـكان هادئًـا، فالهـدوءُ هـو غيـاب الأصـوات الصاخبـة، ولكـن تبقـى الأصـوات التـي تتسـلل إلى الأذن فـلا تخـرق سـتار الهـدوء، بـل تتناغـم معـه وتضحـي جـزءًا منـه. مـا شـعر بـه الخليـل كان الصمـت المطبـق، المطلـق، حتـى الهـواء كان سـاكنًا. اسـترق السـمع، ثـم اقـترب مـن البـاب الخشـبي المـوارب، دفعـه وولـج

إلى الداخل. اعتادت عيناه بعد برهة الضوءَ الخافت بالداخل. كانت عن يمينه غرفةٌ بها ثلاثة أسِرَّة حديديّة متواضعة، ودولاب خشبي متهالك، وكان هناك أثر جسد بشري على الفراش، كأنه غادر للتوّ. غرق في الحَيرة، نادى ثانية:

- مرحبًا، هل ثَمَّ شخصٌ بالداخل؟

خرج من الغرفة إلى الممر، ارتعدت فرائصه حين سمع فجأة صوت ارتطام النافذة بالإطار ثم ارتدادها مثل قنبلةٍ انفجرت على حين غرة. تراجع ناظرًا إلى النافذة، كانت تتأرجح ببطءٍ وكأنها تمد لسانها ساخرة منه. نظر إليها متردداً ثم عاد إلى الممر مرّة أخرى. تقدم إلى داخل المنزل، كان المطبخ على يساره يفتح على الممر مباشرة. ما تزال بقايا الشّاي في الأكواب، وهناك طبق به بقايا طعام. شعر بجوع قاتل. همّ بالولوج إلى المطبخ، ثم تراجع مواصلًا طريقه. بدا له المحل محتشدًا بالناس وخاليًا في ذات الوقت. كل ما حوله ينبئه أن أحدًا كان هنا منذ قليل، كأنه غادر وسيعود بعد هنيهة. التلفازُ في الصالة كان دافئًا كأنّه أُغلِقَ قبلَ قليل أيضًا. مروحة السّقف كانت تدور بكسل.

عَبَرَ الصالة إلى الغرفة ببابها المشرع فوجده هناك. كان

يجلـس متكئًـا عـلى الجـدار أسـفل النافـذة، يرتـدي جلبابًـا منزليـاً، لحيتـه لم تحلـق لعـدة أيـام، فانتـشر بياضهـا عـلى خديه مثـل ذرات الملـح، مغمـض العينـين، أنفاسـه ثقيلـة وكأنـه غـارق في النـوم. اقـترب منـه الخليـل، وجثـا أمامـه. باغتتـه دمعتـان جافتـان عـلى خـده. انقبـض قلبـه، هـمَّ بإيقاظـه، ثـم تراجـع. نظـر إلى ملامحـه بإمعـان. لم يـره قبـل الآن. كان الحزن جليًّـا في ملامحـه، حـزن عميـق نحـت آثـاره عـلى ملامـح وجهـه حتـى أضحـى جـزءًا منـه. شـعر بالاختنـاق، تراجـع مبتعـدًا كأنّـما أصابتـه عـدوى الحـزن وهـو يغـادر المنـزل.

خـرج إلى التاسـوع وقلبُـه ثقيـل. نظـر إلى الهضبـة فبـدت لـه غريبـة كأنـه يراهـا للمـرّة الأولى. تنهـد وهـو يرنـو إلى بقيـة المنـازل المتناثـرة حـولَ المـكان. خفـق قلبـه وهـو يـرى منـزلًا يعرفـه جيّـدا. شـعر برعشـة تشـمل جسـده. هـرول نحـوه بخطـوات متعثـرة، دفـع البـاب بقُـوة ثـم جثـا عـلى ركبتيـه وهـو ينظـر إلى أركان المـكان شـاعراً بخليـط مـن الشّـوق واللوعـة والحـزنِ والفـرح. سـيارته الكوريـة البيضـاء تربضُ عنـد موقفهـا المعتـاد. تتهـادى فـروع شـجرة النيـم المخضرة، ناثـرة ثمارهـا الصفـراء عـلى الأرضيـة المرصوفـة بمربعـات الأسـمنت الكبـيرة. شـجيرات الجهنميَّـة تنتصـب بطـول الممـر المـؤدي إلى المدخـل الرئيـسي. أرجوحـة آسـيا تقبـع أسـفل شـجرة النيـم، كان المـكان مثلـما تركـه تمامًـا. نهـض

من جلسته ومشى متعثرًا نحو المدخل الرئيس بخليط من المشاعر المتباينة. دفع الباب وركض نحو غرفة آسيا. وقف عند الباب ينظر إليها، كانت منهمكة في الرسم فلم تنتبه إليه. سالت دمعتان على خديه فاتكأ على باب الغرفة، وعيناه لا تفارقانها، وهي مستلقية على بطنها ورأسها محنيّ على الورقة منهمكة في الرسم. هتف باسمها بصوت خافت، ثم اقترب منها وهتف باسمها ثانية، لكنها لم تلتفت إليه كأنها لا تسمعه. دنا منها، مدَّ يديه لاحتضانها. لم تكن هناك، أو لم يكن هو هناك. لم يستطع أن يستوعب ما حدث وهو يمسك الفراغ. أعاد الكرَّة ثانية بعناد، ولكنها كانت مجردَ طيف، نهضت من رقدتها، وركضت خارجة من الغرفة، وهي تهتف باسم أمها. اختفى ثوبها الأبيض القصير المورد بالورود الصفراء الصغيرة خلفَ الباب. تبعها مسلوبَ الإرادة. رأى نظارة القراءة خاصته ملقاة على الطاولة، والصحيفة مبعثرةٌ الأوراق على كنبته الأثيرة. تناولها وقرأ التأريخ. كان يوافق أربعة أشهر قبل مغادرته إلى التاسوع. ألقاها وتبع ابنته إلى غرفة النوم. كانت الآن تقبع في حضن أمها، زوجته صفية، التي كانت مستغرقة في محادثة هاتفية، تتحدث إلى صديقتها في الهاتف، تشكو شكَّه فيها والجحيم الذي تعيشه برُفقته، ثمّ تمسح دمعة

تساقطت على خديها. صمتت وهي تستمع إلى الطرف الآخر، ثم قالت معترضة: «ولكنّي أحبّه». انقبض قلبه، تنهد، تأوَّه، ثم صرخ باسمها آسفًا. لم تلتفت نحوه وهي تستمع إلى الطرف الآخر وتطلق آهاتها المعذبة بين الحين والآخر. اقترب منها، ومدَّ يده مربتًا على خدها، لكنها لم تكن هناك. عوى مثل ذئب جريح، تراجع إلى الصالة، تداعى على الكنبة منهكًا. أمسك الصّحيفةَ مرة أخرى.

تفرج الذاكرة عن ذكرياتها بحرص بائع شحيح، فتأتي ذكريات ذلك اليوم مثل أطياف بعيدة كأنها خيال لم يحدث حقيقة. كان النقاش بينهما محتدمًا، كان يلقي باتهاماته في وجهها وهو يغلي من الغضب، تذكر الآن كم كان أحمقَ مندفعًا ومؤذيًا. غادر بعدها تاركًا إياها تبكي عجزها. كان يظن وقتها أنه كان محقًّا، وأن فعله هو عين الصواب. صرخ ملءَ حلقه، نهض من جلسته، تجول في أركان البيت من غير هدًى. في كل ركن تبرز ذكرى ما، حوار دار هنا، ضحكات انبعثت من هناك، حديثٌ خافت وقت شرب الشاي. ثم رأى بابًا لا ينتمي إلى منزله، باباً آخر يعرفه جيّدًا، دفعه فإذا به يرى نفسه يجلس هناك في مكتبه، وثرية تجلس منهمكة في عملها، وهو يصوب نحوها نظرات مختلسة. تذكر هذا اليوم أيضًا، كان بعد مرور بالحياة والأمل. أغلق الباب ثمّ

نظـر جانبًـا فـرأى مقهـى صغـير يغلـق الممـر أمامـه. ولـج إلى هنـاك، يعـرف المـكان جيّـدًا، رأى نفسـه يجلـس هنـاك، يتلفـت حولـه بقلـق. يتناهـى إلى أذنيـه صـوت موسـيقى هادئـة، وصـوت مكيـف الهـواء، وهمسـات وضحـكات خافتـة مـن الطـاولاتِ المتباعـدة، وهـو ينتظـر بقلـق. ابتسـم بحـزن. سـتأتي الآن، وسيفسـد كل هـذا بانفعالـه وتهـوره. لم يلبـث إلا قليـلًا حتـى أتـت، ولجـت إلى المـكان مثل الفراشـة، تبعهـا، وقـف عنـد الطاولـة ينظـر إليهـما، مـا أغـربَ هـذا!، اسـتمع إلى حديثهـما الهامـس، ثـم توترهـا وهـو يتحـدث عـن هاتفهـا الـذي لا يصمـت، وعـن جمالهـا الـذي يخلـب الألبـابَ، وعـن سـعيها للفـت الأنظـار حتـى لـو تظاهـرت بالعكـس، هـل كان أحمـقَ لهـذه الدرجـة؟ كيـف واتتـه الجـرأة لإيـذاءِ كل مـن يحيـط بـه، أو يقـترب منـه، أو يهمـه أمـره؟ تبعهـا وهـي تغـادر باكيـة، تـاركًا الخليـل جالسًـا عـلى الطاولـة، ليتـه يسـتطيع مسـحَ دموعهـا، وهـي تشـير إلى سـيارة الأجـرة وتلـج إليهـا باكيـة. ركـب بجوارهـا وهـو يلهـج بكلـمات الاعتـذار عـن سـلوكه الفـظ وكلماتِـه الجارحـة، ولكنهـا كانـت غارقـة في دموعهـا ووجعهـا. مـدَّ يـده محـاولًا مسـح دموعهـا، وكالمعتـاد لم يلمـس سـوى الفـراغ. فتـح بـاب السّـيارة المندفعـة وقفـز منهـا. شـعر للحظـة بعـدم جـدوى الحيـاة، كان يسـعى للمـوت. أغمـض

عينيـه متهيئًـا للارتطـام بـالأرض بقـوة، وعندمـا فتـح عينيـه مجـدداً وجـد نفسـه يجلـس في الصالـة مـرّة أخـرى، يـا للهـول. وهـو مـن كان يظـن أن لِبـأ الحنـين يرسـله إلى الجحيـم. وقتهـا كان يـرى الأمـور مـن جانبـه فقـط، ولكـن مـا يحـدث الآن أكثـر بشـاعة ووجعًـا، وهـو يـرى تبعـات أفعالـه الخرقـاء، ومقـدار الوجـع الـذي تسـبب فيـه. كان يتجـول في ذاكرتـه لا في البيـت. كـم كان هـذا مؤلمًـا موجعًـا وقاتـلًا!

نهـض مـن جلسـته وهـو يلهـث، ركـض نحـو البـاب ودفعـه خارجًـا إلى فضـاء التاسـوع، ليـس لـه قـدرةٌ عـلى الاحتـمال. مـا يحـدث الآن فـوق حـدود طاقتـه، جلـس القرفصـاءَ جـوار بـاب منزلـه. كان التاسـوع مـن خلـف عينيـه الدامعتـين يتراقـص بمجـون. مسـح بسـاعده عليهـما، ثـمّ نهـض مـن جلسـته. ابتعـد عـن المـكان متعثـرًا بخطواتـه.كان يتلفـت حولـه بـين الفينـة والأخـرى وكأن شـياطين الجحيـم تطـارده. ظـل يدخـل مـن منـزلٍ إلى آخـر، ومـن ذاكـرةٍ إلى أخـرى. كانـوا مسـتلقين هنـاك، تلمـع أعينهـم بالدمـوع في غفوتهـم الطويلـة أو غيبوبتهـم الأبديّـة، هـو لا يـدري حقًّـا. كان يعمّـه الخـوف ويقتلـه الحـزن في رحلتـه الطويلـة عـبرَ تاسـوعِ الذاكـرة هـذا، حتـى عثـر عليـه. كان منـزلًا ريفيًّـا، يربـض بعيـدًا عـن الهضبـة، منزويًـا خلـف منـزل ضخـم يعلـو طابَقـين أو أكثـر، في ناصيتـه حظـيرة للماعـز

محاطة بسور من النباتات الشوكيّة. يصله صوت غثائها واضحًا، عبر إلى المنزل المبني بالطوب اللبن، بغرفه ذات السطح المنخفض. عبقت أنفه برائحة هي خليط من البخور واللبان والقرنفل والقرفة. رأى الأسرة المنسوجة بجلد البقر المتين، والمقاعد المغزولة بالحبال والبلاستيك، والنوافذ الصغيرة المحاذية للسقف. وفي غرفة تقع عند أقصى المنزل رأى السجادة المصنوعة من جلد الضأن المدبوغ، بفروها البني الفاتح وقد غزاها الأبيض من جانبها الأيمن السفلي. كما رأى المسبحة بحباتها الألف. كانت رائحة القدم والتاريخ تفوح من المكان. خفق قلبه وهو يراه مستندًا إلى الجدار الذي يقع يساره مباشرة، صرخ بهلع:

- الشّيخ جابر؟

كان الشيخ جابر بملامحه الوادعة ولحيته البيضاء ذاهبًا في غفوة طويلة، تسيل دمعتان من عينيه، ويتحرك رأسه يَمنة ويَسرة. هزه الخليل بعنف، هاتفًا باسمه. لم يستجب أوَّل الأمر، ثم فتح عينيه بصعوبة، ونظر إلى الخليل قائلاً بإعياء:

- إذن، فقد أتيت أخيرًا.

اعتدل في جلسته واضعًا يديه على ساقيه، وتمايل للحظة

ثـم عـاد للجلـوس سـاكنًا، قـال الخليـل:

- ما الذي تفعله هنا يا جابر؟

هـزَّ الشّـيخ جابـر رأسـه نافيًـا وردّ بصـوت مغمـوس في الحـزن:

- لم يعـد هـذا هـو اسـمي. اسـمي الآن هـو «الـذي لا اسـم لـه».

تراجـع الخليـل وهـو ينظـرُ إلى الشـيخ جابـر بذهـول. مـا لهذا العـالم كلـما انكشـف فيـه سر ازداد غموضًـا؟! وكلـما حَسِـبَ أنّ أيامَـه انقضـت زادت عمـرًا؟ أمـا مـن نهايـة لهـذه اللعبـة العبثيـة؟ في أيّ هـوة سـقطوا وهـم يعـبرون الدائـرة المضيئـة للمـرة الأولى؟ لقـد كان يظـن أن مـن انقضـت أيامـه التسـعة قـد نجـا أيًّـا كان مصـيره، ولكـن ها هـو الشـيخ جابـر يجلس أمامـه في ذات التاسـوع، وإن كان عـلى جانبـه الآخـر. لفّهـما الصمـت وهمـا يتبـادلان النظـرات بينهـما، ثـم نهـض الشـيخ جابـر وتبعـه الخليـل وخرجـا مـن الغرفـة معًـا، احـترمَ الخليـل صمـت الشـيخ جابـر، حتـى وصـلا إلى منتصـف الفنـاء، ثـم التفـت إليـه أخـيرًا وقـال بصـوت هـادئ:

- كنـت أعلـم أنـك أوَّل مـن سـيطرق هـذا البـاب، وآخـرُ مـن سـيطرقه أيضًـا، لا أدري كـم انتظرتـك حتـى أتيـت،

ولكنـي وأنـا أعـبر الدائـرة المضيئـة كانـت أسرار مـا ينتظـرني تتكشـف كأني أقرأهـا مـن كتـاب، ورأيتـك وقتهـا بـذات الهيئـة تعـبر مـن بـاب هـذا المنـزل إلى الداخـل.

- كيـف حـدث هـذا ولمـاذا؟ كيـف عـدت إلى التاسـوع مـرة أخـرى بعـدَ مغادرتـه؟

فردَ الشّيخ جابر يديه وقال باستسلام:

- شيء مثـل لعبـة النّـرد، قـد تـأتي هنـا أو لا تـأتي. الأمـر قـدري تمامًـا، ولكـن مـن يأتـون إلى هنـا هـم أسـوأُ أهـل التاسـوع حظًّـا، بـل يفوقـون عـمال المناجـم حزنًـا وألمًـا، فالوجـع هنـا سرمـديٌّ ودائـم، لا ينقطـع للحظـة واحـدة.

أشار بيديه إلى المنازل التي تحيط بهِ وقال بأسى:

- هـل تـرى المنـازل التـي تحيـط بنـا؟ أولئـك هـم أكثـر أهـلِ التاسـوع حزنًـا. يبـدو لِبـأ الحنـين وتأثـيره مثـل عبـث الأطفـال عنـد مقارنتـه بـما يعانونـه، فالـكلُّ هنـا لا يغـادر المـاضي ولـو للحظـة واحـدة. لا هدنـة، ولا وقـت مسـتقطع للراحـة، وهـذا قليـل لـو علمـت مـدى المعانـاة التـي يعانونهـا.

شـعر الخليـل بحلقـه يـكادُ ينفطـر مـن الظمـأ، وقلبـه يهـوي مـن الخـوف، والحـزن يحيـط بـه مـن كل جانـب ويجرفـه

تيـاره نحــو القــاع، وهــو ينصــت إلى جابــر الــذي أكمــل بــذات النــبرة الغارقــة في الأســى:

- هــذا هــو عــينُ مــا يفعلــه لِبــأ الحنــين، يأخــذك إلى المــاضي هنيهــة ثــم يعيــدك، ولكننــا هنــا نظــل هنــاك، وتمتــد اللحظــة إلى مــا لا نهايــة، فنشــاهد نتيجــةَ مــا نفعــل وتبعاتــه، فيتعاظــم الحــزن ويكــبر حتــى يغــدو وحشًــا يلتهمنــا بــلا هــوادة.

تذكــر الخليــل مــا مــرَّ بــه قبــل قليــل، واللحظــة الممتــدة التــي عاشــها، ورأى تبعــات أفعالــه الخرقــاء عــلى الآخريــن، أي عــذابٍ ينتظــره في هــذا الفــخ الأبــدي؟ انتبــه لجابــر وهــو يكمــل قائــلًا:

- وهــذا ليــس مقترنًــا بالذكريــات السّــيئة فقــط، بــل حتــى السّــعيدة منهــا، لا تقــل ســوءًا ولا ألمًــا، وهــي تعظّــم لديــك حجــمَ الفقــد وشــدّة الشّــوق، فيزيد وحــشُ الوحــدة ضراوةً، وتــزداد أســنانُه حــدّة، فيفترســك بــلا رحمــة ويلتهمــك بــلا هــوادة.

صرخ الخليل جزعاً:

- وأين النّجاة؟

هــزَّ الشــيخ جابــر رأســه بأســف وهــو ينظــر إليــه بعــين دامعــة. فــرَّ الخليــل مــن أمامــه راكضًــا نحــو التاســوع، تبعــه

الشيخ جابر حتى باب منزله، ثم وقف هناك هاتفًا باسمه في رجاء، ابتعد الخليل ثم انقلب على عقبيه وعاد للوقوف أمامَ المنزل، قال جابر بحزن:

- لا أستطيع الخروجَ من هنا إلا لمرافقتك في رحلتك الأخيرة، أنا سجينُ هذا المنزل الذي تراه، حتى وقتي المعلوم.

قال الخليل في حائراً:

- ولكني أستطيع الخروج ودخول المنازل هنا بيسر.

قال جابر بأسى:

- لأن موعدَك لم يحن. ما زلتَ تجول في ذاكرة التاسوع، ولم تحبس في ذاكرتك بعدُ.

قال الخليل مندهشاً:

- ذاكرة التاسوع؟

أومأ جابر برأسه مؤكدًا:

- منذ عبورك الدغل، وأنت لم تعد الخليل بل جزءاً من الذاكرة العملاقة. كل ما مررت به هو ذاكرة التاسوع، تحت كل حجر قصة، وخلف كلّ أكَمة ذكرى. هذا الجزء من التاسوع أشبه بذاكرة عملاقة، تحتفظ في أضابيرها

بـكل مَـن مـروا مِـن هنـا، وتمـور بذكرياتهـم، فتظـل خالـدةً مـا بقـي التاسـوع.

- وهـل مصـير كلّ مـن يعـبر مـن الدائـرة المضيئـة هـو القـدوم إلى هنـا؟

هزَّ جابر رأسه موافقاً، قبل أن يردَّ قائلًا:

- جميعهم بلا استثناء.

قال الخليل بدهشة:

- كيف أحطت بكل هذا علمًا؟

قال جابر بأسى:

- مثلـما علمنـا بوظائفنـا ومنازلنـا حـين أتينـا التاسـوع أوَّلَ مـرة. لا أحـد يخـبرك ولكنـك تعلـم.

هـزّ الخليـل رأسـه متفهـمًا، لم يعـد هنـاك مدعـاة للاستفسـار، فـكل مـا هـو آتٍ آت. آلمتـه رجلـه فجلـسَ عـلى الأرض. مـن يـدري حقًّـا أيـن يكمـن الخيـار الجيّـد في كل هـذا؟ وأيـن طريـق النجـاة؟ فـإن كنـا لا نملـك خيـارًا، فـلا يحـق لنـا أن نأمـل. شـعر باليـأس يخنقـه، تذكـر مـن ينتظرونـه في الجانـب الآخـر مـن التاسـوع، فقـال لجابـر راجيـاً:

- أريـد بعـضَ المـاء للعـودة بـه إلى الجانـب الآخـر. تركتهـم

يعانـون الظمـأ.

ابتسم جابر بحزن وقال:

- لم يعودوا بحاجة إلى الماء.

قال الخليل بجزع:

- كيف هذا، هل ماتوا؟

هز جابر رأسه نافيًا:

- هم بخير بمقاييس التاسوع.

تكاثفـت أسراب الطيـور في السـماء مـن فوقهـم، نعيقهـا يـكاد يصـمّ الأذان. فتحـت الأبـواب المواربـة، كان الجميـعُ ينظـرون إليهـما، تقـدم جابـر إلى الخـارج وقـال:

- لقد حانَ الوقت يا صديقي. هذه إشارة الرحيل.

قال الخليل خائفاً:

- هل انقضى يومي التاسع؟

أومـأ جابـر برأسـه موافقًـا ثـمّ خـرج مـن البـاب يتـوكأ عـلى عصـاه متوجهًـا نحـو الهضبـة. هتـف بـه الخليـل:

- إلى أين تذهب وتدعني هنا؟

التفت جابر إليه وقال بأسى:

- الخليل الذي سيغادر موجودٌ في الجزء الآخر خلفَ جبال المناجم، أنت غيرُ موجود، مجرد ذكرى في ذاكرة التاسوع.

صرخ الخليل هلعاً، فقال جابر مطمئنًا إياه:

- حالما يغادر الخليل ستتحول إلى ذاكرةٍ نائمة في مكان من هذا العالم الشاسع. لن يوقظك سوى عودته إلى هنا إن كان ذا حظ عاثر.

قال الخليل بجزع:

- كيف تقول هذا؟ انا موجود هنا وليس هناك، وأرغب الآن في العودة لمساعدة من ينتظرون أوبتي.

دنا منه جابر، وضع يده على جبهته، شعر لخليل أنه خفيف كالطيف. حلق قاطعاً الدغل في لمح البصر فوجد نفسه يقف عند حدود الدغل، والتاسوع الذي يعرفه يمتد أمامه مغلفاً بالبرد والظلام. أتت القاطرة تتهادى في سماء التاسوع، وعند حدود الدغل اهتزت كأنّها اصطدمت بجدار غير مرئي. ظلت رابضة في مكانها برهة من الزمن، ثم انفصل طيف شفاف منها. ذات القاطرة التي تحمله، عبر طيفها من حدود الدغل، في حين ظلت القاطرة معلقة في مكانها، ترتج بإيقاع

رتيب. ظهرت بعد ذلك طيور التاسوع من قلب الدغل، أحاطت بها إحاطة السوار بالمعصم، وظلّت تخفق بأجنحتها، وأعدادها تتزايد حتى اختفت القاطرة تماماً وسط أسراب الطيور. ثم تحرك الموكب ببطء متجهاً إلى قلب التاسوع، بدا لعيني الخليل كأنه موكب جنائزي يلفه الصمت مشيعاً إياه إلى مثواه الأخير.

أبعد جابر يده عن جبهة الخليل، فتح الأخير عينين مغرقتين بالدمع ناظراً إلى جابر كأنه يستجديه النجاة ولا نجاة.

تنهد جابر ثم قال بحزن:

– يا بنيَّ، ليتني أملكُ أن أسمح لك أو أمنعَك، ولكن حدود التاسوع مغلقة عليك. هذا هو قدرك الأخير فامتثل يا صديقي.

تابعه الخليل حتى وصل إلى جبال المناجم، عبر من خلالها كأنه طيف، صرخ الخليل بعجز وصخور الجبال تقف سدًّا منيعًا بينه وبين العبور. جلسَ على إحداها، والجبال تستعيد كثافتها أمام عينيه لتعود إلى حالتها الأولى بعد أن عبرها جابر بسهولة كأنها الخيال.

تداعت الثعالب الخجولة إلى قلب التاسوع، مختبئة خلفَ

الآكام المتناثــرة وشــجيرات الحيــاة اليانعــة، واجتمعــت الطيــور فغطّــت أديــم التاســوع والهضــاب ورؤوس المنــازل، وركَّــت عــلى أفــرع الشــجيرات الواهنــة، فانثنــتْ مــن ثقلهــا. كان نعيــق الطيــور عاليًــا، وضبــاح الثعالــب حزينًــا. اجتمــع الثمانيــة في قلــب التاســوع، والخليــل يتوســطهم ممســكًا مكنســتَه وجاروفــه. كان الجــزع ينبــض مــن وجــه الطاهــر، كــما أنّ حزنًــا عميقًــا يثقــل ثريــة لا تعلــم لــه سببًا. كان ربيــع يتشــقلب في المــكان، ودخــان المناجــم يعلــو في السّــماء بلونــه الأخــضر ورائحتــه النفــاذة. كان مــا يحــدث روتينيًّــا، كــما يحــدث في نهايــة كلّ يــوم مــن أيــام التاســوع، ألقــى الخليــل مكنســتَه وجاروفــه والتفــت إلى ثريــة وصرخ دامعًــا:

- أنــا آســف عــلى كل شيء، صدقينــي لــو عــاد بي الزمــان لكنــت شــخصًا آخــرَ.

لمعــت دمعتــان في عينيهــا، ربتــت ماريّــة عــلى كتفهــا مواســية إياهــا، أومــأت برأســها بصمــت وهــي تتابــع مــا يحــدث أمامهــا، دنــا الشــيخ جابــر منــه وكأنــه يســير عــلى المــاء، مهمهــماً بصــوت خافــت:

-أيها الذاهبُ إلى الدائرة.

يقودك التيهُ إلى التيه.

يلفظُك التاسوع وتلتقطك الذاكرة.

فلتدنُ الدائرة وليعظمْ حجمها

أيها الذاهب إلى الدائرةِ المضيئة.

كان موكب الطيور حزينًا، وهي تسير خلف جابر منكسةً رأسها إلى أسفل، يصل نعيقها إلى الخليل مرددة:

- نحن الذاهبونَ إلى الدائرة.

يقودنا التيه إلى التيهِ.

يلفظنا التاسوع وتضيعنا الذاكرة.

فلتدنُ الدائرة وليعظمْ حجمها

نحنَ الذاهبون إلى الدائرة المضيئة.

أجابها ضباحُ الثعالب، عاليًا يشق فضاء التاسوع:

- نحن الباقونَ في التاسوع.

يوارينا الأديمُ ويقتلنا الحنين.

نحن مَن نجهل الدوائرَ وتنكرنا.

نحن ذاكرةُ التاسوع الحيّة.

نحن الباقون في التاسوع.

سـقطت العصـا مـن يـد جابـر، ويـداه معقودتـان فـوقَ هامتـه، وهـو يلهـج بسرعـة، والدائـرة المضيئـة تتسـع مـن فوقـه حتـى كادت تبتلـعُ السّـماء.

- خذي أمانتك أيّتها الدائرة المضيئة.

انقضت تسعته الأولى.

وعاد إليك ليبدأ رحلة أخرى.

سلِّميهِ إلى حيثُ ينتهي به المقام.

خذي أمانتك أيَّتها الدائرة.

ارتفـع جسـدُ الخليـل بطيئًـا نحـو الدائـرة المضيئـة، تحيـط بـه طيـور التاسـوع. نظـر إلى الدغـل الممتـد أمـام ناظريـه، بـرزت آلاف الوجـوه أعـلى الأشـجار، رآهـم للمـرة الأولى لكنّـه كان يعرفهـم منـذ الأزل. رأى جابـر والزبـير بينهـم، ورأى نفسـه أيضًـا. كان الآن محيطًـا بقصصهـم جميعًـا. بـدا الدغـل مـن تحتهـم أخـضرَ يانعًـا كـما لم يـره مـن قبـلُ. تـبرق قمـم المناجـم مـن الجانـب الآخـر كأنهـا شـموس صغـيرة. يبتعـد عنـه التاسـوع، ويدنـو مـن الدائـرة المضيئـة، فتغمـره أشـعتها الزرقـاء وتتخللـه كأنـه كائـن شـفاف. صرخ صرخـةً عظيمـة ثـم ابتلعتـه فجـأة، شـعر كأنـه يعـبر أنبوبًـا ضخـمًا من الزرقـة، ثـم في لحظـة خاطفـة وجـد نفسَـه ينظـر إلى صالـة

صغـيرةٍ محتشـدة بالكتـب. هـل هـذه مكتبـةٌ؟ ألقـى نظـرة متفحصـة عـلى المـكان. رأى فتـاةً ربعـة القامـة تقلـب كتابًـا بـين يديهـا. اقتربـت منـه، نظـرت إليـه بفضـولٍ مـن خلـف نظّارتهـا الطبيّـة، ثـم مـدّت يدهـا فبـدت عملاقـة وهـي ترفعـه بيـسر وسـهولة، ثـمّ نظـرت إليـه بإمعـانٍ. حـاولَ أن يفغـر فـاه معـبرًا عـن دهشـته ولكـن فمـه لم يطاوعـه. رأى انعـكاسَ الكتـاب عـلى عدسـات نظارتهـا فوجـد نفسـه داخـلَ غـلاف الكتـاب يقـف في وسـط التاسـوع ممسـكًا مكنسـته وجاروفـه. قـرأ عنـوان الكتـاب بصعوبـة « تاسـوع الخليـل الأخـير».

تمَّت بحمد الله.

٢٦/ ١٢/ ٢٠٢٠